

أبراهيم الوائلي

التعريب السني العراقي

في القرن التاسع عشر

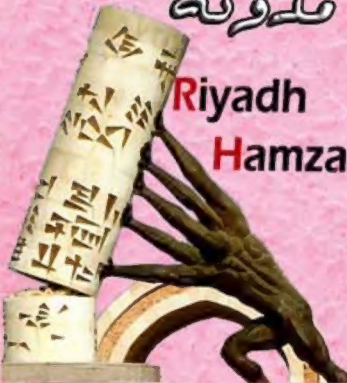
١٩٦١

مقدمة

مقدمة جامعة بغداد على نشره

Riyadh
Hamza

مطبعة العاني - بغداد



ساعات جامعة بغداد على نشره

التتبع السبيل العراقي

في القرن التاسع عشر

تأليف

ابراهيم الوائلي

المدرس بكلية الآداب - جامعة بغداد

مدونة

Riyadh

Hamza

مطبعة العاني - بغداد

١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م

مقدمة

قبل أن أُنخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة كانت تدفعني رغبة ملحة الى معالجة الموضوعات الحديثة من الشعر العربي ، وكنت - على الرغم من اعتقادي بأننا لم ننته بعد من دراسة الادب القديم - أشعر بضرورة البحث في الادب الحديث وما جد في عصر النهضة التي ظهرت طلائعها في أول القرن التاسع عشر ، ولاحظت أن اشباع هذه الرغبة عمل صعب لا يسلم فيه المنهج من الالتواء ولا تأتي فيه الدراسة بأكثر من التأليف والجمع وبما قد يكون غير ذي جدوى من الاستنتاج والتحليل لذلك رأيت أن أقصر دراستي على الشعر السياسي في العراق خلال القرن التاسع عشر لتكون الدراسة أطوع للسلامة والوضوح ، وإن شعوري بالحاجة الى استجلاء الحالة السياسية وغيرها في العراق أيام خضوعه للحكم العثماني ولو في فترة من الفترات وإلى معرفة الانثر الذي تركته في حياة السكان ومدى صلتها بالشعر وتأثيرها فيه كل ذلك قد دفعني الى اختيار هذا اللون من الشعر الذي قد يكون ضعيفا فواحثير من خصائصه أو في ناحيته الموضوعية على الأقل .

الخاتمة وقبل أن أقدم على كتابة هذا الموضوع فكرت فيه من كل جوانبه التولت فيمن يكون قد سبقني اليه فظهر لي أنه لا يزال غير مبحوث فيه بمنأى واستقصاء وأنه يحتاج الى دراسة شاملة ، ومن ثم أخذت أتبع مصادره ومراجعته وشرعت أتصفح ما يمكن الاعتماد عليه في تاريخ السياسة العثمانية ولاسيما التي تخص العراق ، ومكثت سنتين^(١) في القاهرة كنت أرتاد فيهما دار الكتب وغيرها ثم أربع سنوات في العراق أبحث وأفش حتى توفرت لدى المادة الكافية لعرض الجانب السياسي ولكن المصاعب التي لم تقف عند

(١) من صيف ١٩٤٩ - حتى صيف ١٩٥١م

حدود الاناة وبذل الوقت تلك التي حالت دون دراسة الحياة الاجتماعية في العراق فلقد كانت الحالة الاجتماعية في القرن التاسع عشر لم تأخذ في بحوث التاريخ نصيبها من العناية الا القليل مما كتبه بعض العراقيين والرحالة الاجانب وقد استطعت أن آخذ من هذا القليل مفتاحا لدراسة لا تعدو الواقع في مجتمع متأخر آنذاك كالعراق ، ومثل هذا ما يقال عن الحالة العلمية فان هذه الناحية لم تظفر من الباحثين بدراسة موضوعية شاملة عدا قليل من المؤلفات التي ترجمت لبعض العلماء والادباء ولكنها لم تستقص وانما اكتفى أصحابها بالفريق الذي ينتمون اليه وأهملوا ما سواه .

وكانت المصاعب في دراسة الشعر لا تقل عن غيرها ولا سيما الشعرو الذي لا يزال قد المخطوطات المتفرقة ومعظم هذه المخطوطات مدفون في زوايا البيوت القديمة بعيد عن يريد أن يقرأ أو يطلع .

وكان الى جانب هذا غموض المناسبات والحوادث التي أملت كثيرا من الشعر سواء منه ما كان مطبوعا أم مخطوطا . ولعل هذا الغموض يرجع الى جهل النساخ أو عدم اهتمامهم - على الأقل - بتدوين المناسبات . وقد يرجع الى اغفال الشعراء أنفسهم تلك المناسبات لئلا يكون في ذكرها شيء من الغضاضة التي قد تسيء الى سمعة الشاعر أو تؤذي أبنائه وقد يكون من أسباب الاغفال اعتماد بعض الشعراء على شهرة المناسبة ومعرفة الناس فلا يذكرونها حتى يمتد الزمن فصير المعلوم مجهولا لدى الباحثين . عل بعض القصائد قد أهمل فيه ذكر المناسبة لا للأسباب المتقدمة بل للسياسة كقصائد الاخرس في الوالى (مدحة) فان الاشارة الى المدوح قد ح عندما طبع الديوان في الاستانة أيام السلطان عبدالحميد .

وقد دلت صعوبة الاطلاع بما أفدت من مكتبة الآثار ببغداد (٢) فقد أغتتت هذه المكتبة بما فيها من مطبوع ومخطوط يتصلان بموضوع البحث

(٢) من الحق أن اعترف بجميل الاستاذ كوركيس عواد أمين المكتبة لما كان يبذله هو ومساعدوه من عناية في تهيئة المراجع المطلوبة

ونذت بمن آنتست فيهم الاريجية والسماحة للوقوف على بعض القصائد التي لم أجدتها في مكتبة الآثار •

ثم ذلت صعوبة الغموض الذي أحاط بمناسبات بعض القصائد بتتبع الحوادث والاسماء والسنين ودراسة الشعر نفسه للاعتماد على ما فيه من فرائن زمنية ومكانية وما فيه من كلمات وأسماء ترتبط بالمناسبات والحادثة وتقف عندها وتستوحى فجاءت الدراسة واضحة في أكثر جوانبها •

أما المصادر والمراجع التي استعنت بها على هذه الدراسة فهي دواوين الشعراء والمجموعات الأدبية من مطبوع ومخطوط مما استطعت أن أظفر به ولعل هذا معظم ما يمكن الوصول إليه من مصادر الشعر التي كوت هذا البحث وإلى جانب هذه المصادر ما استعنت به من المراجع العربية والأجنبية المترجمة وغير المترجمة في كتابة التمهيد ثم الفصول الثلاثة التي اشتمل عليها الباب الأول وقد وضع ليكون مفسرا لبواعث الشعر مما اشتمل عليه الباب الثاني • ولا بد لي في هذه المقدمة من الاعتراف بجهد الاستاذ عمر الدسوقي استاذ الادب الحديث بكلية دار العلوم في وضع المنهج الذي سرت عليه في كتابة هذه الرسالة وفما أبداه من ارشاد قيم ، ولا بد لي أيضا أن أسجل وتقديرى لمناقشة الدكتورين الفاضلين عبدالرزاق حميدة وأحمد محمد فيه وفي وملاحظتهما الدقة التي ساعدت على تنسيق بعض الموضوعات فواختصار ما يجب اختصاره ولا سيما ما يتصل بالحالة الاجتماعية فإن الفصل الخاص بها قد كتب بتوسعة في استعراض المظاهر العامة والعادات والتقاليد التي يمكن الاستغناء عن ذكر بعضها وعدم الاسهاب في بعضها الآخر والاكتفاء بذكر مراجعها في الهوامش ، وقد ساعدت هذه الملاحظات أيضا على كتابة تمهيد للباب الثاني يوضح معنى الشعر السياسي وتطوره ولم يكن هذا التمهيد موجودا في صلب الرسالة فل مناقشة • أما ما حذفته من موضوع الشعر فهو جانب من الفصل الخامس من الباب الثاني يتصل بموازنة عقدها بين الشعر في العراق وبينه في سوريا ولبنان ومصر خلال ترقن التاسع عشر فقد بدا لي أن هذه الموازنة - على ما فيها من طرافة وجهد

وعلى ما فيها من صلة بالجانب الفنى والتاريخى - لم تكن من صلب البحث
ويس فى حذفها ما يؤدى الى خلل فيه • فاذا كان ثمة شئ يستحق أن
يضاف الى الدراسات الادبية فى هذه الرسالة فهو كل ما أرجو من بحث
استفد كثيرا من الجهد والزمن ، وأنا - حين أقدم هذه الدراسة الى قراء
الادب - انما أقدمها مع الاعتذار عما يمكن أن يروه فيها من الهنات التى
لا يسلم منها أى باحث أو مؤلف •

ابراهيم حرج الوائلى

تمهيد

الحالة السياسية والأدبية في العراق قبيل القرن التاسع عشر

الاستيلاء العثماني

اتسعت فتوحات العثمانيين فرسخت أقدامهم في ثلاث قارات عدة قرون وخضع لسلطانهم الوطن العربي ، ولما كانت بغداد ذات أهمية تاريخية وسياسية فقد اتجه العثمانيون الى احتلالها وكانت اذ ذاك بيد الفرس الصفويين^(١) ، وفي سنة ٩٤١ هـ ١٥٣٤ م استولى عليها السلطان سليمان القانوني وتعاقد فيها الولاة العثمانيون الذين حكموا العراق وهم بحاجة الى كثير من الفهم والمرونة فقد كان ظهورهم أمام القبائل بلغتهم وأخلاقهم الغريبة من عوامل الاشتراز الذي أدى الى كثير من الثورات القبلية ، وكان الانكشاريون - وهم المسهمون في بناء الحكم المهزوز المستقلون بالاقطاعات التي منحوها - لا يألون جهدا في محاربة هذه القبائل .

واستمر العثمانيون يحكمون العراق حتى سنة ١٠٣٣ هـ ١٦٢٣ م اذ هوجمت بغداد من قبل الفرس أيام الشاه عباس حتى فتحها السلطان مراد سنة ١٠٤٨ هـ ١٦٣٨ م ودخلها على رأس جيش وهي تعاني مرارة جوع

(١) كان الصفويون قد احتلوا العراق سنة ٩١٤ هـ ١٥٠٨ م وقد سبقت حملة العثمانيين حروب طاحنة بين السلطان سليم والشاه اسماعيل وتبودلت بينهما رسائل شديدة اللهجة راجع رسالة سليم الى اسماعيل في تاريخ الاتراك العثمانيين ، لحسين ليبب ص ٤١ - ٤٥ ج ١

شديد بعد أن دارت المعارك في أزقتها • وتعاقب الولاة المستبدون في بغداد والموصل طيلة القرن السابع عشر الذي انتهى دون استقرار وجاء القرن الثامن عشر فكان بداية عهد انحلال للدولة نفسها اذ انتقلت من سياسة الفتح الى سياسة السلام^(٢) وكانت اوربا قد استقطبت بعد الثورة الفرنسية وأخذت تنظر الى الدولة العثمانية نظرة مصحوبة بالاحسد والحققد فنشبت الحروب بين العثمانيين والروس الى جانب الحروب المستمرة مع الفرس وقد أدى هذا الانشغال بالحروب الى تسابق الدول الاخرى على استلاب ما يمكن استلابه فاحتل الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨م واتصلت بريطانيا بالخليج العربي ووطئت أقدامها بعض امارات الساحل •

وفي أواخر هذا القرن ظهرت بوادر الدعوة الوهابية ، وكان العراق خلال هذه الفترة يموج بحوادث بعضها امتداد للتاريخ وبعضها ايدان بتاريخ جديد ونعني بالاول استمرار الحكم الصمد الغريب على السكان والحوادث الداخلية التي كانت تزعج هؤلاء الحكمة والثورات القبلية في الجنوب والشمال والغزو الايراني الذي تابعت أحداثه عى بغداد والموصل والبصرة ومناطق الشمال الكردية حتى منتصف القرن - من عشر لتعود مرة اخرى • ونعني بالثاني انتقال الحكم من الولاة الغمسين الى ممالئهم من الكرج في منتصف القرن الثامن عشر بينما كانت التمدد في وسط العراق وجنوبه تسعى بكثير من الجهد الى تقوية زعاماتها ونفوذها •

بداية الممالئك

كان حسن باشا الذي ولى بغداد سنة ١١١٦هـ ١٧٠٤م من أبرز ولاة فقد بقي في الحكم مدة عشرين سنة وهي مدة يحسد عليها وال مثله كان يعيش في الجو الذي عاش فيه أسلافه ولم يكن سبب بقائه طيلة هذه المدة الا انشغال الدولة بنفسها عما يتبعها وكونه من الذين وقفوا في وجه الفرس بقوة وحزم وقد مات في حملته التي توجه بها الى ايران سنة ١٧٢٣م^(٣)

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٥ م ٥ الترجمة العربية

(٣) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث للونكريك ص ١٢٤ ط ٢

ترجمة جعفر خياط

فخلفه ابنه أحمد وكان كأبيه في حروبه مع الفرس حتى مات في صيف سنة ١٧٤٧م وكان يقود حملة لمحاربة البابانيين من زعماء الاكراد في شمال العراق^(٤) .

ان المدة التي قضاها حسن باشا في الحكم قد دفعته الى أن يجعل من قصره بلاطا يشبه بلاط السلطان في الاستانة وكان قد عرف - وهو مستخدم في الباب العالي - كيف ينظم السلطان مستخدميه فأخذ يؤسس على عرار ذلك درجات مستخدميه في بغداد^(٥) وكان من هؤلاء طائفة من الارقاء جيء بهم صفارا من بلاد الكرج^(٦) ثم تدرجوا في الخدمة فأسندت اليهم الوظائف المختلفة من مدنية وعسكرية وكان من بين هؤلاء المملوك سلمان فقد أعتقه الوالي أحمد بن حسن حين أسندت اليه الولاية بعد أبيه وزوجه ابنته عادلة^(٧) وجعله نائبا له (كئذا) وبعد وفاة أحمد كان الماليك قد رسخت أقدامهم في بغداد فلم يخضعوا للولاة الثلاثة الذين عيّنهم الدولة بل شغبوا عليهم طيلة حكمهم الذي لم يتجاوز ثلاث سنوات^(٨) وأناروا الفوضى ضدهم حتى اضطرت الدولة الى تعيين سليمان المملوك المعتق واليا لبغداد سنة ١١٦٣هـ ١٧٥٠م^(٩) وهو أول وال مملوك حكم هذه الولاية ثم أضفت اليه الصرة ومازدين وبقي يحكم مدة اثنتي عشرة سنة كان فيها أهل بغداد

(٤) المصدر السابق ص ١٥٢

(٥) المصدر السابق ص ١٥٤ وتاريخ الماليك لسليمان فائق

الورقة ٦ ترجمة نجيب ارمنازي

(٦) الكرج من شعوب الهند الجرمانية وتسمى بلادهم كرجستان

وهم مشهورون بالجمال وقد دالت دولتهم سنة ١٨٠١م واستولت عليهم

روسيا وحاضرتهم تفليس على ضفاف نهر (الكر) Kour ومنهم ممالك

بغداد الذين عرفوا بالكله من اي الاسراء راجع (لغة العرب) الجزء

الاول من السنة الرابعة - تموز ١٩١٤ - بغداد

(٧) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٥٥ و

Baghdad the city of peace. by richard koke. p. 227. 2nd. London.

(٨) راجع (سالنامه) بغداد الدفعة ٢٢ سنة ١٣٢٩هـ و (تاريخ

الماليك الورقة ٣

(٩) كان بعد وفاة سيده وصهره أحمد قد عين واليا لاطنه فذهب

اليها ثم جاء به الى بغداد تعصب الماليك

راضين قانعين لانه كان يحميمهم من غارات القبائل فى حين كان هو محكوما لزوجه ذات النفوذ القوى وفى حين كان ميل المالك يتدفق من تفليس الى بغداد لتسلم أهم الوظائف والمناصب بينما كان يكفى المرء أن يكون بغداديا ليحد من طمعه فى الوظيفة^(١٠) .

وتوفى سليمان سنة ١١٧٦هـ ١٧٦٢م فعرضت بغداد - كعادتها - لشغب المتنافسين على الحكم من المالك وكان هؤلاء سبعة من الضباط فاتيح لاحدهم وهو (على آغا) أن يكون واليا ووزيرا بعد سليمان ولكن أصله الفارسي وما قيل عن تشييعه كان من أسباب الفوضى التى عاقت استمراره فى الحكم فقتل^(١١) وخلفه عمر زوج بنت أحمد الثانية^(١٢) فقتل أيضا وخلفه عبدى ثم حسن ثم سليمان الكبير الذى ختم به القرن الثامن عشر واستمر بعده حكم المالك فكان آخرهم داود الذى انتهى به حكم هؤلاء سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م .

أما الموصل فانها كانت خاضعة للأسرة الجليلية الموصلية وكان أبناء هذه الاسرة يتعاقبون على الحكم ولاية من قبل السلطان وأما مقاطعات الاكراد فهى خاضعة لزعماء القبائل الكردية التابعين للسلطان ، وكانت البصرة ونواحيها تابعة لوالى بغداد .

الحالة العامة :

ليس من السهل أن نسرد الحوادث مفصلة فى تمهيد قصير خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر فقد كانت عقابيل الطمع الايراني تستدعى التحفظ والاستعداد لمنع تكرار الحوادث التى تعرضت لها بغداد والموصل والبصرة فى النصف الاول منه ، وكان خطر الحركات الوهابية قد تجاوز حدود نجد الى بادية العراق وأخذ يهدد سكان الضفة الغربية من

(١٠) Baghdad the city of peace. p. 229.

(١١) كان قتله على يد خلفه عمر الذى استعان ببعض متنفذى بغداد عليه . وقد دافع رسول حاوى فى كتابه (دوحة الوزراء) عن على آغا هذا فى ص ٢٥٩ من الاصل التركى المخطوط فى مكتبة الآثار
(١٢) اسمها عائشة وهى أخت عادلة زوجة سليمان

نهر الفرات وقد بلغ التهديد درجة مخيفة فى نهاية القرن الثامن عشر
فرحفت لمحاربة الوهابيين قبائل الجنوب من المتفق وغيرهم ثم جيش مؤلف
من معظم القبائل العراقية وجنود الدولة بقيادة الكتخدا (على) أيام ولاية
سليمان الكبير وكان هذا الزحف سنة ١٢١٣هـ - ١٢٩٨ - ١٧٩٩م وقد بادت
كل هذه المحاولات بالخيبة ولم تجد نفعا .

وكانت اليد الاجنبية قد مدت أصابعها الى العراق فلبريطانيا وفرنسا
ممثلون فى بغداد والبصرة^(١٣) ولهؤلاء الممثلين صلة بولاية بغداد تبعها
مساعداة جمة لهم وكان الوالى عمر ممن ساعده الانكليز^(١٤) وكان نفوذ
وكلاء الشركة البريطانية^(١٥) ونجاحهم مبعث حقق الفرنسين وحسدهم
فقد ظفرت هذه الشركة بمطف الوالى سليمان الكبير لانها ساعدته على ارتقاء
المنصب وقد طلب بوساطتها بعض السلاح والعتاد من يومبيء وتكرر هذا
الطلب مع استقدام مدرين اوروبيين من الهند . وكان تدخل المقيم البريطانى
قد ساعد سليمان هذا على البقاء فى منصبه عندما شاع خبر تعيين سليمان
الشاوى البغدادى واليا لبغداد سنة ١٢٠٢هـ - ١٢٨٧ - ١٧٨٨م فقد كتب المقيم
الى السفير البريطانى فى الامتانة ليسانع الوالى المملوك على بقاءه فى
الولاية^(١٦) .

ولقد كانت الحياة العامة فى بغداد غير مستقرة ومثلها المدن الاخرى
وكان الشعب الذى يثيره الممالك وحاشية الوالى طمعا بالمال والحكم عاملا
هاما فى عدم الاستقرار وفى اثاره الهلع والخوف بين السكان . أما القبائل
فقد كانت أشد اضطرابا وثوراتها تكاد تكون مستعصية على الحكومة ولكن
الولاية لم يدخروا أى جهد لخضد شوكة الثائرين وقمع ثوراتهم .

(١٣) أول مقيمة اسستها بريطانيا فى البصرة كانت سنة ١٧٦٤م
وفى بغداد سنة ١٧٩٨م راجع (العراق دراسة فى تطوره السياسى)
لايرلاند ص ١٤ ترجمة جعفر خياط

(١٤) Baghdad the city of peace. p. 230.

(١٥) تأسست هذه الشركة فى البصرة سنة ١٧٥٥م

(١٦) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٤١

وقد كانت قبائل الفرات الاوسط تحمل راية التمرد على الحكم وتنفض بين حين وآخر ساخطة متبرمة من ثقل الضرائب وفداحتها . ومثلها قبائل المنتفق في الجنوب وقبائل جنوبى دجلة وكذلك شمر وعزرة في الشمال الغربى ، والاكراد في المناطق الجبلية غير انها كانت مبعثرة لا يجمعها هدف موحد ولكن ثورة واحدة يمكن أن تعبر عن هدف وتصميم وتوحى بأن هناك احساسا بوجود طرد الولاة الاجانب وهذه الثورة كانت سنة ١٢٠١هـ ١٧٨٦-١٧٨٧م وقد بدأها سليمان الشاوى^(١٧) في بغداد فهدد هذه المدينة وما جاورها وامتدت ثورته الى أماكن اخرى وكاد ينتصر على الوالى سليمان الكبير لولا التخاذل الذى سبب انتكاس الثورة وهرب الشاوى^(١٨) الى قبائل المنتفق ومن ثم حدث اتفاق ثلاثى جمع سليمان الشاوى وحمد بن حمود رئيس خزاعة وثوينى بن عبدالله شيخ المنتفق^(١٩) وأدى هذا الاتفاق الى استلاء ثوينى على البصرة^(٢٠) وطرد المسلم العثماني غير أن سياسة التفكيك والتقريب والتعبد وعوامل قليلة وعنصرية يرافقها جهل يحول دون التنظيم الصحيح كانت تدد هذه الثورات وتكل بأهلها فقد كان الوالى يستعين بالاكرد لمحاربة العرب^(٢١) وبحكام الموصل لمحاربة

(١٧) كان الشاوى قد شاهد مصرع أبيه عبدالله وعمه سلطان على يد الوالى المملوك عمر سنة ١١٨٣هـ ١٧٦٩ - ١٧٧٠م راجع (غاية المرام) لياسين العمري الورقة ١٠٣

(١٨) مطالع السعود عماد بن سبب الورقتان ٥٦ وغاية المرام الورقتان ١٠٦ و١٠٧ وأربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ١٩١

(١٩) مطالع السعود الورقة ٥٧ ومن غريب أن هؤلاء الثلاثة كانوا على ميعاد فى الموت فقد قتل الشاوى سنة ١٢١هـ ٧٩٥ - ١٧٩٦م وقتل ثوينى سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٧ - ١٧٩٨م وتوفى حمد سنة ١٢١٤هـ ١٧٩٩ - ١٨٠٠م

(٢٠) مطالع السعود الورقة ٥٧ وغاية المرام الورقة ١٠٧ وأربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ١٩٢

(٢١) مطالع السعود الورقة ٥٧ وأربعة قرون ص ١٩٢ وخلاصة تأريخ الكرد وكردستان لمحمد أمين زكى ص ٢٣٢ من الترجمة العربية لمحمد على عوني

أهل الوسط والجنوب^(٢٢) بل كان يستعين بالقرب على القريب^(٢٣) وبهذه الوسائل قضى على الثورة الثلاثية •

ومهما يكن من شيء في سوء النتائج فإن هذه الثورات الضخمة المتكررة في الشمال والجنوب وعلى الفرات ودجلة دليل واضح على عدم الاستقرار وبرهان جلي على فساد الحكم وعدم انسجامه مع المحكومين •

الثقافة العامة

لقد كان من نتيجة استيلاء المغول وتعاقب الحكومات الاجنسة على العراق أن هبطت الحركة العلمية عن مستواها في العصر العباسي وكان هذا الهبوط عاما شاملا في السلال العربية ولا غرابة في أن تضعف الحركة العلمية ويخفت صوت الشعر ويتكس النثر الى أضعف درجاته فقد كانت هذه العصور المتأخرة لا ترى فيها حكاما على العراق غير الذين قذفت بهم مسارب الظلام من آفاق بعيدة فجاءوا وهم لا يعرفون غير الرطانة الاعجمية ولس في أدمغتهم خيرة من علم أو معرفة ولا في نفوسهم أو نفوس الكثيرين منهم مل الى العلم والمعرفة ولقد كان من الهين لو أنهم كانوا كحكام الدويلات التي تشقت في العصر العباسي اذ دفعتهم قوة الاستمرار الى تشجيع العلم والادب ولكن هؤلاء كانوا يتساقطون على العراق كما تتساقط الاخشاب الخاوية المتأكلة على أمثالها في بناء قد انهارت جوانبه وسقوفه فلا ترى الا الغبار الذي يملأ الخياشيم ويمتص نور الشمس أن يصل الى بقايا الاعشاب والبراعم • ولقد كان العصر العثماني من أشد العصور وبالا على العلم والادب لا في العراق وحده بل في جميع أنحاء الدولة العثمانية فالجهل عام في تركيا وفي كل بلد تابع لها وقد شمل كل

(٢٢) غاية المرام الورقة ١٠٧ وذكرى السعدون للشيخ على الشرقي ص ٣٥

(٢٣) كما حدث لعمود الثامر فقد انضم الى الوالي سليمان الكبير لمحاربة عمه ثويني بن عبدالله وجوزى بنصبه شيخا بدل عمه راجع مطالع السعدون الورقة ٥٧ وأربعة قرون ص ١٩٢

الطبقات وكان تعصب العثمانيين قد حملهم على أن يجعلوا لفتح التركية لغة رسمية في الدواوين ومجالس القضاء^(٢٤) وقد أدى هذا إلى أن يتعلم التركية من أراد التقرب إلى الوالي وأن يعنى بها ويعلمها أبناءه • وكانت بغداد مركز هذا الزلزال المخيف الذي اهتزت له جوانب دجلة فيما حول بغداد • غير أن هذا السلطان الذي فرض على بغداد والمدن الكبرى لم يستطع أن يهيمن على المدن الجنوبية الصغيرة أو على القرى والأرياف فقد كانت السلطة النافذة بيد زعماء القبائل ولم يكن لهؤلاء صلة بالدولة غير دفع الضرائب في مواسم الدفع وغير مساعدة الوالي عندما يحتاج إلى المساعدة وبسبب ذلك لم تتأثر عادات القبائل وسجاياهم الموروثة بعادات الأتراك وسجاياهم ولم تخضع خصائصهم العربية لهذا الذوبان الذي خضعت له بغداد بما غمرها من الأجناس المختلفة ، وبقيت اللغة العربية لغة التعليم فيما بقي من المعاهد القديمة في بعض الحواضر كالحلة والنجف وكانت هذه المعاهد تحت إشراف رجال الدين تغذيها الإعانات التي يجمعها ذوو اليسار وهي - على علاقتها وعلى ما فيها من إهمال - لها فضل كبير على رعاية التراث العربي الموروث وكان المتخرجون في هذه المعاهد مغمورين بعطف الزعماء في الأرياف كزعماء خزاعة وربيعة وزبيد وبنى لام والمتفق وغيرهم^(٢٥) وكان في هؤلاء الزعماء من يقدر رجال العلم والأدب ويحسن إلى الشعراء ، وكان فيهم من يأنس للشعر بل كان في خزاعة - مثلا - من له المام بالأدب ومحاسن الكلام^(٢٦) • وليس مضمي هذا أن اللغة الفصحى كانت شائعة في الأرياف وبين القبائل بل كانت العامية الدارجة أقوى منها نفوذا إن لم تكن هي السائدة آنذاك •

(٢٤) كان السلطان مراد قد فرض التركية لغة رسمية عندما احتل بغداد ومنع أن تكتب عريضة واحدة بغيرها جريدة (العرب) البغدادية العدد - ٥ - من السنة الأولى
(٢٥) من مقال للشيخ محمد رضا الشيباني في جريدة (الزمان) البغدادية ٢٩ نيسان ١٩٥٠م
(٢٦) مقدمة ديوان الشيخ صالح التميمي الورقة ٢ من النسخة الخطية والمسك الأذفر لمحمود شكرى الألوسى ص ١٤٨

أما الموصل فقد تملكت في القرن الثامن عشر واستعادت شيئاً من نشاطها الموروث وكان فيها علماء وشعراء لا يقلون عن اخوانهم في النجف والحلة ، وهذا لا يعنى أن بغداد في القرن الثامن عشر كانت رائدة كل الركود وان كانت معاهد العلم فيها تخضع لرعاية الدولة وأوقافها فقد كانت اسرة الشاوى أقوى دعامة للمحافظة على الخصائص العربية في بغداد وكان للعلماء والشعراء نصيب من احترامها وتقديرها وكان سليمان الشاوى في طليعة الزعماء الذين حفلت مجالسهم بالشعراء بل كان هو نفسه شاعراً وكان الشيخ كاظم الازرى المتوفى سنة ١٢١١هـ - ١٧٩٦ - ١٧٩٧م شاعره الخاص غير أن مكانة بغداد وشهرتها لا يناسبهما ما كانت عليه من علم وأدب كالذى كان في الحلة والنجف •

الشعر والنثر في هذه المرحلة

كان الشعر في هذه الفترة يلفت الى الماضى في بعض المواطن فيحاول الشاعر أن يأخذ بأساليب القدماء ولكنه لا يستطيع أن يزاحم الصف ليأخذ مكانه منه بل كان يهدف الى ذلك باذلاء أقصى الجهد في الاطلاع على الادب القديم والاستعانة بما بقى من المخطوطات واستظهار ما يمكن استظهاره من الشعر العربى القديم وتبدو مظاهر هذه المحاولات في التعابير والاوزان وفي الابتعاد - جهد المستطاع - عن المحسنات التى طمست معالم الاصاله في الشعر خلال الفترة المظلمة ولكنه كان في معظم المواطن لا يستطيع التخلص من أساليب العصور المظلمة فتطفى عليه المحسنات وتؤخره الركائز عن سير القافلة • وقد شاع في هذه الفترة فن التخميس والتشطير وما يشاكلهما من الفنون ذات الصبغة المصطنعة •

أما من الناحية الموضوعية فان الشعراء لم يجددوا في شيء ولم يخرجوا عن نطاق الشعر القديم من غزل ومدح ورتاء وحكم وأمثال الى جانب الشعر الدينى الذى شاع في التصوف ومدائح النبى وآل البيت ومراثيهم وقد نظم في هذه المدائح والمراثى معظم شعراء العراق •

وهذا الشعر الذى لم يزد على الموضوعات المعروفة لم يجدد أو يطور

فى الموضوعات نفسها فلم يخرج بالغزل والرثاء والمدح وغيرها عما كانت عليه فى العصور القديمة •

أما الشكوى من الحياة والتذمر من الزمن فإن له فى شعر هذه الفترة نصا غير قليل ولكن اللون الساسى كان ضعيفا من الوجهة السلبية فالخطرات التى نظمها الشعراء فى مناوأة الحكم العثمانى لا تؤلف مجموعة ذات دلالة قوية على مجابهة الحكم من قبل الشعراء كالسلبية التى كانت تظهر من مجموع الشعب العراقى بين حين وآخر •

ومن أمثلة هذا الشعر - لا على سبيل الاختيار - قول شاعر هذه الفترة الشيخ كاظم الازرى من قصيدة يمدح بها سليمان الشاوى

ان رمت توطئة المرام الاصعب فاركب من الاقدام أخشن مركب
لا تكثرن من الشباب وذكره أنت ابن يومك لا ابن ماضى الاحقب
وتلاف من قبل القوات فرما أعيالك غمز العود بعد تصلب
ومنها

لا تعحا لفساد كل صحيحة فالناس فى زمن كجلد الأجرب
ما لىالى حاجة فى عاجز يأبى المعرس فى هجير السسب (٢٧)
وقد ورد لمدوحه سليمان الشاوى شعر فيه بعض الحكم وهو دون مستوى هذا الشعر (٢٨) •

وينظم الشيخ حسين العشارى فى مدح (سعيد) كاتب الوالى المملوك

(٢٧) راجع ديوان الازرى ص ١٧ - ٢١

(٢٨) راجع (غاية المرام) الورقة ١٠٨

عمر^(٢٩) سنة ١١٨١ هـ ١٧٦٧-١٧٦٨ م فيقول

يا صاحب القلم الاعلى الذى سعدت به الملوك فأغناهم عن السمر

جعلته سيف مولانا الرضا عمر لذاك سميته بالصارم العمري^(٣٠)

ويمدح الامام عليا • وقد رأى قبته المذهبة عند زيارته النجف سنة

١١٨٣ هـ ١٧٦٩-١٧٧٠ م فيقول

لقبة مولانا على أشعة تنشى على الابصار والأعين الدعج

فما هى الا برج فضل وقد بدا محيا أبى السبطين من ذلك البرج^(٣١)

وللسيد أحمد فخرى الموصل^(٣٢) شعر فيه كثير من الانجاهات

الدينية ومنه قوله فى مدح الامام على • ولعله قد زار النجف كما يظهر من القصيدة

لونا غنان العملات لمشهد به قد نوى كنز المكارم والفخر

أبو الحسين الليث من آل غالب وغالب فرسان بأسيافه البتر

هو المرتضى للمصطفى وابن عمه وصاحبه والصنوفى العسر واليسر^(٣٣)

(٢٩) راجع الهامش ١٧ من هذا التمهيد

(٣٠) ديوان العشاري ، الورقتان ٢٧ و ٢٨

(٣١) المصدر السابق الورقة ١٧

(٣٢) كان مفتيا للموصل وقد توفى سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٥ م

(٣٣) غاية المرام الورقة ٢٠٠

ومن شعر المدح ما قاله يحيى بن مراد العمرى فى الوالى أحمد ابن

حسن عندما قضى على بعض الثورات القبلية فى الشمال والجنوب

ألم تعلم الاعراب وقع سيوفكم وفى كل قفر موحش لكم قبر
فمتفق لما أبدت نفاقهم وفرقتهم فى اليد صرعى لهم غفر
وشمر لما شمروا الساق فى الوغى غدوا ككلاب حين يلحقهم ذعر
وأما (بنو لام) فكل يلومهم لما نابهم قتل وحاك بهم أمر^(٣٤)

ولا أرى حاجة للتعليق على لغة هذه الايات وضعف نسجها وما فيها
من تحامل على القبائل العربية من شاعر عربى فهى لغة بعض الشعراء - أو
كثير منهم - فى العصر العثمانى •

ومن الشعر السياسى المتلوى للحكم العثمانى قول مصطفى الغلامى
الموصلى مستخدما بعض الالفاظ التركية

ما قولكم يا علما (أدركه) فى زمن لا يشه الازمه
ترعد من أنفاسه ركبتى ويقشعر الجلد منه سنه
هذا وذو كركين أو ثالث يقول (بوقيش صاو چقتر كنه)
والترك ان تدن لهم يبعدوا يصحوا فى غلمانهم (قاوسنه)
وان أعزوك بالفاظهم كانت - ورب البيت - مستهجنه^(٣٥)

(٣٤) شمامة العنبر لمحمد مصطفى الغلامى الورقة ٣٠

(٣٥) راجع هذه القصيدة فى (شمامة العنبر) الورقة ٥١ - ٥٢

وفى تأريخ الموصل لسليمان صائغ ص ١٣٣ و ١٣٤ ج ٢ وقد حذفنا منها
بعض الايات

أما النثر فانه كان أحط من الشعر ، واذا استثنينا النثر الذي كتبت به
 عموم الدينية فاننا لا نجد نثرا أدبيا يستطيع أن ينهض الى مساماة النثر
 القديم في أدنى عصوره فان مقدمات الكتب والرسائل ونثر الكتب التاريخية
 بما كان كل ذلك مثلا من أمثلة التهافت على اللفظ لا المعنى ، والعناية
 بـ ذوان البديعية المتكلفة السقيمة ، ومن صور ذلك ما جاء للشيخ عبدالرحمن
 سويدى^(٣٦) في (حديقة الزوراء)^(٣٧) وهو يستعرض تاريخ فترة من
 فترات القرن السابع عشر . قال تحت عنوان « فصل في بيان عزوة
 ربيد »^(٣٨) .

• • • • • وهذه الغزوة تحتاج في البيان الى بسط مقدمة وافية الايضاح
 والبيان • • • وهو أن هؤلاء الاشقياء ومن والاهم من أهل الفساد في تلك
 انبياء كآل جحيش وآل سعيد وآل عامر وآل خالد وآل دليم وآل نوفل
 أظهروا الاعتزال وخرجوا على طاعة العمال • • • ،^(٣٩) .

وقال في ثورة خزاعة سنة ١١٠٥ هـ ١٦٩٣ م

كان صاحب المشورة على البنى والعصيان والمحرض للاعراب

(٣٦) توفي سنة ١٢٠٠ هـ ١٧٨٦ م

(٣٧) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا في بضع نسخ توجد في بغداد

(٣٨) كانت سنة ١١٠٦ هـ ١٦٩٤ م

(٣٩) على هامش العراق بين احتلالين للحاج وادى العطية ، ص ٩٠

على الفساد والطغيان والحزب للأحزاب الخزاع على سلمان ...» (٤٠) •
هذا الشر واضح في ركنه التي تلاثم عصر المؤلف أما موضوعه فانه
استعداد سافر على القبائل واتهام لها بالمرور والفساد على حكام الدولة
العثمانية الجائرين وليس هذا بغريب على بعض رجال الدين الذين كانوا
يؤيدون الولاة في أعمالهم ومحاربتهم القبائل •

| | | |
|--------|------|----------|
| المكتب | شعبة | المعاملة |
| الرقم | ١٩٧٧ | ١٩٧٧ |
| ١ | | |

الباب الأول

عوامل الشعور السياسي

في القرن التاسع عشر

- ١ - الحالة السياسية في الدولة العثمانية عامة وفي العراق خاصة
- ٢ - الحالة الاجتماعية في العراق
- ٣ - الحالة العلمية ...

الفصل الاول

الحالة السياسية

القسم الأول

الحالة السياسية في الدولة العثمانية

السلطين ونظام الحكم

بدأ القرن التاسع عشر وسلطان الدولة العثمانية سليم الثالث ، وانهى حكمه بالقتل بعد الخلع سنة ١٢٢٢هـ ١٨٠٧م فخلفه مصطفى الرابع وكانت نهايته القتل أيضا سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م وجاء بعده محمود الثاني وانهى حكمه سنة ١٢٥٥هـ ١٨٣٩م قتلاه عبدالمجيد ومات سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م وجاء بعده عبدالعزيز وخلع ومات سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م واسند الحكم الى مراد ولكن هذا لم يبق فى الحكم سوى بضعة أشهر فخلع وبويع بعده السلطان عبدالحميد الثانى .

سبعة سلاطين تداولوا الحكم العثمانى فى قرن واحد كان من أحفل القرون بالتطور فى العالم الغربى . ومن أشدها حركة ويقظة فى العالم الاسلامى فى حين كان جهاز الحكم فى الدولة العثمانية لا يتحرك الا ببطء وقد يتحرك يوما ولكنه يقف سنين .

سعة سلاطين ليسوا على مثال واحد فى الحكم والتفكير ، بعضهم كان يميل الى العلم والعمل والاصلاح ، وبعضهم كان جامد الفكر تستحوذ عليه الرجعية المتعصبة ، فالسلطان سليم الثالث حاول الاصلاح وأرسل البعث وشجع الطباعة وأسس المدارس وحدد مدة حكم الوالى فى أية ولاية بثلاث سنوات ولكن أعماله كانت تصطدم برجعية جامحة .

ومصطفى الرابع كان يسير فى ركاب الرجعيين الذين رفعوه الى العرش ثم قتلوه كما قتلوا سليما قبله .

ومحمود الثانى قضى على (النيجرية) وغير زى الرأس بالطربوش

وأنشأ سفنا حربية ومسرحة يشرف عليه ايطاليون وأراد القضاء على الحركات الوهابية فلم ينجده غير الجيش المصرى وصمم على ابادة المماليك فى بغداد فتم له ذلك على يد جيوش معظمها من الارناؤود وحلب والموصل فى حين أضع الصرب واليونان وأتاح للدول الاجنبية أن تتدخل فى شؤون حكومته وفسح المجال لتابعه محمد على والى مصر أن يحارب الدولة ثم مات نتيجة لادمانه الخمر^(١) .

وأما عبد الحميد فقد أعلن المساواة فى الحقوق بين المسلمين وغيرهم عام ١٨٣٩م ثم عام ١٨٥٦م ولكن ذلك كله لم يكن أكثر من كلام مسطور اذ كانت المساواة مفقودة حتى بين المسلمين أنفسهم وقد دفعته الحاجة الى الاقتراض من اوربا .

وعبد العزيز كان مبذرا متلافا أعطى الاجانب حرية التملك فى الدولة وانصرف الى اللهو والسذخ وحشد النساء فى القصر والاكتار من المغنيات والخدم والحواشي^(٢) وألقى الدولة تحت عبء ثقل من الديون^(٣) . ولم يكن مراد سوى سلطان مختل العقل لا قدرة له على ادارة شؤون نفسه فضلا عن ادارة شؤون الدولة فلم يمكث فى الحكم أكثر من ثلاثة أشهر .

وداهية الدواهي عبد الحميد كان مستبدا موسوسا أعلن الدستور ثم طواه وحارب المفكرين والاحرار وأضع سادة الدولة على الصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الاسود وقبرص ومعظم مقدونيا ، واستفحل فى عصره شأن الجاسوسية ، وأخذ كل جذوة من جذوات الحرية ثم غلف سلطانه بغلالة شفاقة هى غلالة الجامعة الاسلامية يهدد بها خصومه فى الداخل والخارج وحشد لها حشدا كبيرا من الزعماء ومشايخ الطرق فى الحجاز والشام والعراق ونجد واليمن ومصر وطرابلس وتونس والمغرب وبعض زعماء

(١) تأريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣١ ج ٤ الترجمة العربية لنبيه أمين فارس ومدير البعلبكي
(٢) عبد الحميد من ولاية العهد الى المنفى لجلال نوري ص ٣٤ و ٣٥
الترجمة العربية لابراهيم سليم النجار
(٣) مذكرات مدحة ص ٥٧ الترجمة العربية ليوسف كمال حتاتة

الاکراد والارناؤود حتى صیر الاستانة مکه ثانية^(٤)، فی حین کان قصره حافلا بمئات الجوارى ، وكانت بطانته من الجواسيس والمنجمين^(٥) ویده لا ترفع عن اغتصاب المزارع والمقاطعات وتسجيلها باسمه وتفويضها الى مقربه^(٦) ، ونفسه لا تتکمش من السماح لليهود بالتملك فی العراق^(٧) وأصابه - وهی أصابع خليفة المسلمين - لا تتورع عن العزف^(٨) ، وسجنونه ومنافیه تضم بین جدرانها مئات من المفكرين المناوئين لسیاسته •

فاذا ترکنا السلاطین الى غیرهم فاننا لا نجد سوى أنماط وأشکال من الموظفين الذین لا هم لهم سوى جمع المال • الصدور هم الصدور والوزراء هم الوزراء ، والولاة هم الولاة لم یختلفوا عن سبقهم فی الجهل والتفاق •• وفی شراء المناصب ونهب الناس وسرقة الدولة ولا زجر ولا عقاب أكثر من النقل من مکان الى آخر ، والی جانب هؤلاء جنود یحملون البنادق للارهاب ، وجباة لا یحمی الناس منهم قانون ، وقضاة یعبثون وینهبون^(٩) ، ویشيدون الدور من أموال الارامل والیتامی •

وقد بلغ التزاحم علی الوظائف أشده وصار الموظفون من کبرهم الى صغیرهم يأکل بعضهم بعضا ویوافق بعضهم علی بعض ینهبون ویرتشون ثم یقدمون ما نهبوا لموظفی الباب العالی طمعا فی منصب أعلى أو وظيفة کبری • وكانت الابواب مفتحة لكل من یقدم أكثر من غیره ولو کان جاهلا أمیا حتی

(٤) حاضر العالم الاسلامی تألیف لوثرروب ستودار ص ٣٠٩ الجزء الاول من الترجمة العربیة لعجاج نویهض
(٥) کان للمنجمین رئیس راجع (الزوراء) العدد ٦٠٥ السنة السابعة

(٦) أخذ مقاطعة کبيرة فی شمال العراق وفوضها الى أحد الیونان راجع جریدة (الیقظة) البغدادیة العدد ٧٥٤ الصادر بتأریخ ١٩٠٢-١٩٥٠م

(٧) بواعث الحرب العالمیة الاولى فی الشرق الادنى لجان بیثون

ص ١١٩ من الترجمة العربیة لمحمد عزة دروزة

(٨) کان مغرما بالبیانو الذی اهدى الیه من امبراطور ألمانيا راجع (الانقلاب العثماني) لجرجى زیدان ص ٥٨ طبعة ١٩٥٠

(٩) غرائب الاغراب لابی الشناء الالوسی ص ٤٢٢ ومطالع السعود الورقة ١٠٠

صار لكل ولاية خمسة ولاية أربعة معزولون يقبضون مرتب العزل وواحد في وظيفته ينتظر نهايته ليخلفه صاحب القرعة ، ومثلهم المتصرفون ومن دونهم حتى امتلأت خانات الاستانة وفنادقها بالمعزولين وطلاب الوظائف ، وصار من المؤلف في الدولة - من اليمن الى ازمير - أن يتبدل شكل الحكم مرة أو مرتين في العام حتى في القرية الواحدة^(١٠) . والمحكومون غارقون في الجهل والذل يؤدون ما عليهم ولو كان بيع القدر والانهاء والزاد والراحلة ، وصار الحاكم يظلم بلا وازع ، والمحكوم يُظلم وليس له من شفيع وقد سدت أبواب الشكوى دونه^(١١) فإذا ثار أحد أو طالب بالحق قوبل بالسيف والنار والتدمير والخراب^(١٢) ، وأشباه الاميين ممن سمو أنفسهم رجال دين يتنافسون على الالقاب والرتب والالوسمة ويمالئون السلطان ويسبون من لم يعلن له الطاعة والخضوع ، والتكاي^(١٣) والربط وزوايا المتصوفين ومشايخ الطرق كأنها أوكار البوم ومساكن النمل يزحف بعضها فوق بعض ولا هم لها غير التخدير والتويم وبيع الوظائف لمن يثق بالطوالع والنجوم^(١٤) وما أكثر هؤلاء في الدولة حتى زهد الناس في العمل وانصرفوا الى الخمول واعتادوا العطالة والجوع ، وعبارات مصطنعة من التفخيم والملق والعبودية تغطي على ألسنة المتملقين من رجال الدين والكتاب والشعراء والسماصرة الذين لا يحسنون غير الكذب والدجل^(١٥) وسنطان لا يحترم موظفيه ، وموظفون ينخون أمام السلطان ولكنهم يحقر بعضهم بعضا وينحني بعضهم لبعض على اختلاف درجاتهم ومراكزهم . وحروب في الداخل والخارج عرضت الدولة للتمزيق والتقسيم في أوروبا وآسيا

(١٠) مذكرات مدحة ص ٢٣٤

(١١) من أمير الى سلطان لمصطفى فاضل ص ١١ من الترجمة العربية

لاحمد فتحي زغلول

(١٢) مذكرات مدحة ص ٢٣٤

(١٣) كان في الاستانة وحدها ٢٦٠ تكية راجع حاضره العالم

الاسلامى ص ٢٢٩ ج ١

(١٤) راجع غرائب الاغتراب ص ١٨٨

(١٥) راجع مذكرات مدحة ص ٢١٦

وافريقيا ، وفتن وثورات فى كل مكان ، وتحريض للعناصر والطوائف بعضها على بعض وضرب العربى بالتركى والارمنى بالكردى^(١٦) والعربى بالارناؤودى ، والرومى بالكاثوليكى ، والمسلم بالنصرانى ، والشيعى بالسنى^(١٧) ، والعربى بالعربى بل ضرب السورى بالسورى والعراقى بالعراقى . وكانت حروب الدولة فى الخارج مع روسيا والنمسا وغيرهما وهى لا ترى سلاحا تحارب به هذه الدول غير التهديد بالجامعة الاسلامية وما الجامعة الاسلامية الا وبال على المسلمين فقد تقاسمتهم بسببها انكلترا وفرنسا وايطاليا وروسيا ولم يستفد المسلمون من هذه الدولة شيئا حتى يساعدها فى كل حادثة وان ساعدها فى أكثر الحوادث^(١٨) .

وقد أدى هذا الفساد المستشرى الى ثورات عارمة فى كل أنحاء الدولة كما أدى الى ظهور مفكرين مصلحين فى البلاد التركية نفسها وفى الشرق العربى ولكن صيحات هؤلاء كانت أخف من طين الذباب على مسمع السلطان وبطانته ، وقد استمرت الرجعية فى سطوتها وقوتها غير مكترثة بالنذر حتى هبت العاصفة الطورانية وقضت على الجامعتين الاسلاميه والعثمانية^(١٩) .

اهم الحروب والحوادث

تعرضت الدولة العثمانية لمشكلات خطيرة فى القرن التاسع عشر وواجهت حروبا وحوادث لم تكن هينة سهلة ، وكانت لهذه المشكلات والحروب والحوادث أسباب وعوامل لس من السهل استقصاؤها بل ليس

(١٦) أنشأ عبد الحميد كتيبة من الاكراد ليحارب بها الارمن

(١٧) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ص ٥٠٥ ج ٢

(١٨) المصدر السابق ص ٥١٣

(١٩) الجامعة العثمانية يشترك فيها كل أتباع الدولة ورعاياها وهى

نافعة لها فى حروبها الداخلية اما الطورانية فهى اعتزاز بالتركية لغة وجنسا وقد صارت مقابلة للجامعة الاسلامية النافعة للسلطان راجع جريدة

(الاساس) القايرية العدد ٩١٣ من السنة الثالثة الصادر بتاريخ

١٩٠٥-١٩٥٠م من مقال لعباس محمود العقاد

من السهل استقصاء تلك الحروب والحوادث جميعها في بحث أدبي لا يتعرض للتاريخ الا في حدود ما يتصل به ولا يتناول الحوادث السياسية الا بمقدار ما تدعو الحاجة اليه ، ومحاولة الربط بين الاثنين هنا لا تعني أكثر من عرض أهم الحوادث التي استجاب لها الشعر وتناولها شعراء العراق فقد كان من حروب الدولة وحوادثها ما له صلة بالشعر العراقي ولكنها صلة لا تسمى انعكاسا لتلك الحروب والحوادث أو أثرا لها ، ومنها ما كان ذا أثر واضح في الشعر وتوجيه الشعراء ، ويعود السبب في الناحية الاولى الى بعد تلك الحروب والحوادث عن العراقيين ، وفي الثانية الى احتكاك بعض الحروب والحوادث بالعراق نفسه .

الحرب مع روسيا

سجلت بداية القرن التاسع عشر حربا مع روسيا سنة ١٨٠٩-١٨١٢م ثم تجددت الحرب سنة ١٨٢٨م بسبب ثورة اليونان التي ناصرتها روسيا وانتهت هذه الحرب بمعاهدة (أدرنه) سنة ١٨٢٩م . وكانت حرب القرم سنة ١٢٧١هـ - ١٨٥٥م من أشهر الحروب بين الدولة العثمانية وروسيا ولعل من أسبابها الهامة تنافس روسيا وفرنسا على الحماية الدينية في القدس فقد كانت الاولى تدعم الارثوذكس ، والثانية تحمي الكاثوليك الذين تؤيدهم الدولة العثمانية ، ولهذا السبب تدخلت انكلترا وفرنسا الى جانب الدولة العثمانية خوفا من زحف الروس ، وقد هوجم الجيش الروسي في شبه جزيرة (القرم) واندحر أمام أساطيل انكلترا وفرنسا بعد أن كاد يصل الى الاستانة ، وسقطت قلعة (سواستبول) بيد الدولة العثمانية وحلفائها في السنة نفسها^(٢٠) . ولكن روسيا لم تبقى صامتا فقد عادت الى الحرب سنة ١٨٧٧م واشتركت معها رومانيا التي أعلنت استقلالها التام عن الدولة العثمانية آنذاك . وانتهت هذه الحرب بعقد الهدنة في (أدرنه) سنة ١٨٧٨م .

وقد نتج عن هذه الحروب المستمرة انفصال كثير من أجزاء الدولة

(٢٠) تأريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٥ ج ٤

العثمانية كبلغاريا ورومانيا والجبل الاسود والصرب واليونان • وجعل
البوسنة والهرسك تحت اشراف النمسا وقد احتلتهما بجيوشها بعد ذلك •

مع اليونان وجيرانهم :

كانت ثورة اليونان سنة ١٨٢١م من الثورات التي كلفت الدولة جهودا شاقة فقاتلتها بالسلاح مدة طويلة ، وكانت الدول الاوروبية ولاسيما روسيا تشجع اليونان على هذه الثورة^(٢١) التي استمرت بحروبها وحوادثها ومن أشهرها حرب (المورة) سنة ١٨٢٦م وقد أسهمت بها الجيوش المصرية وساعدت باسطولها أساطيل الدولة العثمانية وحوصر الثوار وسقطت أثينا بيد الجيش العثماني في حزيران سنة ١٨٢٧م ولكن الحلف الثلاثي الذي عقده انكلترا وروسيا وبروسيا في السنة نفسها لتحرير الشعب اليوناني حال بين القوة المصرية وبين أى عمل عسكري جديد وقد دمرت أساطيل هذا الحلف اسطول الدولة العثمانية تدميرا كاملا^(٢٢) • ثم أعقبه اعلان روسيا الحرب على الدولة سنة ١٨٢٨م انتصارا لليونان حتى نالت استقلالها سنة ١٨٣٠م • غير أن اليونان لم تهدأ وانما أخذت تحرض جيرانها على الثورة فوقعت بينها وبين الدولة العثمانية معارك اخرى ومن أهمها ما حدث سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م وكان سبب هذه الحرب تحريض اليونان لسكان (كريد) في السنة نفسها بسبب ضغط الدول الاوروبية فعين أحد الامراء اليونانيين حاكما عليها^(٢٣) •

مع محمد علي الكبير

لم تكن ثورة محمد علي والى مصر على السلطان المتبوع ثورة انفصالية مجردة وانما كانت تهدف الى أكثر من ذلك حين اندفعت جيوش مصر

(٢١) كان بعض شعراء الغرب وكتابه أمثال (بيرون) الشاعر الانكليزي و (فيكتور هوغو) الشاعر الفرنسي من المؤيدين لهذه الثورة باشعارهما الحماسية

(٢٢) تأريخ الشعوب الاسلامية ص ٨ ج ٤

(٢٣) راجع تأريخ الاتراك العثمانيين ص ٦٣ ج ٣

لاحتلال السواحل السورية سنة ١٨٣٢م وعبرت الارض السورية فاحتلت (قونية) وبلغت (كوتاهية) حتى اضطر السلطان محمود الثاني الى الاستنجاد بالعدو التقليدى وهو روسيا، ووصل الاسطول الروسى الى (السفور) غير أن هذا العمل استفز انكلترا وفرنسا والنمسا وعقدت اتفاقية (كوتاهية) بين الدولة العثمانية وبين محمد على بالحاج من هذه الدول لتعود قوة روسيا من حيث أتت^(٢٤) ولكن الحرب عادت بين التابع والمتبوع سنة ١٨٣٩م ووقفت فرنسا الى جانب مصر التى احتل جيشها (نصيبين) فى السنة نفسها ثم وقفت الحرب بسبب تدخل انكلترا وعقد مؤتمر (لندن) سنة ١٢٥٦هـ ١٨٤٠م فأكرهت الجيوش المصرية على الخروج من سوريا^(٢٥).

مع الوهابيين

كانت نجد خلال الاحتلال العثماني للاقطار العربية لم تخضع الخضوع المطلق للحكام والسلاطين من الاثراك^(٢٦) لذلك بقيت شبه مستقلة ولكنها مع هذا الاستقلال الذى يتعمده شيوخ البدو الرحل ورؤساء القبائل كانت مسرحا للفتن والحروب القبلية والغزو والنهب وكل ما تفرضه الحياة البدوية، وكانت الى جانب خصائصها الموروثة من صدق وكرم ونجدة مرتعا خصباً للخرافات والعقائد الفاسدة كغيرها من الاقطار الاسلامية، فالتبرك بالاحجار والاشجار والقبور والنذر لهذه كلها، والاستعاذة بالجن والذبح لهم من أجل شفاء المرضى، وعدم التسمية على ما يذبح ليم الشفاء^(٢٧) وما الى ذلك من الخرافات كان كله شائعا فى هذا القطر العربى الذى انتشر فيه الجهل كما انتشر فى غيره من الاقطار العربية. وفى هذه القطر ظهرت

(٢٤) المسألة الشرقية لمصطفى كامل ص ٩٠ - ٩١

(٢٥) تأريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥ - ٣٦ ج ٤

(٢٦) لم يستطع العثمانيون بسط سلطانهم ونفوذهم الا على الاماكن المقدسة فى الحجاز

(٢٧) عنوان المجد لعثمان بن بشر ص ٦ - ٧ ج ١ و (جزيرة العرب

فى القرن العشرين) لحافظ وهبه ص ٣٣٦ الطبعة الاولى .

الدعوة الوهابية التي لم تكن جديدة على الدين الاسلامي ولكنها كانت جديدة على الدولة العثمانية وعلى السلطان نفسه •

ظهرت هذه الدعوة فلم يلتفت اليها في بادىء الامر ولكنها تطورت فاستفزت الدولة استفزازا شديدا^(٢٨) وأفلقت السلطان فاستنفر لها جيوشه وأتباعه وألب عليها رجال الدين واستثار عليها جميع المسلمين من مختلف العناصر والاجناس حتى وقعت الحروب الكثيرة وأريقَت الدماء من العرب سنين عدة •

مؤسس الدعوة الوهابية ومبادئه :

كان رأس هذه الدعوة محمد بن عبد الوهاب النجدى^(٢٩) وقد بدأ حياته العلمية فى تنقل بين نجد والحجاز والعراق وايران • وقرأ على أبيه الفقه الحنبلى ودافع بشدة عن مبدأ الاخذ بالحديث والاعتماد عليه مناوئا الاخذ بالرأى ، ودرس مؤلفات ابن تيمية وانتهت به الدراسة الى الاعتقاد بأن الاسلام فى عصره مشوب بالمساوىء^(٣٠) ، وقد جمع خلاصة دعوته فى مؤلفاته العدة ومنها (كتاب التوحيد)^(٣١) و (تفسير القرآن) و (كشف الشبهات) وغير ذلك من الفتاوى والرسائل التى ضمنها آراءه ومعتقداته من وجوب العودة الى القرآن والسنة ، وهدم القبور وتحريم زيارتها والذبح لها ، والتوسل بالاولياء والصالحين الذين يعتقد المسلمون بقداستهم ، وكان يعتقد كفر من يفعل ذلك • فالتوجه الى الصالحين بالدعاء شرك أكبر ، والتسمية بما عبد لغير الله حرام ، وتطبيق التسمية شرك ، وان كلمة (لا اله الا الله) وحدها لا تحرم المال والدم من قائلها ما لم يقل بكفر من كفرهم

(٢٨) كانت التقارير قد وصلت الى الدولة من شريف مكة سنة ١١٦٢هـ ١٧٤٩م وهى أول ما وصل الدولة عن هذا المذهب راجع (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩١ المجلد الاول

(٢٩) ولد عام ١١١٥هـ ١٧٠٣م فى بلدة العيينة وتوفى عام ١٢٠٦هـ ١٧٩٢م

(٣٠) راجع تأريخ الشعوب الاسلامية ص ١٨ و ١٩ ج ٤

(٣١) طبع هذا الكتاب أكثر من مرة

هو (٣٢) فمن أطاع فقد سلم ومن أبى فقد حل دمه وماله (٣٣) .

اتصل محمد بن عبد الوهاب ببعض الرؤساء ودعاهم الى تأييده فلم يستجيبوا له فاتجه الى (الدرعية) واتصل بمحمد بن سعود فأيده وتزوج ابنته (٣٤) . ثم كتب الى رؤساء نجد وقضاتها أن يطيعوه فمنهم من أجاب ومنهم من سخر به واستهزأ ولكنه مع ذلك بقى المشير الاكبر لابن سعود ، ولما مات محمد بن سعود سنة ١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م تولى قيادة الدعوة عبدالعزيز ابن محمد ولم تكد تمر بضع سنوات حتى كانت الغارات الوهابية تشن على أنحاء نجد وغيرها وتغنم كل ما وقعت عليه يدها من أموال المغلوبين وأمتعتهم ومواشيهم حتى ملئت الدرعية بالغانم الكثيرة وصارت تباع فى سوقها خلال مواسم البيع (٣٥) .

الحرب فى المرحلة الاولى : (٣٦)

ان أول حرب قام بها الوهابيون خارج ديارهم - بعد تأسيس الحكم - كانت مع بنى خالد فى الاحساء (٣٧) بعد أن استولوا على الرياض وحرىملا . وكانت المعركة الكبيرة مع بنى خالد سنة ١٢٠٧ هـ ١٧٩٣ م وفيها انتصر سعود ابن عبدالعزيز على بنى خالد وخضع له أهل الاحساء .

وأخذت الغزوات الوهابية تشتد على العراق والحجاز وكان شرفاء

(٣٢) راجع (كتاب التوحيد) لمحمد بن عبد الوهاب ص ١٠ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ٤١ و ٧٣ طبعة دار الكتب العربية ومطبعتها بمصر

(٣٣) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٤١

(٣٤) Baghdad the city of peace. p. 234.

(٣٥) راجع عنوان المجد لابن بشر ص ١٣ ج ١

(٣٦) ينقسم الحكم السعودى الى ثلاث مراحل الاولى تبدأ بتأسيس الحكم فى الدرعية الى هجوم الجيش المصرى ، والثانية تبدأ باسترداد تركى وفيصل الحكم وجعل الرياض عاصمة وتنتهى بغزو ابن رشيد سنة ١٨٩٦ م والثالثة تبدأ من سنة ١٩٠٢ م

(٣٧) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٢٠١

مكة يحاربون من جانب^(٣٨) وقبائل العراق تحارب من جانب آخر^(٣٩) وسهول نجد تتحرك بين الحين والحين •

ولقد شق على الدولة هجوم الوهابيين على كربلاء سنة ١٨٠٢م وهجومهم على المدينة سنة ١٨٠٣م لما تخلل هاتين الحادثتين من قتل ونهب واعتداء على الاضرحة المقدسة وانتزاع ما عليها من الذخائر والتحف • وكانت حادثة الهجوم على المدينة أشد تأثيرا على البلاد الاسلامية لما فيها من تجاوز على المرقد النبوي^(٤٠) •

ولم تقف الحوادث الوهابية عند هذا الحد ولم يؤثر فيها مقتل عبدالعزيز بن محمد^(٤١) ، فقد ولى الامر من بعده ابنه سعود وأخذ يوجه الحملات ذات اليمين وذات الشمال في نجد والحجاز والعراق وجنوب سوريا ، وكانت أهم حادثة وقعت في أيامه فشقت على الدولة هدم القباب في المدينة^(٤٢) عام ١٢٢٠هـ ١٨٠٨م ولما تفاقم خطر الوهابيين اهتمت الدولة أيما اهتمام للقضاء على هذا الخطر ، وفي سنة ١٢٢٦هـ ١٨١٢م طلبت من محمد علي الكبير^(٤٣) والى مصر أن يستمد لمحاربة الوهابيين وأن يجهز جيشا كافيا لذلك •

(٣٨) حدثت معارك متكررة بين شرفاء مكة والوهابيين • منها ما حدث سنة ١٧٩٠م ومنها سنة ١٢١٠هـ ١٧٩٦م • وأهمها ما حدث سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٨م وقد شارك الشرفاء كثير من المصريين والمغاربة الى جانب أهل الحجاز

(٣٩) سيأتى فى القسم الثانى تفصيل ما يتصل بالعراق من هذه الحوادث

(٤٠) راجع تاريخ الشعوب الاسلامية - ص ٢١ ج ٤ ودائرة المعارف الاسلامية ج ٥ م ٥

(٤١) كان قتله فى رجب سنة ١٢١٨هـ ١٨٠٣م راجع (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٢٣ - ١٢٤ ج ١

(٤٢) راجع - عنوان المجد - لابن بشر ص ١٣٥ ج ١

(٤٣) كان الامر قد تم لمحمد علي سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٧م وقد أقره السلطان على ولاية مصر

الحملة المصرية :

توجه جيش مصرى بقيادة أحمد طوسون^(٤٤) وابراهيم ولدى محمد على ووصل الى الحجاز فاحتل مكة والمدينة بين سنتى ١٢٢٧هـ و١٢٢٨هـ وارسلت مفاتيح الحجرة النبوية الى الاساتنة وخرج السلطان وحاشيته لاستقبالها^(٤٥) وسافر محمد على بنفسه الى مكة^(٤٦) ليشهد زحف قواته . وفى سنة ١٢٢٩هـ توفى سعود بن عبدالعزيز فخلفه ابنه عبدالله وقاد الجيوش بنفسه غير أن المعارك الطاحنة كانت تنكشف دائما عن انتصار المصريين . وانهى المطاف الى احتلال الدرعية عاصمة السعوديين آنذاك وما كادت سنة ١٢٣٣هـ ١٨١٨م تنتهى حتى كان عبدالله بن سعود قد طلب الصلح فحمل الى مصر ثم الى الاساتنة حيث شق^(٤٧) .

المرحلة الثانية

بعد أن تم الانتصار للجيش المصرى أمر جميع آل سعود وأبناء الشيخ محمد بن عبدالوهاب أن يرتحلوا بأهلهم الى مصر ولم يهرب منهم الا القليل ومن هؤلاء الهاريين تركى بن عبدالله^(٤٨) وقد اغتتم هذا فرصة انسحاب الجيش المصرى من الحجاز ونجد فجمع قواه واحتل الرياض وأقام فيها

(٤٤) فى الخامس من صفر سنة ١٢٢٦هـ قلد طوسون السيف المرسل اليه من السلطان لهذه الغاية راجع - (التوفيقات الالهامية) لمحمد مختار ص ٦١٣ الطبعة الاولى

(٤٥) مطالع السعود - الورقة ٩٦ وجاء فى (مباحث عراقية) ليعقوب سرقيس ص ٢٢ من الجزء الاول ما يلى فى الخامس والعشرين من رجب سنة ١٢٢٨هـ ١٨١٣م قرىء فى البصرة فرمان بانتصار محمد على والى مصر على الوهابى ودعى للسلطان محمود واقامت الافراح سبعة أيام «

(٤٦) كان سفره فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٢٨هـ ٢٥ آب (أغسطس) ١٨١٣م

(٤٧) كان شتقه هو ومن معه فى ١٧ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨١٨م راجع - (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩٤ من المجلد الاول

(٤٨) تركى بن عبدالله بن محمد بن سعود وابوه عبدالله شقيق عبدالعزيز بن محمد

حتى قتل سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٤م^(٤٩) وكان ابنه فيصل في القطيف فلما سمع بقتل أبيه عاد الى الرياض واحتلها وقتل قاتل أبيه • ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى وافاه جيش مصرى بقيادة اسماعيل آغا وخالد بن سعود وكان هذا منقيا في مصر مع المنفيين فاحتل الجيش الرياض وسيق فيصل بن تركي الى مصر سنة ١٢٥٤هـ^(٥٠) ولكنه استطاع أن يهرب سنة ١٢٥٩هـ من مصر ليعود الى الرياض فاستقر فيها وكتب الى البلدان المجاورة يدعو أهلها الى الطاعة^(٥١) واعترف بسيادة الاتراك وفاوض الانكليز سنة ١٨٦٢م لتوطيد صلات المودة والصداقة^(٥٢) بين البلدين وتوفي سنة ١٢٨٢هـ ١٨٦٦م وترك أربعة أولاد منهم سعود وعبدالله ولكن هذين الاخوين اختلفا في طريقة الحكم فقد كان عبدالله يريد استرجاع النفوذ السعودي بدون مناوأة الدولة العثمانية وكان معتدلا في أعماله لا يرى حاجة الى نشر الدعوة الوهابية بمثل ما دعا اليها أسلافه^(٥٣) ، غير أن أخاه سعودا كان لا يرى هذا الرأي فهرب الى عسير خوفا من أخيه ثم عاد بقوة كبيرة في سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م وحارب أخاه عبدالله وانتصر عليه داخل قلاع الاحساء والقطيف^(٥٤) ثم اتجه الى الرياض مقر أخيه فلم يجد هذا وسيلة غير طلب النجدة من والى بغداد وكان يومئذ (مدحة) فكتب هذا الى الدولة أيام السلطان عبدالعزيز وجاءه الرد بأن يحارب سعودا فسير حملة كبرى في سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م واحتل الاحساء والقطيف وفر سعود مع أعوانه^(٥٥) •

(٤٩) قتله ابن اخته مشاري بن عبدالرحمن (عنوان المجد) لابن بشر ص ٤٨ ج ٢

(٥٠) المصدر السابق ص ٨٤

(٥١) راجع كتابه في ص ١٠٣ - ١٠٥ من عنوان المجد لابن بشر

ج ٢

(٥٢) كانت مفاوضات مع (بيلي) المقيم السياسى في بوشير راجع

(جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٢٦٢

(٥٣) مذكرات مدحة ص ١٧٣

(٥٤) راجع المصدر السابق والصفحة نفسها وفيها اشارة الى ان

سعودا ذهب الى الهند للاستعانة بالانكليز

(٥٥) ستأتى تفاصيل هذه الحملة في القسم الثانى

لم تكف الدولة العثمانية بحملاتها العسكرية لمحاربة الوهابيين بل استعانت بحملات دينية ضخمة قامت في وجه الدعوة الوهابية وقد استمرت هذه الحملات طوال القرن التاسع عشر وكان بعضها مراعاة لشعور السلطان ^(٥٦) وبعضها عن عقيدة خالصة ، وكان من الطبيعي أن يثور رجال الدين في وجه هذه الدعوة التي زيفت العقائد وحرمت من الاعمال ما اعتاده المسلمون معتقدين مشروعته •

وكان من الطبيعي أن يثور هؤلاء حين يرون الايدي الوهابية تمتد الى الاضرحة والقبور فتهدم وتأخذ الحلى والنفايس وأن تزيل ما على قبر الرسول الكريم من تحف وقناديل وأن يمنع الوهابيون زيارة القبور ويكفروا من لم يكفر الزوار ^(٥٧) وبعثوا جميع من يقدسون النبي وآل البيت والاولاء والصالحين في عداد المارقين غير المؤمنين ^(٥٨) •

ولهذه الاسباب كانت الحملات الدينية ترد الكيل بمثله ، وقد بدأ الهجوم الشيخ سليمان بن عبد الوهاب شقيق صاحب الدعوة ، وتبعه آخرون في الاحساء والعراق وغيرهما • وكان أبو التناء الالوسي في بغداد يرى في الدعوة الوهابية أنها بدعة تسود القلوب ^(٥٩) ، كما تصدى لها علماء الشيعة بالرد والطعن ، وكانت ثورة القبائل ضدها لا تقل عن أية ثورة سياسية أو دينية •

(٥٦) لقد شق على السلطان ان تبطل الخطبة باسمه وشق عليه أيضا ان يمنع الحجاج القادمون من البلاد العثمانية وفيهم احدى قريباته من دخول مكة راجع (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩٢ من المجلد الاول و (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٢٥٢

(٥٧) راجع (الصواعق الالهية في الرد على الوهابية) للشيخ سليمان بن عبد الوهاب ص ١٠ الطبعة الثانية

(٥٨) Modern trends in islam. by A. R. gibb. p. 26—31. 2 nd

(٥٩) راجع (غرائب الاغتراب) ص ١٤

القسم الثاني

الحالة السياسية في العراق

كان العراق في القرن التاسع عشر ينقسم الى ثلاث ولايات هي بغداد والموصل والبصرة • ولكن هذا التقسيم لم يكن مستمرا فيما عدا بغداد ثم استقر في الربع الاخير حتى نهاية الانراك • ولقد مر على هذه الولايات الثلاث طوران من أطوار الحكم لا يفرقان في شيء من خصائصه ولكنهما يختلفان في نوع الحكام وتباينهم من حيث الاجناس والشعوب • فقد كانت بغداد تخضع لحكم امتدادى وهو حكم الممالك الذى ابتداء في منتصف القرن الثامن عشر ثم انتهى سنة ١٨٣١م وارجعت بغداد الى الحكم التركى المباشر ولكنها لم تحكم من قبل وال عراقى قط •

وكانت الموصل تخضع لحكم امتدادى أيضا وهو حكم الاسرة الجليلية الموصلية^(٦٠) ثم انتهى هذا الحكم سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م وأخضعت للحكم التركى المباشر^(٦١) • أما البصرة فقد استقبلت القرن التاسع عشر بموظفين من الممالك تابعين لوالى بغداد وبقت تابعة بعد نهاية الممالك ثم تحولت الى مركز ولاية سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م ومرت بأطوار مختلفة من الصعود والهبوط في شكل الحكم^(٦٢) •

(٦٠) تنتسب هذه الاسرة الى عبدالجليل وهو من ديار بكر وأول من ولى الموصل فيها اسماعيل بن عبدالجليل سنة ١١٣٩هـ ١٧٢٦م
(٦١) بقيت الموصل ولاية حتى سنة ١٨٥٠م فانزلت الى درجة متصرفية تابعة لبغداد ثم عادت الى مركز ولاية سنة ١٨٧٩م والحق بها السليمانية مقر امارة البابانيين وكان هؤلاء قد انتهى نفوذهم سنة ١٨٥٠م
(٦٢) هبطت الى درجة متصرفية سنة ١٢٧٩م ١٨٦٢م ثم عادت الى مركز ولاية في سنة ١٢٩١هـ ١٨٧٥م ثم هبطت الى درجة متصرفية حتى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٤م فاعيدت الى مركز ولاية وبقيت كذلك حتى نهاية الحكم التركى

الولاية الكبرى والممالك :

لقد تعددت أن أسمى بغداد بالولاية الكبرى لانها محور الدائرة وبؤرة العدسة ، ولانها حافظت على مركزها الرسمي من صفة الولاية ونفوذ الولاية على بقية الحكم فى العراق • ولعل تاريخها السياسى والاحداث التى مرت بها أوضح صورة لاستجلاء الحكم العثمانى فى العراق ومعرفة أساليبه وألوانه • وليس معنى ذلك أن ما عداها غير واضح فى مباحث التاريخ لكنها - وهى مركز الثقل - كانت أكثر نصيبا من عناية المؤرخين • لذلك رأيت أن أتخذ هذه الولاية أهم موضوع لبحث الحالة السياسية فى العراق ابان القرن التاسع عشر •

شاهدت بغداد فى القرن التاسع عشر ولاية لم يكن من الهين على العراق أن يغفر للزمن خطاء فى فرضهم وتسليطهم ، اذ لم تكن لهؤلاء الولاية صفة الحاكم الذى ينسجم مع المحكومين وطبائعهم وعاداتهم ، ولم تكن لهؤلاء الولاية حسنات ذات شأن فى العد والحساب الى جانب السيئات التى ضاق بها التاريخ ، وحين يتسلسل المرء مع هؤلاء الولاية من بداية القرن الى نهايته لا يلبث أن يقول ما يريد فى وصف الحكم حين يصل الى أدنى مظاهره وأحطها ، ولعله قد يعثر بما يرضيه من بعضهم أو قد يعجب ببعض ما يقرأ من أعمال نافعة قام بها بعضهم ولكنه سيحد من رضاه ومن اعجابه اذا عرف أن هؤلاء الولاية لم يكونوا سوى ممالك أو أتراك أو من أجناس أخر ليست من العرب والعراق • وأنهم لم ينصرفوا الا الى جمع المال لانفسهم وأهلبيهم ومقرببيهم ، وتوزيع الارضين الزراعية على من يتصل بهم من ذوى الخطوة والقوة •

وكان الممالك أوضح صورة لهذا النوع من الحكم الى جانب ما انفردوا به من القتل والاعتقال وسوء السير وفساد الاخلاق • فقد كان بعضهم يقتل بعضا طمعا بالحكم وشغفا بالمناصب حتى تعبوا وأتعبوا العراق معهم ، وانهوا كما تنهى العاصفة لا ليعقبها هدوء بل لتخلفها عاصفة اخرى مثلها !!

واذا كانت ولاية بغداد في بداية القرن المذكور تمتد من منطقة الاكراد فيما وراء ماردين شمالا الى مصب شط العرب في جنوب البصرة فان من الطبيعي أن تكون مطمح هؤلاء ومسرح فتنهم وحروبهم فيما بينهم • وكانت بغداد نفسها قد ألفت - مكرهة - هذه الفتن والحروب الداخلة بين الممالك وأنصارهم ، ولم يكد يمر عام من الاعوام دون فتنه وخوف وذعر ومجاعة بسبب هذه الفتن التي كان يسببها الطمع والتهالك على المناصب • واذا كان سليمان الكبير المملوك قد مات موتا في سنة ١٨٠٢م فان الولاة الذين جاؤا بعده قد انتهت حياتهم بالقتل^(٦٣) ولم يسلم منهم الا داود المملوك الاخير •

وكانت قلعة بغداد هدف الطامحين الى منصب الولاية فاذا أحس أحد الممالك من نفسه القدرة على الوصول الى الحكم جمع أنصاره من الممالك والعرب وهجم على القلعة وقتل من فيها ثم تتبع الوالى الحاكم فقتله واستقر في مكانه ، وقد يستعين بالمال يرسله الى السلطان ليقره في منصبه أو يجمع تركة من سبقه ويبعث بها الى الدولة ، وقد يستعين بالمقام البريطاني في بغداد لوسط له لدى الباب العالي لاقراءه في منصب الولاية ، وقد حدث هذا كله للكتخدا (على) الذي خلف سليمان الكبير^(٦٤) • أما داود المملوك الاخير فقد استفاد من صيرفي يهودى في الوصول الى منصب الولاية^(٦٥) •

وبمثل هذه الاساليب كان الممالك يصلون الى الحكم الذي وطدوه بالقوة والسلاح وباستخدام الاجانب في تدريب الجنود^(٦٦) ، على أن بعضهم

(٦٣) حين مات سليمان الكبير ولى الحكم بعده صهره الكتخدا على اثر فتنه كبيرة ثم قتل سنة ١٢٢٢هـ ٧ - ١٨٠٨م وخلفه صهره سليمان الصغير وقتل سنة ١٨١٠م ثم عبدالله وقتل سنة ١٨١٣م ثم سعيد بن سليمان وقتل على يد كتخداه داود سنة ١٢٣٢هـ ١٨١٧م

(٦٤) راجع (الممالك في العراق ، لاحمد على الصوفى ص ٨٩ - ٩١

(٦٥) راجع التفاصيل في (تأريخ الممالك) لسليمان فائق

الورقة ١٣ و Baghdad the city of peace. p. 245.

(٦٦) كان داود باشا قد استعان بضابط فرنسي من ضباط نابليون

اسمه (دى فو) راجع المصدرين السابقين الورقة ١٥ و ص ٢٥٤

كان أميالا يحسن شيئا سوى اعتماده على صداقة المقيم البريطاني^(٦٧) وكان بعضهم مأخوذا بالنساء والملذات والبطانة المستهتره أمثال الشاب النزق الضعيف سعد بن سليمان الكبير الذى أخفق فى الحكم بسبب استهتاره واعتماده على أمه فى تدبير الحكم^(٦٨) فحل محله داود باشا •

وإذا كان بعض الممالك قد انفرد بصفات خاصة فإن أكثرهم قد تشابه فى أهم الصفات من حب الغطرسه والاستعانة بأنصار من المجانين المتعصبين والبدخ والاسراف والظهور بمظهر الملوك والامراء لذلك أحاطوا أنفسهم بقواد ومساعدين وكتاب وخدم وغلما من الممالك وقصروا الوظائف على أنفسهم غير مبالين بمن حولهم من أبناء العراق اذ ليس باستطاعة أى عراقى أن يطمح الى منصب من المناصب الكبيرة فى بغداد بل ما دون الكبيرة أيضا^(٦٩) •

وكانت قصور هؤلاء الولاة ملأى بالجوارى الناعمات والغلما الذين يغدون ويروحون بملابسهم المذهبة الثمينة وهم من (الكرج) الصباح الوجوه ، بل لقد كان هؤلاء الغلمان من المدربين على وظائف القصر واستقبال الزائرين من الاجانب وغيرهم ، أما موائد الطعام فى قصر الوالى فقد كانت حافلة بأواني الذهب والفضة من الاطباق والملاعق والاباريق الى الكؤوس والمآخر الثمينة المزخرفة^(٧٠) ، ولقد كانت مواكب الولاة لا تقل عن مكعب السلطان حين يخرج الى صلاة أو نزهة فلا يدخل الوالى أو يخرج الا وهو مسبوق بفصيحة من الفرسان من عبيده وخلفه فصيحة اخرى من الرجال وهم بملابسهم العسكرية وبنادقهم الانكليزية وموسيقاهم التى تتألف من الطبول

(٦٧) هو عبدالله الذى قتل سنة ١٨١٣م

(٦٨) راجع (تاريخ الممالك) الورقة ١٢

(٦٩) اسند فى هذه الفترة بعض الوظائف فى الكتابة والديوان

الى عراقيين ولكنهم قليلون جدا ومنهم عبدالباقى العمرى الشاعر

(٧٠) راجع (رحلة بورتر) ص ٢٤٩ من الجزء الثانى - الاصل

الانكليزى

والمزامير • وكانت هذه الموابك المصطنعة ذات أثر فى نفوس المشاهدين فقد كانوا يشعرون ازاءها بالرهبة فيقف من كان ماشيا ويقوم من كان جالسا ولا تدخين ولا شرب ولا حديث بل انخاء للسلام من بعضهم ورفع يد الى الشفة والجبهة والصدر من بعضهم الآخر ، والوالى يرد التحيات بايماء خفيفة دون أن يحول اتجاهه الى أحد^(٧١) • ولم يكن موكب نائب الوالى (الكتخدا) بأقل أبهة من موابك الوالى نفسه^(٧٢) •

ان هذه الحياة كان لا بد لها من موارد تغذيها وتسد نهم الوالى ونهم حاشته وخدمه وعبيده ونسائه وجواريه ولم تكن هذه الموارد سوى الضرائب التى لا حصر لها ولا عد والتي كانت تفرض دون نظام أو قيد فقد كانت تجبى ولا تسجل ، وتؤخذ ولا يعطى بها مستند ، وتزداد كلما ازدادت الحاجة الى المال • وكانت لا تجبى الا من الطبقات الفقيرة كالفلاحين والكسبة والتجار الصغار ، أما الطبقة العليا من زعماء واقطاعيين فقد كانت غير خاضعة لاية ضريبة الا ما ندر ، وانما كان هؤلاء عرضة للظرد ومصادرة الاموال والمقاطعات حين يغضب الوالى على أحد وكثيرا ما يغضب •

ولقد كانت هذه الضرائب المختلفة المتعددة لا تستند الى شرع ولا تتصل بعدل وكثيرا ما يلتزمها المتنفذون و (الاغوات) وشيوخ العشائر وكثيرا ما يضيف هؤلاء ضرائب اخرى غير ضرائب الوالى وقد يعجز السكان عن دفعها - وكثيرا ما يعجزون - فلا تجبى الا بالقوة والسلاح ولا تنتهى الجباية الا بخراب البيوت وبيع الاثاث البالى والماشية •

وكان لا بد أن يقابل هذا الظلم المسرف بالثورات وبالتذمر غير أن هذه الثورات كانت تقابل بالشدة ويقضى عليها بالسلاح ويستخدم لها بعض العشائر أنفسهم الى جانب الاغوات والممالك •

وكان الولاة لا يكتفون من النافرين على هذه الضرائب أو أى ظلم

(٧١) راجع (رحلة بكنغهام) ص ٥٠٦ و ٥٠٧ - الاصل الانكليزى

(٧٢) راجع (تأريخ جودة) ص ٢٠٦ ج ٨

بالقمع والقتل بل كانت لديهم وسائل اخرى من التعذيب هي أبشع ما يتخيله الانسان في عصور الوحشية والهمجية • وكان أيسر وسائل التعذيب الضرب بالسياط حتى تتفجر الدماء • ورش الزيت المغلي على وجه المتهم وعينه حتى يموت • أو كي صدغيه وبعض المواضع الحساسة من جسده ، وقد يوضع على وتد يدخل في أسفله ويمزق أحشاءه • أما الخنق فهو أيسر ما يكون ، وأما الاغراق فلم يكن سرا من أسرار دجلة •

وكان كل شيء ينظر فيه الوالى واذا حكم فحكمه قطعى نافذ ، ولا شرع ولا قانون بل كان هو الشرع والقانون !! وماذا يصنع بالشرع ورجال الدين معه وفي خدمته فاذا شاء جعلوه من رجال الدين وفي طلعة العلماء!! (٧٣) ولقد كانت الدولة تعد هؤلاء الولاة لصوصا وسراقا فاذا مات أحدهم عمدت الى مصادرة تركته اما بارسال موظف من قبلها أو بتكليف من يرشح نفسه لمنصب الولاية ، وقد احتال بعض هؤلاء على انقاذ تركاتهم من مصادرة السلطان اياها فعمدوا الى طريقة الوقف وذلك بأن يبنى الوالى مسجدا أو أكثر ويسمى ذلك باسمه ويقف عليه كل ما اغتصبه وصادره ونهبه وكل ما جمع من الضرائب والرشا ويشترط فى وثيقة الوقف أن تكون التولية لابنائه وأحفاده فاذا انقرضوا فلرجال الدين • وكان داود من أكثر هؤلاء أوقافا (٧٤) وهى لكثرتها ولكونها فى أكثر من مدينة واحدة من مدن العراق

(٧٣) ممن اتصف بهذه الصفة المملوك داود فانه بعد أن اعتق وأسلم درس شيئا من مبادئ العلوم فأجازوه وصيروه عالما كبيرا وممن أجازوه الشيخ على السويدي وقد جاء فى اجازته قوله أمرنى من تجب طاعته ولا يمكننى مخالفته الا وهو الدستور الاشهر ذو الفضل الفاخر الخطير حضرة الوزير الاكبر داود باشا أن أحرر لحضرته السامية الحديث المسلسل «

راجع هذه الاجازة وغيرها فى (مطالع السعود) الورقة - ١٦٢ -

١٦٥

(٧٤) ترك داود أوقافا كثيرة فى بغداد والكاظمية وكربلاء والحلة والنجف وخلف أكثر من ثلاثين ولدا ذكرا وانثى وادخل نساء الكثيرات فى الاستفادة من الوقف راجع تفاصيل الوقفية فى جريدة (الشعب) البغدادية بتاريخ ٢٩-٥-١٩٥٥م

تدعو الى الشك القوى في ملكيته اياها^(٧٥) .

بعد الماليك :

شاء القدر - جريا عى سنته - أن يعصف بالماليك فتم له ذلك على يد السلطان محمود الثاني الذى أراد أن ينهى حكم الولاة المتمردين أو الذين يحاولون الاستقلال المطلق فانتدب لذلك واليه فى حلب وهو الحاج محمد على رضا اللاظ وجهاز هذا الوالى جيشا واتجه الى العراق وانضم اليه جيش من الموصل وسار الجميع الى بغداد ليحتلوها ويخضعوا (أمير الامراء) كما سمته الدولة و (شيخ الوزراء) كما سماه العراقيون واستعد الوالى داود من جانبه للدفاع وأذغت بغداد لظلم البشر وقسوة الطبيعة ، وفى أشهر قليلة من أواخر سنة ١٢٤٦هـ وأوائل سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م كانت العاصفة الجامعة تعوى فى شواطئ دجلة وتزمرجر فى جانبي بغداد ، معارك بين الزاحفين والوالى داود وطاعون فتاك يحصد الارواح بلا عد ولا حساب وطوفان من الماء يغمر المدينة فيهدم ويحتاج المباني والبيوت .

وانتهى الطاعون والفيضان وانتهى معهما عصر الماليك فى بغداد وأشرقت شمس الصف على مدينة خربة خاوية قد بعثر سكانها^(٧٦) فى الحفر وانحدروا مع الامواج ، وانتشرت بيوتها منهارا على الجانبين ، ودخل جيش اللاظ فاتحا متصرا فلم ير الا اطلالا وجثا ، واستسلم داود^(٧٧) بعد

(٧٥) نقل المؤرخ الفاضل الاستاذ عباس العزاوى وصفا مسهباً لظلم داود وحيفه وبخله وكثرة الضرائب التى فرضها على السكان وجاء فى الوصف ما يشير الى الشك فى اسلامه لشدة ظلمه راجع (العراق بين احتلالين) ص ٣٣٠ و ٣٣١ من الجزء السادس
(٧٦) انتهى عصر الماليك وبغداد لا يتجاوز عدد سكانها عشرين ألفا

(٧٧) ارسل داود مع من بقى من أهله الى الاستانة ووجه على رضا كتابا يطلب فيه من السلطان أن يصدر عفوه عن هذا الوالى رعاية لشيخوخته ومكانته ثم قضى أواخر أيامه فى المدينة المنورة وتوفى فيها سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥١م راجع مضمون رسالة على رضا فى العدد الاول من جريدة (تقويم وقائع) التركية بتاريخ ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧هـ ٢١ تشرين الاول سنة ١٨٣١م

جلجلة المدافع ودوى الرصاص وبعد أن أخذت المعركة نصيبها من النفوس وقتل فيها عدد غير قليل^(٧٨) .

واستقر على رضا في بغداد لبدأ الحكم المباشر وتعاقب بعده ولاية الاتراك تعيينهم الاستانة وتنقلهم وتعزلهم متى شاءت .

ولقد كانت سياسة هؤلاء الولاة لا تختلف عن سبقتهم الا بالارتباط المباشر بالدولة ، اما شراء المناصب وارهاق السكان بالضرائب المختلفة وأخذ الرشوة والفرقة بين المواطنين فذلك أيسر ما كان يفعله هؤلاء . واذا أحصينا عدد الولاة الذين تعاقبوا على بغداد والموصل والبصرة^(٧٩) أدركنا بسهولة نوع الحكم الذى كان يسود العراق فقد كان عدم الاستقرار وتكرر الثورات فى الشمال والجنوب من أبرز مظاهر الحياة العامة فى العراق اذ لم يكن لهؤلاء الولاة أدنى ميل الى الإصلاح - ما عدا القليل منهم - وكان تعصبهم لدولتهم ولجنسهم ساء فى نفور السكان منهم فلم يكونوا يعرفون من أمر البلاد شيئاً الا فى مواسم الضرائب .

أما القتل والحروب والثورات وتحريض القبائل بعضها على بعض فذلك من الامور التى اعتاد عليها العراق ومن الصفات التى لازمتها فى ظل تلك السياسة المنحطة .

ولقد مرت على بغداد ظروف قاسية بحيث « لا يستطيع الطير أن يطير ولا الاسد الوثاب أن يسير ما بين باب حلتها وبصرتها»^(٨٠) بل ما بين كرخها ومقبرتها ، وتعذر على الساعى الخريت الذهاب من باب الكاظم الى هيت أو

(٧٨) بعد أن استولى على رضا جمع المماليك فى القصر بحجة أنه سيقراً عليهم بيانا من السلطان ثم أمر جنوده بقتلهم فقتلوه ولم يسلم منهم الا من لم يحضر أو من فر من بغداد

(٧٩) كان عدد الولاة الذين حكموا بغداد طيلة القرن التاسع عشر ٣١ واليا وحكم البصرة أكثر من هذا العدد ومثلها الموصل راجع سالنامة بغداد (الدفعة ٢٢ سنة ١٣٢٩هـ و (سالنامة البصرة) الدفعة - نية سنة ١٣٠٩هـ و (سالنامة الموصل) سنة ١٣٣٠هـ ١٩١٢م

(٨٠) كانت لبغداد أبواب يسمى كل باب باسم المدينة التى ينحى إليها

تكرت حيث كثر القتل والنهب في جهاتها الأربع» (٨١) .
 وكان التعصب التركي واضحا في سلوك بعض الولاة مع السكان (٨٢) .
 وكان بعضهم يفرض الضرائب باستمرار ويجبيها بغف وشدة ليرضى سيده
 السلطان (٨٣) . حتى وصل العراق الى درجة خطيرة من اضطراب الحالة
 السياسية فيه وتردى الحياة العامة وحتى « خلقت ثيابه بل أنتن لحمه
 وشحمه واهابه ، فعدا جيفة يشق نشق ريحها المرائر ويصعد الى أقصى
 الحو فصدع رأس النسر الطائر ، قد تصدر فيه كل خب سفيه ، واستولى
 عليه من يأبى أن يلوكه القلم بشدقيه » (٨٤) .

وقد بلغ من تردى الحالة أن العاقل لا يستطيع أن يقول كلمة الحق
 خوفا من الظلم والبطش (٨٥) . بينما كان المنافقون من سكان بغداد يتمرغون
 على أعتاب الولاة ويطيعونهم طاعة عمياء أقرب ما تكون الى التآليه
 والعبادة (٨٦) . وكان في طلمعة هؤلاء بعض رجال الدين والوعاظ والخطباء
 والشعراء والمرترقة ورجال التجارة من مسلمين ويهود .

ولم يخفف من حدة الفساد السياسي غير الوالى (مدحة) (٨٧) فقد
 جاء بمثال جديد من الحكم كان من الممكن أن ينفع به العراق لو قدر له
 أن يقضى في الولاية أكثر من السنوات الثلاث التي لم تخل من متاعب

(٨١) كان هذا فى أيام الوالى محمد نامق (١٢٦٧هـ ١٨٥٠م) راجع
 (نشوة المدام) لابی الثناء الالوسى ص ٤٩ وقد ذكرت هنا النص المسجوع
 للتأكيد على الحالة

(٨٢) اشتهر بالتعصب التركى الوالى محمد نجيب وقد ولى بعد
 على رضا سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م

(٨٣) كان محمد نامق يفعل ذلك ولاسيما فى ولايته سنة ١٢٧٨هـ
 ١٨٦١م ليرضى السلطان عبدالعزيز راجع (أربعة قرون من تاريخ العراق
 الحديث) ص ٢٧٠

(٨٤) هذا النص المسجوع من مقامات الالوسى ص ١٣

(٨٥) نشوة الشمول للالوسى ص ٨

(٨٦) مقامات الالوسى ص ١٦

(٨٧) دخل بغداد واليا فى ١٨ محرم سنة ١٢٨٦هـ ٣٠ نيسان

(ابريل) سنة ١٨٦٩م ونقل منها فى أول صفر سنة ١٢٨٩هـ ١٨٧٢م

داخلية وخارجية ، وكان من الممكن أن يستفيد الفلاحون من النظام الذى سنه لتمليك الارضين الزراعية ولكن خيبة الامل ما لبثت أن عادت بعده فرجع الظلم والفساد وعمت الرشوة جميع طبقات الموظفين • وملكت الارض للزعماء والتجار وذوى النفوذ والمال من اليهود وغيرهم وكان نصيب من يدفع الرشوة الدسمة أوفر الانصباء فملك فى الفرات الاوسط كثير من تجار اليهود وغيرهم من سكان بغداد ، وملك أراضى المنتفق أسرة آل السعدون ، وحرّم معظم العشائر لانهم لا يستطيعون دفع الاثمان المطلوبة أو الرشوة التى لابد منها لمن يشرف على تسجيل المستندات والوثائق •

وتسافلت أخلاق الموظفين أكثر من ذى قبل وازدادت التفرقة بين السكان ، والنفرة بين الطوائف وبخاصة فى أيام السلطان عبدالحميد فقد استأثر هذا بكثير من المقاطعات الخصّة وسجلها باسمه وسماها (الاملاك السنية) وعين لها الموظفين وأعفاها من الرسوم والضرائب واختص بالاقواق فكانت وارداتها ترسل اله ، وكان من الطمعى أن يكون هذا العمل قدوة سيئة للموظفين •

وقد استخدم هذا السلطان العقيدة السنة لمناوأة الشيعة وجهاز لها علماء الدين وقضاة الشرع من الاكراد والأتراك وبعض العرب • وفرض الموظفون الذين لا يحسنون اللغة العربية وأنشئت المحاكم لتحاكم الناس بقوانين سقيمة ولم تكن لغة المرافعات سوى اللغة التركية التى يجهلها المدعى والمدعى عليه ، فعزف معظم الناس عن الشكاوى لضياع حقوقهم فى مثل هذه المحاكم ولكثرة الرشا التى لا يفى بها أى حق يدعى من أجله ، وعين القضاة ليحكموا على مذهب الدولة^(٨٨) فى المدن الشيعية فكان اولئك القضاة

(٨٨) كان لكل مدينة قاض من الاتراك وكانت مدة بقائه لا تتجاوز السنتين ونصف السنة ثم ينقل الى مكان آخر وهو لا يقضى بغير المذهب الحنفى حتى فى المدن الشيعية وقد ضربت نشرات الدولة الرسمية أمثلة كثيرة لاختلاف الحكام والمحكومين فقالت (سالنامه البصرة) فى دفعتها الاولى سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩١م ان ثلاثين بالمائة من سكان البصرة سنة وخمسين شيعة والباقي يهود ونصارى وسكان أبى الخصيب عشرون =

يدخلون ويخرجون وهم لم ينظروا في دعوى ولم يستمعوا الى مرافعة الا ما ندر وقل مما يجبر عليه السكان . وكان باستطاعة أى قاض أن تظهر عليه علامات الثروة في أيسر مدة^(٨٩) . أما المفتون والوعاظ والخطباء فلا نصح منهم لوال ولا ارشاد لحاكم سوى الدعاء للسلطان والدولة ، والتعلق للولاة وسائر الموظفين والطنن بالديانات والمذاهب الأخر

ولم تكن هذه المظاهر التي يسخر منها التاريخ الا لفرض السلطة شكلا واشعار السكان بهيمنة الدولة وعظمتها ، وليس بين الموظفين من الوالى الى أصغر موظف أحد من أبناء العرب سوى المفتين وبعض القضاة ومن ترك ذل فكان نصيبه ما حقر وصغر من الوظائف .

وكان باستطاعة أى تركي أو مستترك أن يقدم رجله للوظيفة وان كان جاهلا أميا بشرط أن يدفع الثمن ، وقد يتجاوز هذا الثمن مجموع المرتبات السنوية ولكنه بأسرع وقت يستعد أكثر مما دفع . بل كان كثير من طلاب الوظائف لا يتورع في طلب الوظيفة عن سلوك أحقر السبل وأحطها^(٩٠) . وقد اشتد التهافت على الوظائف والنفاق والملق من أجلها حتى عند من يتصدى لوظيفة الاقواء والوعظ !! بل كان المتنافسون على وظيفة القتياشي بعضهم بعض ويدس أحدهم على الآخر^(٩١) ويتزلفون للدولة والسلطان والولاة طمعا بها حتى أصبحت لا قيمة لها^(٩٢) سوى الوجاهة وقبض المرتب !!

= بالمائة سنة والباقي شيعة وسكان مدينة الناصرية كلهم جعفريون شيعة ولسانهم عربي ما عدا المأمورين وكذلك سكان سوق الشيوخ والشرطة والحى وقلعة سكر أما لواء العمارة فلسان أهله على الاطلاق عربي ومذهبهم جعفري ما عدا المأمورين .

وقالت في الدفعة الثانية الصادرة في سنة ١٣٠٩هـ ١٨٩٢م (ان كثيرا من الموظفين الصغار في ولاية البصرة من أهالي كركوك)
(٨٩) العراق - دراسة في تطوره السياسي ص ٤٩ من الترجمة العربية

(٩٠) مقامات الالوسي ص ٨٧ و٨٨ وفيها تفصيل للسبل المخزية

(٩١) الزوراء - العدد ٢٢٦ من السنة الثالثة

(٩٢) مقامات الالوسي ص ٥٢

وكانت مهزلة الوظائف والموظفين جميعا من أكبر المهازيل التي مثلت في العراق ، واذا كان تعيين الموظف يجري من غير ضابط ولا نظام فان مرتبات الضئيلة التي كانت تدفع قد تتأخر أشهرا كثيرة^(٩٣) ، وكان تأخير دفعها من أسباب تفتش الظلم والرشوة والنهب ولا جزاء ولا عقاب ، واذا كان الموظفون قد تعودوا الملق والنفاق لاولياء الامور الكبار فان انغماسهم بالملذات وأنواع اللهو كان من أبرز صفاتهم^(٩٤) .

واذا كان المحكومون من الفلاحين وغيرهم قد أرهقوا بهذا الحكم المتفسخ وأغرقوا بالضرائب^(٩٥) التي كانت تجبى بقوة الجند من غير رحمة ولا شفقة^(٩٦) فانهم قد كانوا عرضة لاعمال اخرى ليس لها حدود كالعمل بالاكراه وبدون أجره^(٩٧) وقد كان هذا الاكراه من أسير ما يأمر به الموظف التركي مدنيا أو عسكريا وكثيرا ما يصحب الامر عنف وشدة فيسرع المأمورون الى تلبية الامر وينجزون العمل بأجسامهم الهزيلة وقد لا يكفي منهم بذلك بل يؤمرون بجمع المال ووسائل العمل .

أما الجندية التي فرضت على السكان^(٩٨) فقد كانت موردا خصباً للموظفين والدولة ، فللدولة البدل المرهق ممن لا يرغب في الجندية وللموظفين الرشوة لكي يتسامحوا مع المكلفين ولا سيما الاغنياء منهم ، أما

(٩٣) قد يتأخر دفع المرتب عشرين شهرا (الزوراء) العدد ٥٤٢ من السنة السابعة

(٩٤) الزوراء - العدد ٥٥٥ من السنة السابعة

(٩٥) من أغرب هذه الضرائب ما كان يفرض على سكان بيوت الشعر فقد كان على كل بيت ضريبة سنوية وقد تدفع مكررة اذا ضاع المستند وكثيرا ما يضيع أو لم يعط من قبل الجابي راجع (الزوراء) العدد ٥١٦ من السنة السادسة ١٤ محرم ١٢٩٢هـ

(٩٦) مجلة (لغة العرب) الجزء الثاني من السنة الثالثة (شباط)

١٩١٤

(٩٧) كان هذا العمل يسمى (سخرة) والعمال مسخرين راجع

عنه (الزوراء) العدد ٥٥٢ السنة السابعة

(٩٨) بدأ التجنيد الاكراهي في العراق سنة ١٨٣٥م وطبق في الموصل

من غير رحمة . ولكنه لم يطبق في الجنوب قبل سنة - ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م

الفقراء فقد كانوا يضطرون الى بيع الماشية والبقرة ومتاع البيت لكي ينفذوا أنفسهم •

وكانت القوة المنوط بها حفظ الامن منحة لا نظام لها وكان الذين يديرون شؤونها ضباطا أميين متفسخي الاخلاق ولم تكن وظائفهم في الغالب سوى جباية الضرائب وخدمة الموظفين الكبار (٩٩) •

وكانت السجون أحقر ما ينظر اليه المرء من مباني الحكومة ، وكان المساجين لا يعتمدون على غير أهليهم في الطعام ، وكان كل موظف في السجن من الحاكم الى الحارس ، يبيع الامتيازات للمساجين حتى اطلاق الحرية (١٠٠) • بل كان لا يسمح لاقرباء السجين بزيارته دون تقديم رشوة •

الكذب على السكان

واستغل الولاة سذاجة السكان وجهلهم والعاطفة الاسلامية فيهم فكانوا يستأجرون بعض الاقلام الخاوية لحشد الكلمات المفككة الهزيلة في مدح السلطان والولاة ولاسيما في أعياد الجلوس التي كانت تقام في بغداد وغيرها ، وكانت النشرات الرسمية تواصل مثل هذا الملق بين حين وآخر لتوهم الناس بالاطل أو لتوهم من كان يقرأ على الاقل ، والذين يقرؤون كانوا من ذوى الزلفى والتأثير على السكان ، وكانت أساليب الكذب المقصود تختلف باختلاف المناسبات وقوة السلاطين والخوف منهم ، فالسلطان عبدالعزيز

« مؤسس العدالة وباني مباني المدنية والسعادة ولي نعمتا بلا منة متبوعنا الافخم الاعظم السلطان ابن السلطان حضرة أفندينا عبدالعزيز خان أدامه الله تعالى على (التخت) العالى العثماني الى آخر الدوران » (١٠١) •

(٩٩) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث - ص ٢٩٩

(١٠٠) المصدر السابق ص ٣٠١

(١٠١) جريدة (الزوراء) العدد ٤٥٦ من السنة السادسة

أما السلطان عبدالحميد فانه حامى حياة كافة العالم سلطان البرين
وخاصة البحرين أمين الله وخليفة رسول الله وأمير المؤمنين وحامى حمى
الدين الذى ليس له ند ولا مدانى ... السلطان عبدالحميد الثانى «(١٠٢)» .

ولعل هذا قلل من كثير مما كان ينشر فى صحف الدولة وتقاويمها
الرسمية . ولا شك أن مثل هذه الاساليب كان يؤثر فى السكان ويدفعهم
الى مؤازرة الدولة فى كل حرب تقع لها مع الاجانب ، وفى كل كارثة
تصيبها وتحل بها فبعثون بالشباب الى ميادين القتال «(١٠٣)» أينما كانت ،
ويجمعون الهبات والاموال الكثيرة لدعم الجيش أو لمساعدة مدينة أو قرية
نكبت بفيضان أو حريق أو أى شئ .

وكانت الدولة اذا أعلنت حربا أو حلت بها كارثة تملق السكان وتثير
فيهم الاريحية العربية أو العاطفة الاسلامية أو الشعور العثمانى العام حسب
درجاتهم وطوائفهم فينسبون الجراح والآلام ويساندون الدولة ، على أن
كثيرا من الولاة كانوا يفرضون ما تحتاجه الدولة فرضا ويجمعون المال
بالاكراه كما كانوا يجندون الشباب بالقوة والسلاح .

الموصل والبصرة :

لعل هذا الذى قدمته عن وصف الحالة السياسية فى ولاية بغداد كاف
فى تفسير الحالة نفسها فى ولايتى الموصل والبصرة وليس من شك فى أن ما
يحدث فى بغداد كان يحدث مثله فى هاتين الولايتين ، فقد كان حكام الموصل
من الاسرة الجليلية صورة لما كان عليه حكام بغداد اذ استأثرت هذه الاسرة
بالقسط الاوفر من خيرات الولاية واقتنت وبنت لنفسها وعرضت مدينة

(١٠٢) سالنامه البصرة (التقويم السنوى) الدفعة الاولى سنة
١٣٠٨هـ ١٨٩١م
(١٠٣) من أمثلة ذلك ان العراق أرسل عشرة آلاف جندى عدا
المتطوعين فى حرب الدولة مع روسيا سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٧م وذهب هؤلاء
الجنود الى قفقاسيا وبعد فشل الدولة لم يعد منهم غير نفر قليل
راجع (مختصر تأريخ بغداد) لعلى طريف الاعظمى ص ٢٤٥

الموصل وما يتبعها من القرى والارياف لثورات كثيرة وتمرد لا يفسر في الغالب الا بكونه رد فعل للقسوة وفرض الضرائب التي كان السكان ينوؤن بحملها ولاسيما الفلاحون وأرباب الحرف • ولقد كان الشعب بين أفراد الاسرة الجليلية لأجل الحكم شيئا مألوفاً قد تسنده سياسة بغداد أحيانا^(١٠٤) •

وكان تصرف الحاكمين فيها تصرفاً فاسداً تصحبه القوة وتقابله الثورات التي يعقبها القتل والتشريد والنفي ومصادرة أموال الثائرين وأملاكهم وقد تؤدي الثورات الى قتل الوالى الجليل نفسه^(١٠٥) •

ولما انتهى حكم الجليليين سنة ١٨٣٤م أخذ الولاة الاتراك يتعاقبون على الموصل والقليل منهم من تجاوز بقاءه سنة واحدة^(١٠٦) • وكان من الطبيعي ألا يعملوا شيئا أكثر مما يعمله ولاة بغداد •

أما البصرة فقد حكمها خلال القرن التاسع عشر ما يزيد على الأربعين من ولاة ومتصرفين وكان العراقي الوحيد من بينهم ناصر السعدون ، أما جميع هؤلاء فقد كانوا من طراز ولاة بغداد أو ولاة الدولة على الاطلاق فلم تسلم البصرة من ظلمهم وظلم مأموريهم من كبير وصغير ، بل لم تسلم حتى من ظلم ناصر السعدون نفسه اذ استغل منصبه ومكانة أسرته فاستأثر بكثير من الاملاك والمقاطعات ومنح كثيرا من أفراد أسرته بسايتين من النخل وضياعا زراعية في جنوب العراق وكان هو وأخوه منصور سيفين من سيوف الدولة تضرب بهما من تشاء من العرب في داخل العراق وفي الاحساء •

وأما مناطق الاكراد فقد كانت خاضعة لنفوذ زعمائها في بداية القرن التاسع عشر وكان هؤلاء الزعماء العلوية بيد الحكومة الايرانية من جانب

(١٠٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢١٣

(١٠٥) في سنة ١٨٢٨م ثار أهل الموصل على الوالى عبدالرحمن

الجليل فاغتالوه هو وأخاه محمداً راجع (المماليك فى العراق) ص ١٨٧

(١٠٦) كان عدد من حكم الموصل من ولاة ومتصرفين اثنين وأربعين

من بداية القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٠م (سالنامه الموصل) الصادرة

بتاريخ ١٩١١ - ١٩١٢

ولاية بغداد من جانب آخر ثم انهار حكمهم بسبب نزاعهم المستمر وقسمت
- حق الكردية بين ولايتي بغداد والموصل •

الاجانب في العراق

ازداد نفوذ الانكليز والفرنسيين أيام المماليك وبلغ من القوة حدا لا
يستهان به وقد كثر عدد السياح والمبشرين يتنقلون بين الموصل وبغداد
وانصرة وكان لانكلترا وفرنسا ممثلون في العراق وكان ممثل انكلترا في
بغداد يسمى (مقيما) ولهذا المقيم شأن ليس أقل من شأن الوالي نفسه ،
وداره من أفخم الدور وأحسنها في بغداد ، وكان فيها - أيام المقيم (ريج)
سنة ١٨٠٨-١٨٢١م - استعداد تام لان تكون شيئا منظورا من قبل السكان
والحكومة ففيها جراح انكليزي وأمين سر طلساني ، وعدد من المترجمين
والموظفين والخدم والسواس ولم يكن هؤلاء من جنس واحد ففيهم
الارمني والعربي والتركي والانكشاري والجورجي والفارسي والهندي ،
وكان حرس المقيم من الهنود الطوال Sepoys وكانت طول هؤلاء
وأبواقهم ترسل أصواتها بانتظام عند بدء العمل وختامه ، وفي دار المقيم
فصيلة من الفرسان الاوروبيين وله (يخت) معد للرحلات النهرية يشرف
عليه الهنود وكان كل شيء في هذه الدار أعد ليلقى الهيبة في نفوس السكان
الذين كانوا يشعرون بأن المقيم أقوى شخص بعد الوالي ، بل كان بعضهم
يظن أن الوالي لم يستبد كل الاحيان برأيه دون أن يستشير المقيم (١٠٧) ،
وقد مر بنا أن بعض ولاء الممالك كان يستعين بالمقيم في الترشيح لمنصب
الولاية وفي التجهيز بالسلاح والمدربين وملابس الجنود • ولم يكن عمل
المقيم في حدود رعاية المصالح البريطانية في البواخر والتجارة والتفتيح
الآثري حسب بل كان يتجاوز ذلك الى التدخل في شؤون اللاد واجتذاب
قلوب الناس واستمالة بعض الزعماء (١٠٨) • وكانت داره ملتقى أكبر

(١٠٧) راجع رحلة (بنكفهام) ص ٣٩٠ الاصل الانكليزي

(١٠٨) كان المقيم (كلوديوس جيمس ريج) صديق البابانيين من

زعماء الاكراد وقد ذكر ذلك في رحلته المطبوعة في لندن سنة ١٨٣٦م

الموظفين والاشراف ، ومرتادا للضيوف ، وكان أدنى اعتراض على سلوكه السياسي والاجتماعى من أى وال قد يسبب تعكير الجو السياسى بين الدولتين^(١٠٩) .

وكانت شركة (لنج) النهرية تتمتع بامتياز تسيير البواخر بين بغداد والبصرة وقد أسست سنة ١٨٣٤م وازداد عدد بوآخرها أيام السلطان عبد الحميد بفضل الهدايا والرشا التى كانت تقدمها للدولة .

وقد ربطت بعض المقيمين البريطانيين رابطة الزواج ببعض الاسر المسيحية العراقية^(١١٠) .

ولم يكن النفوذ الفرنسى ضعفا وان كان أقل من نفوذ الانكليز ، فقد كان المبشرون الكرمليون من دعاة فرنسا فى العراق ولهم مؤسسات دينية كما كان للايطاليين مثلها . وكان اسقف بابل يشغل أحيانا الاسقفية ووظيفة القنصل الفرنسى معا . وكان للقنصل الفرنسى بالبصرة اتصال أو بعض الاتصال بوجوه المدينة ورؤساء القبائل^(١١١) .

وكان الكاثوليك من أشد الناس عطفا على فرنسا فقد كانوا يفرحون لفرحها ويألمون لما يصيبها من أذى . ولم يخفوا مظاهر فرحهم فى عودة أسرة آل (بوربون) الى العرش الفرنسى فقد أقاموا فى السوم الخامس والعشرين من آب سنة ١٨١٦م قداسا فى الكنيسة الكاثوليكية ببغداد على روح لويس السادس عشر وأنشدت التراتل بمناسبة عودة آل بوربون الى العرش^(١١٢) .

ومهما يكن من شىء فان النفوذ الانكليزى كان أقوى وقد ظل محافظا على قوته طيلة القرن التاسع عشر وصار لبريطانيا وكيل سياسى فى بغداد

(١٠٩) راجع أربعة قرون - ص ٢٤٢ و ٢٤٣

(١١٠) كان المقيم البريطانى فى البصرة (١٨١٠ - ١٨٢٤م) مانستى متزوجا بمسيحية عراقية راجع (رحلة المنشى) ص ٧ من مقدمة الناشر

(١١١) أربعة قرون - ص ٢٤٠ - ٢٤١

(١١٢) رحلة (بكنفهام) ص ٥٤١

ومساعد له وقنصل في البصرة ونائب قنصل في الموصل وكان لها دوائر
بريد في بغداد والبصرة وقد انشئت هذه الدوائر عام ١٨٦٨م بموافقة والي
بغداد^(١١٣) بينما لم تؤسس الدولة أية دائرة بريد في العراق الا
بعد سنوات^(١١٤) .

وفي أواخر القرن التاسع عشر لم يقتصر التمثيل الاجنبى على بريطانيا
وفرنسا فقط بل كان لكل من المانسا وروسيا والولايات المتحدة وكيل
في بغداد .

ايران والعراق :

تعرض العراق في القرن التاسع عشر لحروب وحوادث كثيرة كانت
تقع بينه وبين ايران فتهدد وتندر وبينه وبين الوهابيين فستفز وتثير ولعل
سرد هذه الحوادث ليس من أهداف هذا البحث غير أن علاقتها بالشعر
وتأثيرها فيه يقتضى أن يشار إليها على وجه الاجمال .

ان الحروب الايرانية مع دولة الاتراك - أو حروب الدولة مع ايران -
كانت أقدم من هذا العصر الذى نبحث فيه - كما أشرنا اليه في التمهد -
وفد كان العراق من أهم الميادين التى تقابل فيها الخصمان مرارا ، وكانت
الخصومات الساسية والمذهبية من أبرز العوامل فى اثارة هذه الحروب
التي لم تكن الا وبالا على العراق وشرا على حياة أهله ومعيشتهم واستقرارهم ،
وفد شهد النصف الاول من القرن التاسع عشر صورا عدة من الاستفزاز
الايراني وتعاقب الجيوش التي كانت تستهدف بغداد والبصرة وكان انقسام
الاكرد بين العراق وايران عاملا مشجعا لتدخل الايرانيين فقد كان من
السهل على أى زعيم كردى يطرد أو يحارب من قبل الدولة العثمانية أو يريد
السيطرة أن يستعين بالحكومة الايرانية لترده الى مركزه أو تبنى له مركزا

(١١٣) كان يومئذ نقي الدين

(١١٤) راجع التفصيل فى أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث -

جديدا ، وقد حدث مثل ذلك في سنة ١٨٠٥م اذ تدخل الجيش الايراني لمصلحة زعيم السليمانية عبدالرحمن بابان وأعادته الى مقره بعد أن كان مندمرا أمام جيش بغداد^(١١٥) . وفي سنة ١٢٢٧هـ ١٨١٢م تجدد مثل هذا الحادث فتقوّل بقوة السلاح . وفي سنة ١٢٣٧هـ ١٨٢١م تعرضت بغداد لتهديد القوات الايرانية وازداد الخطر المزعج حتى أدى الى اعلان الحرب على ايران من قبل السلطان نفسه ، وانتهت هذه الحرب بالصلح الذي توسطه رجال الدين من الشيعة والسنة ، بينما كان الجيش الايراني على مسافة يوم واحد من بغداد ولولا الصلح وتفشى مرض (الهیضة) بالجيش الايراني لكانت حياة سكان بغداد معرضة لاكثر من الهرب الذي لاذ به مئات الناس . وفي السنة التالية استجمع الايرانيون قواهم وعادوا الكرة فقابلهم جيش بغداد في الشمال^(١١٦) ولكن ضباط هذا الجيش - وأكثرهم من المماليك - عقدوا مؤتمرا قرروا فيه الانسحاب وتركوا الجيش الايراني وشأنه حتى تصدت له بعض القبائل العربية وبددته ورجع ما بقي منه الى ايران^(١١٧) .

وقد تعرضت البصرة لمثل هذه الحوادث التي كانت استمرارا لما سبق في القرن الثامن عشر ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر خفت الحوادث بين العراق وايران وبقيت لها ذبول متقطعة انتهت بنهاية القرن .

الحوادث الوهابية

مر في القسم الاول من هذا الفصل عرض وايضاح لقيام الدعوة الوهابية وحروبها وحروب الدولة معها في الحجاز ونجد وقد بقي من ذلك

(١١٥) كن هذا يدفع الى الحكومة الايرانية اتاوة قدرها عشرة آلاف (تومان) في السنة راجع - تاريخ جودة - ص ١٠٧ من المجلد العاشر ط ٢

(١١٦) جاء في الورقة ١٣٣ من مطالع السعود ان السلطان محمودا وجه جيشا بقيادة محمد أمين رؤوف والي ديار بكر ووجه معه عساكر اناتولى والموصل وكانت الرياسة الكبرى لداود باشا (١١٧) أربعة قرون ص ٢٣٤

ما يخض العراق ويتصل به سواء أكان من جانب الوهابيين أم كان من جانب العراق نفسه لذلك رأيت أن استكمل البحث عن الحوادث التي تتصل بالعراق في هذا القسم •

لقد تعددت الحوادث الوهابية طوال القرن التاسع عشر وكان خطرها قد أُنذر قبيل هذا القرن وفي بدايته المبكرة وكانت الضفة الغربية من الفرات أقرب هدف لسلاح الوهابيين بل كان القسم المتاخم لنجد من البصرة الى الشمال الغربي معرضا للغزو الوهابي بين حين وآخر فلم تكد تمر سنة واحدة على حادثة من الحوادث الا تبتعتها حادثة اخرى •

وكان الوالى المسؤول عن حماية العراق شيخا كبيرا^(١١٨) لا يعتمد على غير الممالك من أبناء جنسه لذلك كانت اولى الحملات التي توجهت من العراق الى نجد حملة قبلية قام بها ثوينى بن عدالله شيخ المتفق سنة ١٢١٢هـ. ١٧٩٧م وقابل الوهابيين في الاحساء ولكن هذه الحملة فشلت وقتل قائدها الشيخ^(١١٩) أثناء عودته وتمزق جيشه ، وفى سنة ١٢١٣هـ ١٧٩٨م توجهت حملة اخرى بقيادة (الكتخدا) على وكان معظم الجنود من المتطوعين العراقيين ودارت المعارك في الاحساء مع عبدالعزيز بن محمد ولكن عوامل كثيرة أدت الى هرب الكتخدا ونكوص جيشه فلم يستطع الاستمرار في القتال وعاد الى بغداد سنة ١٢٠٠م^(١٢٠) •

(١١٨) هو سليمان الكبير المملوك - راجع التمهيد وبداية هذا

الفصل

(١١٩) قتل في جهة الشباك من نجد وهو في خيمته وقد قتله عبد اسمه (طعيس) بخنجر راجع التفاصيل في (مطالع السعود) الورقة ٧٢ ، و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٠٨ من الجزء الاول (١٢٠) يذكر ابن سند فى مطالع السعود (الورقتان ٨٠ و ٨١) نص رسالة من سعود بن عبدالعزيز الى الكتخدا يطلب فيها الصلح ويعلل سبب احتلال الوهابيين الاحساء بأن سكان الاحساء روافض ثم يذكر جواب الكتخدا والشروط التي طلبها لعقد الصلح ويعزو ابن سند فشل هذه الحملة الى خيانة وقعت من ابراهيم بن ثاقب بن وطبان وكان مع جيش الكتخدا غير أن عوامل الفشل أكثر من ذلك

وفى بداية القرن التاسع عشر تعرض الوهابيون لحجاج خراعة (الخزاغل) من العراق وهم بالقرب من نجد وهوجم الحجاج الايرانيون وكان طريقهم على العراق ونهبوا فى الموضع نفسه^(١٢١) . وفى صيف سنة ١٢١٥ هـ ١٨٠٠م سافر محمد الشاوى مبعوثا الى نجد لىفاوض بالصلح فلم يجد لدى الوهابيين رغبة فى ذلك^(١٢٢) . وازداد خطر الوهابيين فأغاروا على بلدة (عانة)^(١٢٣) فى السنة نفسها وقتلوا ونهبوا وأغاروا على قرية (الكسة) فقابلهم أهلها بالقوة^(١٢٤) . وكان أشد هجوم قام به الوهابيون على العراق ذلك الهجوم الذى استهدف مدينة كربلاء فقد قاد سعود ابن عبدالعزيز جيشا يقدر بألف محارب أو أكثر وغزا به هذه المدينة ، وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ١٢١٦ هـ الموافق للثانى والعشرين من نيسان سنة ١٨٠٢م^(١٢٥) كانت مدينة كربلاء تموج بالذعر وقد أخذ سلاح الوهابيين من أهلها مأخذة كبيرة وتبع الفارين منهم بل تناول حتى الذين لاذوا بضريح الامام الحسين^(١٢٦) وغصت المدينة باشلاء القتلى من رجال ونساء وأطفال ، ونهبت الدور والحوانيت ، وكان أهم الغنائم ما نهب من ضريح الامام الحسين وفيها النفائس والتحف والمجوهرات^(١٢٧) ، ولم

-
- (١٢١) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٢٠٤
(١٢٢) المصدر السابق والصفحة نفسها وفى (مطالع السعود الورقة ٨٤) أن المبعوث عبدالعزيز شقيق محمد
(١٢٣) غاية المرام الورقة ١١٠ ومباحث عراقية ص ٥٠ ج ١
(١٢٤) غاية المرام الورقة ١١٠
(١٢٥) يروى (بروكلمان) فى ص ٢١ ج ٤ من (تأريخ الشعوب الاسلامية) أن هذه الحادثة وقعت فى ٢٨ نيسان سنة ١٨٠١م وفى عيد الفطر وهذا مخالف لأكثر المؤرخين
(١٢٦) قدر عدد القتلى فى الضريح بخمسين قتيلاً وفى الصحن بخمسمائة قتيل أما مجموع القتلى فى المدينة فهو موضوع خلاف بين المؤرخين وقد قدره بعضهم بسبعة آلاف
(١٢٧) راجع تفاصيل هذه الحادثة فى (مطالع السعود) الورقة ٨٥ ومختصر مطالع السعود المخطوط لامين الحلوانى الورقة ١٣ والمطبوع ص ٢٨ (شهداء الفضيلة) للشيخ عبدالحسين الامينى ص ٢٨٨ و (ماضى =

تستطع حكومة بغداد أن ترد هذا الغزو الذي كان الوالى الشيخ على علم به (١٢٨) .

وفى سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٤م قاد سعود حملة نحو الصرة (١٢٩) . وفى سنة ١٢٢١هـ ١٨٠٦م هوجمت مدينة النجف فتصدى السكان وعلى رأسهم رجال الدين وهزموا المغيرين . وتجدد هجوم آخر على النجف سنة ١٢٢٥هـ (١٣٠) . وتكررت الحوادث على الفرات ومدنه وقراه (١٣١) .

وفى المرحلة الثانية (١٣٢) من حكم السعوديين قام العراق بحملة عسكرية ضخمة اتجهت الى الاحساء لمحاربة سعود بن فيصل وكان هذا قد حارب أخاه عبدالله سنة ١٢٨٦هـ وانتصر عليه واحتل قلاع الاحساء والقطيف واتجه الى الرياض فاستنجد عبدالله بحكومة بغداد وكان الوالى يومئذ (مدحة) وقد علم مدحة أن الانكليز أيدوا سعودا لمحاربة أخيه حلف الدولة العثمانية فكتب الى الباب العالى واهتم الصدر الاعظم (على باشا) بالامر فأوعزت الحكومة بانفاذ قوة تحل محل الجيش المربط فى

= النجف وحاضرها) للشيخ جعفر محبوبه ص ٢٣٤ ج ١ و (تأريخ جودة) ص ١٦٧ ج ٧ ط ٢ و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٢١ و ١٢٢ ج ١ (غاية المرام) الورقة ١١٢ و (مباحث عراقية) ص ٥١ ح ١ (الشرق الاسلامى فى العصر الحديث) لحسين مؤنس ص ٣٥٩ و (قلب جزيرة العرب) ص ٣٣١ و (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) ص ٢٠٥

(١٢٨) جاء فى (تأريخ جودة ص ١٦٧ ج ٧ ان شيخ المنتفق حمود الثامر أخبر حكومة بغداد بهذه الحملة فوجهت قوة للدفاع ولكن بعد جلاء الوهابيين وقد أرسل الوالى سليمان الكبير كتابين أحدهما الى الدولة يطلب فيه النجدة والثانى الى حكومة الشاه (فتحلى) وبعث الشاه باحتجاج شديد اللهجة الى حكومة بغداد لاهمالها الدفاع مع علمها بنيات الوهابيين واعلن عن عزمه على محاربة الوهابيين واحتلال بغداد . وقد سلم الوالى هذا الانذار وهو فى آخر رمق

(١٢٩) عنوان المجد لابن بشر ص ١٣٠ ج ١ وفيه تهويل لما أصاب مدينة الزبير فى هذه الحملة

(١٣٠) ماضى النجف وحاضرها ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ج ١

(١٣١) عنوان المجد لابن بشر ص ١٣٥ - ١٤٠ ج ١ وفيه التفاصيل

(١٣٢) راجع الحوادث الوهابية فى القسم الاول من هذا الفصل

بغداد ليذهب هذا الى نجد^(١٣٣) . وسارت أول قافلة من الفيلق السادس من بغداد في اوائل سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م بقيادة (نافذ) ورافق الحملة كثير من المتطوعين العراقيين وعلى رأسهم ناصر السعدون وأخوه منصور والسد محمد سعيد نقيب البصرة ، وجماعة من أهالي الكويت^(١٣٤) التابعة لولاية البصرة ، وانتهت المعارك باحتلال القلاع التي استولى عليها سعود في الاحساء والقطيف ، وفر سعود مع أعوانه^(١٣٥) . وكوفىء مدحة بسيف مرصع من قل السلطان عبدالعزيز^(١٣٦) وأنعم السلطان كذلك برتب مختلفة على رؤساء المتطوعين ومنهم نقيب البصرة^(١٣٧) وسافر مدحة الى الاحساء^(١٣٨) بعد أن وصله السيف ومر بالبصرة ثم بارحها الى نجد في أوائل رمضان سنة ١٢٨٨هـ وألقى كلمة على المحاربين وقدر لهم جهودهم وتحملهم مشقات السفر^(١٣٩) الى بلاد بعيدة . ثم جعل من نجد لواء يتألف

(١٣٣) راجع (مذكرات مدحة) ص ١٧٣ و ١٧٤
 (١٣٤) جاء في (مذكرات مدحة) ص ١٧٦ ما يلي ان عبدالله الصباح شيخ الكويت وضع تحت تصرف الجيش ثمانين سفينة كبيرة وصغيرة وبقيت تنقل الذخائر وتخدم بدون اجرة حتى انتهت الحملة
 (١٣٥) روت جريدة (الزوراء) في العدد ١٩٥ من السنة الثالثة بتاريخ ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٨هـ ما يأتي
 « عندما أراد سعود الفيصل الهجوم على الاحساء ومعه من الحشرات مقدار خمسة آلاف نفر هاجمته قوة برياسة حمدي المير لواء يساعدهم مبارك الصباح أخو قائمقام الكويت فدمروا النجديين وفر سعود مجروحاً

(١٣٦) حمل هذا السيف القائمقام سليمان بك أحد مرافقي السلطان ووصل بغداد في يوم الثلاثاء أول رجب سنة ١٢٨٨هـ (الزوراء) العدد ١٧٤ و ١٧٩ من السنة الثالثة

(١٣٧) الزوراء - العدد ٢٤٢ من السنة الثالثة
 (١٣٨) كان سفره من بغداد في ١٤ شعبان سنة ١٢٨٨هـ - (الزوراء) العدد ١٩٢ من السنة الثالثة
 (١٣٩) راجع نص الكلمة في العدد ٢٠٨ من الزوراء السنة الثالثة وقد جاء فيها ما يلي

« وهذا السيف السلطاني الذي أنا حامله هو نيشان الافتخار لخدماتكم المدوحة والحق أن شرفه ومفخرته عائدة للفرقة العسكرية بل وراجعة لهيئة الاوردي الهاميونى

من (قطر) (١٤٠) و (المبرز) و (الهفوف) • ولكل من هذه القواعد (قائمقام) واستدت متصرفة اللواء عامة الى (نافذ) باشا قائد الفيلق اضافة الى وظيفته العسكرية (١٤١) • وأمر مدحة بأن تظهر العيون المندثرة وأن تزرع البساتين وكانت هذه العيون قد دمرها الوهابيون (١٤٢) •

واتخذت الهفوف - وهي أكبر المدن - قاعدة للفرقة العسكرية (١٤٣) وبعد هذه الاعمال الحربية والادارية عاد مدحة الى العراق (١٤٤) ليستقبل المهنيين بالظفر والنصر •

ومما مر من الحوادث الوهابية وأعمالها في مختلف المراحل يتضح أنها تطورت من دعوة دينية ترمى الى نزع الترف والبذخ وترك الاعمال التي لا توجه لغير الله • تطورت من كل ذلك الى حركة سياسية تريد بناء ملك وانشاء دولة ولكنها تعثرت في كل خطواتها خلال القرن التاسع عشر لانها كانت ذات مسلك ضيق في الدين وشدة لا لين فيها ولا مران ، ولانها كانت في السياسة غير موفقة مع العرب والدولة فقد كانت أعمالها المثيرة تحمل بين طياتها ما يبعث على الكره والحقد ، حاربت العرب في الحجاز ، وفي البحرين وفي الاحساء وفي العراق وفي الشام أيضا • وجمعت مع الحروب رمى المسلمين بالشرك فاستحلت دماءهم وأموالهم وتناولت معتقداتهم بالهدم والطعن فثاروا عليها متألين وحاربوها في كل مكان حتى امتلأت الصحراء وما جاورها دماء وأشلاء نتيجة لذلك الضيق الذي رافق الدعوة وللإغلاط

(١٤٠) عين شيخ قطر - واسمه قاسم بن ثاني - قائمقاما لها

(١٤١) الزوراء - العدد ٢٠٩ من السنة الثالثة

(١٤٢) منها (عين نجم) وكانت حارة النبع شتاء وكان الناس

يستشفون بمائها ولشعراء الاحساء قصائد في وصف هذا العين وما حولها من المزارع راجع (تاريخ نجد) للالوسي ص ٣٢ - ٣٥

(١٤٣) الزوراء - العدد ٢١٠ س ٣

(١٤٤) كانت عودته عن طريق البصرة وقد وصل بغداد في ١٦

شوال سنة ١٢٨٨هـ راجع (الزوراء) - العدد ٢٠٨ س ٣

التي رافقت السياسة^(١٤٥) ولقد كان من الممكن أن تكون هذه الدعوة موفقة في اصلاح النفوس وتهذيبها والعمل على الحد من الفوارق الطبقيّة بين المسلمين ولاسيما اذا عرفنا أن هذه الدعوة أقرب ما تكون الى طبيعة البدو الذين لم يعرفوا ترف المدن وأخلاق المجتمعات المتحضرة ، غير أن الشدة المفاجئة كانت صدمة عنيفة قوبل بها المسلمون في مختلف أقطارهم عندما أعلن مروّقيهم عن الدين •

ولقد كان علماء القصيم أنفسهم يلقون تبعه ما وقع في نجد من تخريب وتدمير على أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لان هذه الاسرة كانت تسطر على السياسة وتملى على آل سعود الشدة والعداء العام للناس^(١٤٦) •

الحوادث الداخلية

سجل القرن التاسع عشر كثيرا من الثورات والحوادث القبلية في الشمال والوسط والجنوب ولم تكن المدن بأهدأ حالا من القبائل ، وكان من البديهي أن تؤدي سياسة الظلم والتفكيك وغطرسة الولاة والحكام الاجانب الى وقوع حوادث كثيرة في المدن والقرى والسواحي فقد بقيت الثورات مستمرة لم يخل منها عام ولم يسلم منها موضع وكانت هذه الثورات تقابل بالشدة والسلاح ويستخدم لها - الى جانب الجيش - كثير من القبائل نفسها فلا تكاد تحدث ثورة في مكان من العراق الا انتدب لها بعض الزعماء والشيوخ من العرب والاكرد حتى صار العربي يضرب الكردي والكردي يضرب العربي بل صار العربي يضرب أخاه العربي بدون رحمة ولا شفقة •

ولما كان كثير من هذه الحوادث والثورات ناشئا من طبيعة المجتمع - وان كان للسياسة أثر كبير فيه - فان الاستقصاء والشمول ليس مما يسهل لدى الباحث بل ليس الا من طبيعة التاريخ وحده ولكن هذا لا يعفى من

(١٤٥) راجع (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٢٤٦ و ٢٤٩

٢٥٢

(١٤٦) المصدر السابق ص ٢٥٦

ذكر الحوادث التي شغلت الولاية وهزت القاع التي حدثت فيها وكان لها في الشعر العراقي لذلك أرى لزما أن أشير هنا إلى أهم تلك الحوادث .

ففي سنة ١٢٣٦هـ - ١٨٢١م أيام الوالي داود كانت الحياة غير مستقرة في المناطق الكردية بسبب تنافس الامراء على الحكم وكانت بغداد مضطربة بسبب الجمعيات السرية التي كانت تناوئ الحكومة^(١٤٧) ، وقد أدى تنافس بابانيين على الحكم إلى التجاء عبدالله بابان إلى حكومة إيران طمعا بالمساعدة عسكرية بينما كانت بغداد تؤيد حليفها (محمود بابان) وقد اضطر والي بغداد أزاء ذلك أن يبعث جيشا لمحاربة عبدالله بابان المتمرّد وكان هذا جيش بقيادة محمد آغا (الكتخدا) فذهب هذا الجيش بينما كان عبدالله بابان يزحف بحشيه المعزز بخمسة آلاف إيراني نحو (شهرزور) وقد انتهى هذا الصدام بهزيمة حش عبدالله بابان ومحمود الباباني وانتصار عبدالله ما الكتخدا فقد التحق بشاه إيران حذرا من بطش داود^(١٤٨) . وفي سنة ١٢٤٠هـ - ١٨٢٥م عاد هذا الكتخدا الهارب ولاذ بمدينة الحلة وادعى الوزارة لنفسه وأيده بعض السكان كما أيدته بعض القبائل فاندفع داود إلى مهاجمة الحلة حتى هرب الكتخدا ثم عاد إلى الحلة سنة ١٢٤١هـ وحرص أهلها على الثورة وكان معه جماعة من الزعماء منهم قاسم الشاوي وثارت الحلة واختار أهلها واحدا منهم ليكون حاكما^(١٤٩) فوجه داود جيشا بقيادة سلمان (الميرآخور)^(١٥٠) ومعه عشيرة عقيل فاستولى على الحلة وهرب معظم سكانها مذعورين^(١٥١) إلى بعض القبائل المجاورة - وهي قيلة قشعم -

-
- (١٤٧) تأريخ السليمانية - لمحمد أمين زكي - ص ١٤٢ من الترجمة العربية لملا جميل . و ص ١٤١ من الاصل الكردي
- (١٤٨) راجع مطالع السعود - الورقة ١٢٦ - ١٣٠
- (١٤٩) هو صالح آغا أخو شوكة وقد فر أيضا مع المحرضين راجع (الروض الازهر) ص ١١
- (١٥٠) (المير آخور) كلمة مركبة من الكلمة العربية (أمير) ومن الفارسية (آخور) بمعنى الاسطبل
- (١٥١) راجع (مطالع السعود) الورقة ١٥٤ ومجموعة الشيخ محمد رضا الشيببي المخطوطة و (مختصر تأريخ الحلة) للشيخ يوسف كركوش ص ٧٠ و ٧١

فاستقبلوا بمثل ما فروا منه^(١٥٢) ، وقد فر أيضا زعماء الثائرين واجتمعوا في (عفك) بين الديوانة والحلة وألبوا العشائر هناك على الثورة ، وفي سنة ١٢٤٢هـ كان جيش الوالى داود بقيادة سليمان يحاصر الثائرين وقد ساعده على محاربة هذه القبائل أمثالهم من قبائل زبيد وعقيل والمنتفق وقوة من الاكراد اللاوند^(١٥٣) وأسفرت المعارك عن انتصار جيش الوالى ومن معه وهزيمة الثائرين وفي مقدمتهم المحرضون وارسلت رؤوس القتلى الى بغداد فأمر الوالى داود ببناء منارتين منها^(١٥٤) . وقد حدث أثناء ذلك أن ثارت مدينة كربلاء بعد معركة الحلة السابقة وقل معركة عفك وكان أهل كربلاء قد انقسموا الى شطرين شطر مع داود وشطر عليه ونشبت المعارك بين الفريقين ثم اصطلحا وطرده الزعماء الممالئون لداود فليجأ هؤلاء الى متوعهم يستجدونه ، ووجد داود الفرصة مناسبة لاحتلال مدينة كربلاء فوجه اليها جيشه وأعوانه في شوال سنة ١٢٤١هـ وكان أكثر جنده من عرب العراق وعلى الاخص شمر وعقيل وكان القائد سليمان (الميرآخور) وحوصرت المدينة وقطع عنها الماء وأطلقت عليها المدافع غير أنها ثبتت في وجه الجيش ولما شعر القائد بخيبة الامل استجد بالعشائر المجاورة فلم يفلح وفر أصحابه فاضطر الوالى داود الى تجهيز حملة اخرى مؤلفة من عقيل القصيم والاحساء ، وقطع الماء عن السكان مرة اخرى ولكن مصابرة هؤلاء واستمراهم على الدفاع أدى الى فك الحصار وتخلى المدينة من قبل الجيش المحارب فاكتفى الوالى داود بأن أمر عرب الشامية بالسيطرة على طريق كربلاء وقطع الصادر والوارد حتى اشتدت الحالة بالسكان وآثروا المفاوضة بالصلح^(١٥٥) .

-
- (١٥٢) مجموعة الشيبى ومختصر تاريخ الحلة ص ٧١
(١٥٣) (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) وهو مخطوط ركيك الاسلوب غير مرقم لعبد النبي البغدادى
(١٥٤) المصدر السابق و (مطالع السعود) الورقة ١٥٧
(١٥٥) جريدة (دار السلام) العدد ٩ و ١١ من المجلد الاول سنة ١٩١٨م وتشير الى أن أهل كربلاء صنعوا مدفعا

وفى أيام الوالى على رضا وقعت حوادث غير يسيرة فى الشمال والجنوب وقد قابل هذه الحوادث بحملات عسكرية متعددة ، منها حملة وجهها الى الاكراد لمساعدة جيش الدولة الزاحف للقضاء على امارة راوندوز (١٥٦) وقد ثلث السهم جيش من الموصل (١٥٧) . وفى سنة ١٢٥٢هـ ١٨٣٦م كانت هذه الجيوش الثلاثة تطبق على الامارة الصغيرة وتطارد أميرها الكردي (محمد باشا) الذى انتهى أمره بالاعدام فى سيواس (١٥٨) .

وفى أول شعبان سنة ١٢٥٣هـ ١٨٣٧م زحف الوالى على رضا بجيش ضخّم الى الجنوب لاختضاع قبائل (المحمرة) (١٥٩) فى الضفة الشرقية من شط العرب وكان ادعاء كل من ايران والدولة العثمانية بملكية هذه المقاطعات سببا فى النزاع المستمر ، ولهذا الادعاء صمم الوالى على رضا أن يلحقها بالدولة العثمانية مباشرة وكان الجيش الذى قاده مكونا من جنود الدولة (الارناؤد) ومن قبائل العراق ومنهم زبيد وعقيل وطىء والمتفق وغيرهم ، وقد انتهى هذا الزحف باحتلال المحمرة وطرد زعيمها الشيخ جابر بعد معارك عنيفة مخربة .

وبعد عودة على رضا من المحمرة كانت قبائل خزاعة الضاربة أطنابها على الفرات الاوسط تحرك أصابعها فى وجه الوالى الذى أناط الزعامة على انفراد الاوسط بالشيخ (وادى الشفلح) زعيم زبيد سنة ١٢٥٢هـ ١٨٣٦م (١٦٠) ولم يكن هذا العمل الذى تدعّمه قوة الوالى مما يرضى به

(١٥٦) كان جيش الدولة بقيادة الصدر الاعظم رشيد محمد راجع (خلاصة تأريخ الكرد وكردستان) لمحمد أمين زكى ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .
ترجمة محمد على عونى

(١٥٧) كان قائد جيش الموصل الوالى محمد باشا (اينجه بيرقدار) وهو ثانى وال تركى بعد الجليلين راجع (تأريخ الموصل) ص ٣١١ - ٣١٤ ج ١

(١٥٨) خلاصة تأريخ الكرد وكردستان - ص ٢٤٧

(١٥٩) هذه القبائل عربية واشهرها كعب المحيسن وتميم

وغيرهم

(١٦٠) تأريخ الديوانية قديما وحديثا للحاج وداى العطيه ص ٣٩

(ذرب آل مغامس الشلال) شيخ خزاعة ، وفي ذى الحجة من سنة ١٢٥٣هـ كانت خزاعة معثرة بسلاح الوالى ، وزعيمها ذرب قد انهزم مع أعوانه .

وفي أوائل ولاية محمد نجيب (١٢٥٨هـ - ١٨٤٢م) هت زوبعة متمرده فى بغداد سببها تعصبه التركى وغلطسته وتكليف السكان بما لا يطبقون^(١٦١) من الضرائب ومساندته حكاه وحاشيته من المرتشين ولكنه تغلب على هذه الزوبعة ونفى رؤوس الثائرين^(١٦٢) .

وحدثت فى السنة الاولى من حكمه ثورة فى كربلاء فوجه اليها حملة أراد بها القضاء على نفوذ الزعماء الذين كانت صلتهم ضعيفة بولاية بغداد^(١٦٣) وكانت حملته هذه بموافقة الباب العالى لقُدسية المدينة وفى عد الاضحى من سنة ١٢٥٨هـ كانت مدافعه تضرب كربلاء فقتل من أصابته النار ونجا من لاذ بالهرب الى الارياف والقرى المجاورة ، وقد اهتز سكان الفرات لهذه الحادثة^(١٦٤) التى عدت من سيئات هذا الوالى^(١٦٥) ولم يكن معث الاستياء ناشئا الا من كون هذه المدينة تضم قبر الامام الحسين^(١٦٦) ولو جردت من هذه القداسة لكان من المحتمل أن يكون للوالى عذر فى محاربة جماعة من المتمردين (الفتيان) الذين تسببوا فى اصابة المدينة وبعض سكانها الابرياء . وفى الشمال كانت لمحمد نجيب حملة قاسية وجهها لاختضاع الاكراد المتمردين فى السلمانة وكان ذلك سنة ١٢٦١هـ - ١٨٤٥م وقد أسفرت هذه الحملة عن هزيمة الزعم الكردى أحمد بابان الى الحكومة الايرانية ، ومن

(١٦١) الروض الازهر للسيد مصطفى الواعظ ص ٨٥

(١٦٢) وفى هذه الحادثة عزل أبو الثناء الالوسى من منصب الافتاء

(١٦٣) الزوراء العدد ٥٦٤ من السنة السابعة ١٤ شعبان

١٢٩٢هـ

(١٦٤) تاريخ الديوانية قديما وحديثا ص ٤١

(١٦٥) جريدة (العرب) البغدادية العدد ١٢ من السنة الاولى

(١٦٦) تقول جريدة (الزوراء) فى العدد ٥٦٤ من السنة السابعة

عن محمد نجيب انه فتح كربلاء المعلاة بضرب السيف ولعمري لقد علتها من كؤوس الحرب عله شفى بها لها علة !! وفى مجموعة الشيخ محمد رضا الشيبى شيء من التفصيل لهذه الحادثة التى قدر عدد القتلى فيها باثنين وعشرين ألفا ما بين رجل وامرأة وطفل

الغريب أن هذا الزعيم كان قبل ذلك يعد العدة لرد جيش إيراني يريد الزحف على السليمانية !! وقد احتجت الحكومة الإيرانية لدى الباب العالي على تصرف هذا الزعيم فأدى ذلك الى محاربته من قبل الوالي محمد نجيب وطرده الى ايران التي أراد محاربتها^(١٦٧) .

ولكن أعمال محمد نجيب التي تبدو في أكثر صورها قاسية شديدة كان الجانب التركي يراها أعمالاً موفقة لان ولاية محمد نجيب كانت في نظر الاتراك فتحاً جديداً للعراق اذ أعاد للدولة ما كان بيد القبائل من المقاطعات الزراعية وبخاصة ما كان في وسط العراق وجنوبه ، ويعتقد الاتراك أن هذه القبائل اغتصبت هذه الارضين من الدولة^(١٦٨) .

وحدثت بعد ذهاب محمد نجيب ثورات اخرى وعلى الاخص حين كانت الدولة مشغولة بحرب القرم مع روسيا سنة ١٨٥٤-١٨٥٥م فقد كان انشغالها هذا سبباً في ثورات داخلية في العراق ، وبعد انتهاء حرب القرم صممت على قمع هذه الثورات والقضاء على نفوذ الزعماء فانتدبت لذلك قائداً في حرب القرم (عمر باشا) المعروف بشدته وكان هذا القائد نمساوي الاصل^(١٦٩) ورافقه الى العراق زميله في حرب القرم (سبلي) العرياني الدرزي^(١٧٠) ووصل هذان الى بغداد سنة ١٢٧٤هـ ١٨٥٧م فامتلاً العراق بالجيوش ، وانتشر الرعب بين السكان ، وفي شوال من السنة نفسها أخذ

(١٦٧) راجع التفاصيل في (تاريخ السليمانية) ص ١٥٩ - ١٦٠ من الترجمة العربية و ص ١٥٩ - ١٦٠ من الاصل الكردي

(١٦٨) راجع (الزوراء) العدد - ٥٦١ السنة السابعة

(١٦٩) كان اسمه (ميخائيل) وقد ولد في (بلاسكي) على حدود بوسنة وابوه ضابط في الجيش النمساوي فسلك مسلك أبيه ثم ترك وطنه وهو في الثامنة والعشرين والتحق بالدولة العثمانية وأسلم وسمى نفسه (عمر) وأشرف على تعليم (عبدالمجيد) قبل توليه السلطنة ، وشارك في حرب الدولة ضد ابراهيم باشا في سوريا سنة ١٨٣٩م وحارب في الجبل الاسود سنة ١٨٥٣م وشارك في حرب القرم ومنها جاء الى بغداد . راجع (تراجم مشاهير الشرق) لرجي زيدان ص ١٤٩ - ١٥٠ ج ١ ط ٢

(١٧٠) كان متصرفاً للحلة وتوفي سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م راجع - (الزوراء) العدد ٥٦١ من السنة السابعة

الوالى (عمر) يجند الشبان اللاتقين تطبيقا لنظام الجندية الجبرية • واشتد ضغطه على النجف وكر بلاء فهدد وسجن وأخذ السلاح^(١٧١) وآزره شبيهه بالشدة والصرامة (خلف آغا) حاكم الحلة فقد كان هذا يعاقب المتهمين بفرض التجنيد عليهم^(١٧٢) وكان العراقيون يكرهون التجنيد ويهربون منه لان الجندى العراقى كان يرمى به فى أماكن بعيدة ومن النادر أن يعود الى بلاده ، وكانت سيرة الولاة وكثرة الحروب وعدم العناية بالجند من أهم العوامل فى تنفير العراقيين من الجندية^(١٧٣) ولهذا قامت الثورة فى العراق ضد هذا الوالى ، وكان الغليان قد اشتد فى الفرات ووقعت معارك عدة بين السكان وبين القائد شبل ، ولم يسترح العراق الا بعد عزل الوالى عمر فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م وكان يوم تركه العراق عيدا للسكان^(١٧٤) وليس لاختفائه فى الحكم من سبب سوى صرامته لمصلحة الدولة ولكن على الطراز القديم^(١٧٥) الى جانب ما عرف به من شدة البطش وصعوبة المراس^(١٧٦) .

أما الثورات فى أيام محمد نامق^(١٧٧) فانها ليست الا كعاصفة هبت مرة واحدة ومدت أطرافها فى كل مكان ولاسيما الفرات الاوسط وديار المتفق وكان سببها صرامة هذا الوالى وتمصبه التركى وكونه رجلا عسكريا خاليا من المرونة • ولم تسلم الفترة التى قضاه (مدحة) فى العراق من قيام ثورة فى الفرات الاوسط وقد قضى عليها بشدة ، وشنق بعض الرؤساء وكان سببها العجرفة التركية التى أبداه متصرف الحلة^(١٧٨) فقتله الثائرون من

(١٧١) تاريخ الديوانية قديما وحديثا - ص ٤٥

(١٧٢) مختصر تاريخ الحلة ص ٧٣

(١٧٣) كان الريفيون الاتراك أنفسهم يهربون من الجندية

(١٧٤) تاريخ الديوانية قديما وحديثا ص ٤٥

(١٧٥) أربعة قرون ص ٢٧٠ •

(١٧٦) مشاهير الشرق - ص ١٥٠ ج ١

(١٧٧) راجع الهامشين ٢٥ و ٢٧ من هذا الفصل والصفحة التى

تتصل بهما

(١٧٨) اسمه توفيق وهو ابن أخت الوالى مدحة وكان قتله فى سنة

١٢٤٥هـ ١٨٦٩م

اعتدوا على أحد الرؤساء بأن لطمه على عينه •
لم تكن هذه الصور التي عرضتها من الثورات الا بعض النماذج مما
حدث في العراق طيلة القرن التاسع عشر ، وسواء أكانت هذه الثورات
حقاً (١٧٩) أو غير حق فإنها دليل تفسخ الحكم العثماني وعدم انسجامه مع
حكوميين ودليل اشمئزاز العراقيين أو معظم العراقيين من حكام لا يحسنون
سياسة ولا ينتمون الى العراق بصلة ، وقد خفت وطأة الثورات في أواخر
القرن التاسع عشر الى حد ملموس بسبب تقرب بعض الزعماء ومنهم
مقاطعات كثيرة واستعداد الدولة بالقوى الكافية وتزويد هذه القوى بالسلاح
والزوارق البخارية وانتشار أسلاك البرق التي سهلت اتصال المدن ببغداد
وبغداد بالاستانة •

العراق والتيارات الحديثة :

قبل أن أبين مدى صلة العراق بهذه التيارات الجديدة أود أن أذكر
بإيجاز موقف الدولة العثمانية منها ومدى صلة البلدان العربية الأخرى بها •
لم تكن التيارات الفكرية الحديثة التي ظهرت في أوروبا عند بداية
القرن التاسع عشر ذات أثر بارز في المظهر العام لكيان الدولة العثمانية فقد
كانت الجامعة الإسلامية تسيطر على الرأي العام الى جانب الجامعة العثمانية
التي يشترك فيها المسلم وغيره بل تشترك فيها الاجناس والعناصر التابعة
لمسلطان العثماني ، وعلى الرغم من ظهور الطباعة والصحافة في
الاستانة (١٨٠) واحتكاك بعض أدباء الأتراك بالأدب الأوروبية والفلسفات

(١٧٩) جاء في مذكرات مدحة ص ١٦٣ و١٦٤ تعليق مقبول لمعظم
هذه الثورات ولاسيما تلك التي تحدث في المناطق الشيعية فهو لا يعزوها
الى اختلاف المذهب كما يرى أنصار السلطان ولا الى تحريض رؤساء القبائل
على محاربة الحكومة للتخلص من الاموال الاميرية وانما يعزوها الى مشكلة
الاراضي التي سببت انتشار الفقر بين الفلاحين وعدم استقرارهم
(١٨٠) انشئت الطباعة في تركيا عام ١٧٢٧م وقد سبقها في القرن
الخامس عشر انشاء مطبعة يهودية تطبع بحروف عبرية لمنفعة اليهود
راجع (لغة العرب) ج ٥ س ٢ اما الصحافة فقد انشئت في تركيا عام
١٨٣١م وأول صحيفة (تقويم وقائع)

الحديثة والثقافات المختلفة ولاسيما الثقافة الفرنسية - على الرغم من كل ذلك - كان تيار الرجعية أقوى ثباتا في ميدان الشعور العثماني من أية فكرة جديدة^(١٨١) حتى في مرحلة التطور التي حدثت في أواخر القرن التاسع عشر وظهور بوادر الفكرة الطورانية بين الاتراك^(١٨٢) فقد كان كل شيء يسير وفق ارادة السلطان عبد الحميد الذي تمسك بالجامعة الاسلامية أشد التمسك وقد أدى وقوف الرجعية التركية موقف المناوء لكل حركة أو فكرة أن تعرض الدولة العثمانية لصراع مستمر مع الشعوب الخاضعة لها ممن أدركتها الفكرة الحديثة وتسرب فيها الشعور بالانفصال والاستقلال على أساس الجنس والوطن كما حدث لها مع شعوب البلقان •

أما البلدان العربية فانها أخذت تتللمل من رقدها في القرن التاسع عشر وتطلع الى أشعة الشمس من خلال الكوى الضيقة ، وكانت مصر وسوريا ولبنان من أسبق الشعوب العربية الى هذا التطلع بل كانت مصر أول بلاد عربية أقامت بينها وبين الغرب جسرا من البعث المتعاقبة وساعدت على تكوين النهضة الشرقية العربية^(١٨٣) ، غير أن النقطة العربية بمفهومها الحديث ظهرت بوادرها في سوريا ولبنان وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد استغل المبشرون من الامريكان والفرنسيين شعور المسيحيين في لبنان فدفعوهم الى المطالبة بالاستقلال والتحرر من الدولة العثمانية وأسسوا المعاهد الكثيرة التي فتحت أبوابها للمسلمين أيضا وشجعوا دراسة اللغة العربية^(١٨٤) وغنوا باحياء التراث العربي ليتمكنوا من التشير في حين

(١٨١) كان بعض رجال الدولة أيام سليم الثالث على علم بفلسفة جان جاك روسو وغيره ولكن هؤلاء كانوا يعدون الفلاسفة من الزنادقة راجع مجلة (الطليعة) ج ٧ س ٥ من مقال للدكتور كامل عياد
(١٨٢) القومية التركية جاءت متأخرة عن القومية العربية راجع (العرب تأريخ موجز) لفيليب حتى ص ٢٥٤
(١٨٣) راجع (نشوء الفكرة القومية) لساطع الحصري ص ١٥٣ ط ٢ و (النهضة العربية في العصر الحاضر) لشكيب ارسلان ص ٨
(١٨٤) كان استخدامها للتبشير راجع (العقد) ديوان ابراهيم اليازجي ص ١١

كانت الطبقة الحاكمة في مصر عند بداية النهضة تعنى بالادب التركي أكثر مما تعنى بالادب العربي^(١٨٥) ان لم نقل انها لم تلتفت اليه أدنى التفاتة^(١٨٦) .

أما العراق فقد بقي طيلة القرن التاسع عشر بعيدا عن التيارات العربية الحديثة على الرغم من اتصال بعض أدبائه بأدباء سوريا ولبنان ولم يكن يعرف عن العالم الخارجى شيئا عدا ما كان يعرفه بعض السكان عن السياح الاجانب والمقيمين الممثلين للدول الاجنبية في بغداد والبصرة والموصل لذلك كان تأثير العراق بالغرب أقل من تأثير اللدان العربية^(١٨٧) التى أشرنا اليها مع أن الطاعة قد شقت طريقها اليه في أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ثم أعقبها ظهور الصحافة ممثلة في جريدة (الزوراء) وغيرها ، ولكن الطباعة لم تنفد في نشر كتاب جديد الاتجاه ولا الصحافة كانت ذات توجه مؤثر ، وكان الى جانب ذلك أسباب اخرى تصل بالسياسة والمجتمع أما السياسة فانها عمدت الى استخدام الزعماء وشيوخ العشائر بمنحهم المقاطعات الكثيرة ليكونوا عوناً لها ، وفي أيام الوالى (مدحة) كان ناصر السعدون وأخوه منصور من السلاح الطيع بيد الحكومة لتنفيذ الروح العثمانية وكذلك كان فرحان بن صفوق شيخ شمر الذى أصبح كناصر السعدون خاضعا للاتراك بتوطئه في الاراضى الزراعية وتثقيف أبنائه ثقافة تركية ومثل هذا الاستيطان ما حدث للقبائل الاخرى حتى أخذت الميزات القديمة تضع بسرعة بين هذه القبائل وحتى تغلغل النفوذ التركى أكثر من ذى قبل وساعد على تقوية هذا النفوذ الوسائل الحديثة التى سهلت سرعة الاتصال وأعمال السقى التى تشرف عليها الحكومة^(١٨٨) .

وقد مال السلطان عبدالحميد الى الاكراد فاستخدمهم في أعمال

(١٨٥) (تأريخ الشعوب الاسلامية) ص ٩٩ ج ٤

(١٨٦) (فى الادب الحديث) لعمر الدسوقي ص ٣٧ ج ١

(١٨٧) (الزهاوى الشاعر) لاسماعيل أحمد أدهم ص ١٦

(١٨٨) راجع (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) ص ٢٩٤ -

الجندية واستعان بهم في دعم أغراضه السياسية في بعض جهات العراق ، وفي أواخر القرن التاسع عشر تحولت تلك الثورات العامة الى شبه انتفاضات محلية يقوم بها بعض المتمردين ولكنها سرعان ما تنطفئ . وكانت سياسة التعليم من أقوى الاسباب في منع احتكاك العراق بالانجاهات الفكرية الحديثة فقد كانت المدارس على قلتها وضعف التدريس فيها وكونه باللغة التركية وحدها لم تنشأ الا لدعم الروح العثمانية وتخريج موظفين صفار .

وأما المجتمع فقد كان انقسام السكان الى عناصر وطوائف من أهم الاسباب في تعويق الوعي الوطني فان هؤلاء لم يوحدتهم هدف ولم يجمعهم شعور واحد ولم تمزج بينهم الحوادث والخطوب فتولف منهم أمة واحدة تسعى الى حريتها واستقلالها فقد كان للاكراد طريق وللعرب طريق ، وكان السنة في جانب والشيعة في جانب آخر وكذلك بقية الطوائف الدينية الاخرى ، وكان الموسرون من طبقات المجتمع بين مالك أرض لا ينظر الا لمن يخفف عنه الضرائب وشيخ لا يريد سوى الابقاء على مقاطعته وارضاء الحكام ، وتاجر لا يتجاوز شعوره حدود استتباب الامن واستقرار الاحوال . وهكذا انتهى القرن التاسع عشر والعراق فقر يباب وسكانه جهلة أميون الا القليل من رجال الدين ومقربى الدولة وقد نسى معظمهم لذة الحرية ويشسوا من أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وقد ساعد على هذا اليأس بل على الظلم بجميع ألوانه ما كان يفعله بعض العراقيين أنفسهم من تحريض الولاة وتسديد خطاهم في محاربة السكان وتهوين كل ذنب يرتكبه الوالى أو القائد أو أى حاكم .

ولكن هذا كله لا يعنى أن الحس العربى كان مفقودا أو أن الشعور بالظلم كان غير موجود وانما كان ذلك ضعيفا بالنسبة للمفاهيم الحديثة التى شاعت فى اوربا وتسربت فى بعض الشعوب الاخرى .

الفصل الثاني

الحالة الاجتماعية

صعوبة التصوير :

ان دراسة الحالة الاجتماعية في العراق خلال القرن التاسع عشر ليست أمرا سهلا ميسورا للباحث الحديث لان المؤرخين الذين تناولوا دراسة العراق في تلك الفترة لم يرسموا صورة واضحة للناحية الاجتماعية من كل جوانبها ولعل انصرافهم الى الناحية السياسية - على ما فيها من نقص - وتقليدهم المؤرخين القدماء قد جعلهم يهتمون بتصوير المجتمع ورسم خصائصه ومظاهره كما يجب ، وما كتبه مؤرخو العراق لم يتجاوز الحوادث السياسية العامة والحروب والثورات وعلاقة القبائل والمدن بالدولة عامة والولاية والموظفين خاصة ، أو أعمال الدولة والولاية في تدبير الحكم وقمع الثورات والخوض في الممارك والحروب ، وهؤلاء المؤرخون - ان صح أن أسميهم مؤرخين - على اختلاف بيئاتهم ومداركهم المحدودة لم يتجهوا فيما كتبوا من التاريخ الا الى مجازاة الدولة والولاية وتسجيل الحوادث في ظل القوة الحاكمة الا القليل منهم ، فاذا لمسنا شيئا من صور المجتمع وحياة السكان في كتاب أو مجموعة فانا نجد ذلك قد جاء عرضا ولم يقصد اله لذاته بل لحاجة سياسية اقتضت الاشارة اله ، ولعل قليلا من المؤرخين

والرحالة الاجانب تناول بعض مظاهر المجتمع العراقي ولكن الاعتماد على الرحالة والسياح والمؤرخين الاجانب لا يغنى الغناء الكافى فى دراسة الاحوال الاجتماعية فى العراق لان هؤلاء لم يكونوا جميعا قد تغفلوا فيه ودرسوا مظاهره دراسة عميقة أو اطلعوا على تقاليده وعاداته اطلاقا دقيقا ، ومهما يكن من شئ فان ما كتبه مؤرخو العراق والرحالة وغيرهم من الاجانب ليس الا مفتاحا لتبع الاقفال التى تعترض طريق الباحث الحديث ، وان اتباع نظرية القياس - هنا - قد تدلل صعوبة البحث لان المجتمع العراقي كان فى قراء وأريافه وبواديه مجتمعا بدائيا أو قريبا من المجتمعات البدائية التى يسير فيها التطور ببطء شديد ولاسيما فى عصر كانت سياسة الحكم فيه سياسة هدم وتخريب لا سياسة بناء وتطور فما كان مألوفاً فى العراق قبل القرن التاسع عشر كان هو نفسه خلال هذا القرن ولاسيما فى القرى والارياف والبادى •

نظرة موجزة :

لا أريد فى هذا الفصل أن أتناول كل نواحي الحياة الاجتماعية وخصائص المجتمع العراقي ومميزاته وانما أكتفى من كل هذا بما يتصل اتصالا مباشرا أو غير مباشر بالشعر وبما يمكن أن يسمى مؤثرا أو عاملا من عوامله وسأتجنب التفصيل فيما دأب عليه مصورو الحالة الاجتماعية فى أية بيئة من تناول الجزئيات الى جانب المظاهر العامة فان تناول الجزئيات شئ عير سهل الى جانب كونه قد يعد غير ذى جدوى فى هذه الدراسة كوصف المدن والقرى والارياف والمساكن والازياء والمرأة والتقاليد والعادات واختلافها باختلاف السكان وبيئاتهم وكوصف الخرافات والاهام التى كانت شائعة حتى فى المدن^(١) ، وحسبنا من هذا كله أن نعرف باختصار أن المساكن فى العراق كانت لا تعدو الطين والقصب وسعف النخل وشعر الحيوانات فى

(١) راجع عن بعض الخرافات فى بغداد مجلة (لغة العرب) البغدادية ج ٨ من السنة الثالثة و ج ١ من السنة الرابعة

انقرى والبوادي والارياف ، وخليطا من بعض هذا ومن الآخر والصخر في المدن ، وليس في العراق من بناء يستحق الذكر بعد التخریب وكوارث الفيضان التي تابعت عليه غير آثار قديمة كتب لها البقاء وغير مساجد وأضرحة شيدت على قبور آل البيت في المدن المقدسة ولعل القليل جدا من بيوت الاغنياء وموظفي الدولة كان يمكن أن يوصف بأنه شيء لا بأس به في مظاهر الزخرفة والهندسة الشرقية ولاسيما في بغداد^(٢) . أما الازياء والملابس فقد كان العراق منها أشبه ما يكون بمتحف كبير يضم مختلف النماذج والصور ولعل في بقاء الكثير من تلك الازياء حتى الآن ما يغني عن وصفها في القرن التاسع عشر^(٣) . وأما المرأة فهي في المدن جليلة بئها فاذا خرجت فهي محجبة ، وقليل من المسنات والعجائز من يخرجن للبيع والشراء في الاسواق ، ولكنها في الريف والبادية تسهم مع الرجل في معظم أعماله في الزراعة والرعي وصنع ما يحتاج اليه البيت ولها شأن في المعارك والحروب ان لم يكن في حمل السلاح ففي الانارة والاستصراخ والتشجيع في حين أنها لا تلقي من الرجل ما يدل على احترامها وتقديرها غير أن المرأة الكردية كانت تعامل من الرجل معاملة حسنة ولكن الكردية القروية كانت معرضة لتعسف الامراء والزعماء^(٤) .

هذه هي بعض الجزئيات التي لم أر بأسا في الاشارة اليها تاركا التفصيل الى المراجع التي ذكرتها في الهوامش . أما ما يمكن أن يعد شيئا

(٢) راجع عن وصف مدينة بغداد رحلة (ر) ص ٢١٧ ج ١ من الاصل الانكليزي و (تنزه العباد) لنايليون . الماريني ص ٥١ و ٥٢ و (قلب العراق) لامين الريحاني ص ٤٢ . وجريدة (الزوراء) العدد ١٤٥ من السنة الثانية الصادر بتاريخ ٣٠ صفر ١٢٨٧هـ فقد جاء في هذا العدد أن سكان بغداد في سنة ١٢٨٧هـ ١٨٧٠م خمسون ومئة الف وفيها من الدور ثمانية عشر الفا

(٣) راجع لكثير من وصف الازياء في رحلة (ريج) ص ١٩٨ و ٢٠٢ و ٢٠٥ و ٢٠٦ . (تنزه العباد) ص ٥٣ و Baghdad The city of Peace. p. 242.

(٤) رحلة (ريج) ص ٢٠٢ و ٢٠٤

ذا جدوى فى الدراسة الموضوعية التى تتعلق بهذا البحث فهو دراسة عناصر السكان والمظاهر القبلية والافراح والاحزان ومظاهر الغنى والفقر والديانات والمذاهب والتصوف وأثر ذلك كله فى حياة السكان ثم التباعد بين اولئك بسبب اختلاف العناصر والديانات والبيئات ، ويعود السبب فى أهمية هذه الدراسة الى علاقة هذه المظاهر بالشعر بل يكاد كثير منها أن يكون مؤثرا قويا فى توجيه الشعراء واثارة عواطفهم كمظاهر الاحزان واختلاف المذاهب والغنى والفقر والمظاهر القبلية التى كانت عاملا قويا من عوامل الثورات الكثيرة التى كانت هى الاخرى من بواعث الشعر سواء منه ما اتصل بالحكم وانحاز الى جانبه أم ما كان بجانب الناثرين على ذلك الحكم .

عناصر السكان :

ان العراق كغيره من الاقطار التى تعرضت لموجات مختلفة من البشر يرتطم بعضها ببعض ويذيب بعضها بعضا وقد تذهب موجة لتحل محلها موجة اخرى وقد تبقى الاولى شيئا من أطرافها وقد تندمج الاثنان معا لذلك لا يمكن القول بأن العراق موطن لعنصر واحد - وان كان معظم سكانه من العرب - فقد كان موطنا لاجناس مختلفة أثرت فى بعضها الحضارة العربية فصهرته ودمجته بالعنصر العربى الاكبر وبقي بعضها متمسكا بلغته وعاداته لقلة اختلاطه بالعرب ، وفى بعض المدن - ان لم نقل فى معظمها - من ينتمى الى أصول غير عربية ولاسيما بغداد بوصفها مركزا سياسيا هاما وملتقى للحركات التجارية والمهنية فقد كانت تضم عددا غير قليل ممن هاجر اليها من ايران والهند وغيرهما^(٥) الى جانب الاتراك^(٦) والمماليك الحاكمين . وكانت العناصر التى تدعى أنها بقايا الشعوب القديمة فى العراق أمثال السريان والكلدانين والآشوريين تقطن فى الشمال ولاسيما المناطق الجبلية التابعة لولاية الموصل . وفى تلغفر وكركوك يقيم بقايا التركمان الذين

(٥) جاء فى (الزوراء) العدد ٥٠٥ السنة السادسة ان حول ضريح

الشيخ عبدالقادر قرابة ثمانمئة دوريش من الاقوام المختلفة

(٦) العنصر التركى وفد الى العراق منذ العصر العباسى

محرروا الى العراق فيما قبل هذا العصر ، ويقيم الاكراد فى المناطق الشمالية حبة التى تقع قريبا من حدود ايران وقد تفلت بعضهم فسكن بغداد وغيرها من المدن الاخرى طلا للعيش . وأما العرب وهم العنصر الاكبر فان فريقا منهم يعيش على الانهار فى القرى المتناثرة على شاطئى دجلة والفرات وفريقا آخر حياة البداوة متنقلا مع الغيوم والأمطار ومواسم الربيع . وفريقا ثالث دفعته عوامل كثيرة الى سكنى المدن أو الى بناء مدن جديدة فكان لهم فى بغداد والموصل والصرة شأن كبير ، وكانت المدن القديمة الاخرى كالحلة محف وكربلاء^(٧) تصطبغ بالصبغة العربية شأنها شأن المدن التى تحدثت خلال العصر العثمانى كالعمارة والكوت والناصرية والرمادى^(٨) وغيرها أو القرى التى توسعت ثم اطلقت عليها صفة المدن كالدوانية وسوق شيوخ وكالمدن الصغيرة التى تقع على الفرات الاعلى فان هذه كلها كان طابعها الذى تتسم به طابعا عربيا فى كثير من العادات والتقاليد وان ضم بعضها اخلاطا من الامم الاخرى .

المظهر القبلى

لعل المدن بما فيها من تنافر الاجناس والطباع لا يمكن أن ترسم صورة واضحة لحياة عامة مطردة ذات طابع متميز كالصورة التى ترسمها حياة القبائل بوصفها أقرب ما تكون الى الحياة البدائية منها الى الحياة المتحضرة . وقد مر بنا فى الفصل السياسى ما كان للقبائل من شأن فى تابع الثورات والتمرد على الحكم فالمجتمع القبلى فى العراق أكثر السكان عددا وأوضحهم تصويرا للعادات والتقاليد الشائعة لان هذه القبائل تخضع لزعامات ذات نفوذ وتلتزم بما تفرضه تلك الزعامات والعادات الموروثة التى لا يمكن الخروج

(٧) أدت حادثة داود سنة ١٢٤١هـ وحادثة محمد نجيب سنة

١٢٥٨هـ الى هجرة كثير من العرب من مدينة كربلاء

(٨) انشئت مدينتا الرمادى والناصرية فى أيام الوالى مدحة وقد

استقدم لتخطيط الناصرية مهندسا بلجيكي راجع (لغة العرب) ج ١
س ٢ .

عليها • ومثل هذه الظواهر والعادات قد يكون ضعيفا في المدن المحكومة التي ترهب القانون وتخشى الحكم وقد تحاول التقليد والمجاراة للسلطة في سلوكها وعاداتها ، أو المدن التي كان الحكم فيها ضعيفا ولكن سكانها أخلاط مختلفون • غير أن بعض المدن الصغيرة كان خاضعا في مظاهره العامة للعرف القبلي السائد لكونها سوق القبائل ومستودع حبوبها وأنعامها وما ينتج من تلك الانعام ولكون النفوذ الذي يسودها ليس الا لزعماء القبائل أنفسهم حتى اللهجة الدارجة فيها كانت لهجة القبائل المحطة بها لان سكانها ممن تفرعوا من تلك القبائل وآثروا حاة المدن على حاة الارياف ولكنهم ظلوا محافظين على معظم الخصائص القبلية •

والقبيلة في العراق تختلف باختلاف العنصر ، فالقبيلة أو العشيرة الكردية ما كانت تعنى الا الانتماء الى قرية أو مكان ولها رئيس يكون صلة التفاهم بينها وبين الامراء والملاك^(٩) • أما القبائل العربية فانها تسمى بأسماء الجدود وان قدم العهد بها أمثال ربيعة وخزاعة وبنى أسد وخفاجة وقشعم وزبيد وبنى لام وعنزة وشمر وطىء وعقيل وبنى تميم وغيرهم ، ومن هذه القبائل من تجمع أو تفرق وكثرت بطونه وأفخاذها فكثرت تبعا لذلك أسماء الفروع ، ولكل قبيلة كبيرة شيخ يسودها ويسمى شيخ المشايخ وهو الرئيس الاكبر المطاع وله الامر والنهي على الشيوخ والرؤساء الذين يسودون البطون والافخاذ • وشيخ المشايخ مسؤول عن رعاية قبيلته والدفاع عنها أمام الحكومة وهي مسؤولة عن الالتفاف حول رايته وتلبية ندائه اذا ثار على الحكومة أو حارب قبيلة •

أما عادات القبائل وتقاليدها والاحكام التي تصدرها في مشكلاتها فهي أهم ما في العرف القبلي وان خالفت الشرع والقانون • وكانت هذه القبائل تهتم أيما اهتمام باقتناء الخيل وحمل السلاح وتعليم الفروسية والرماية وتنشئة الاولاد الصغار على هذه الصفات ما دامت تحتاج الى ذلك في ثوراتها والدفاع عن كيانها •

(٩) عشائر العراق رقم ٢ ص ١٣ و ١٥

لقد كانت سبل المعيشة في العراق مختلفة باختلاف البيئات وهي لا تعدو سبل العيش في أى مجتمع متأخر غير مستقر في أحواله السياسية فقد أثر الاضطراب السياسى تأثيرا سيئا فجعل من السكان طبقات مختلفة لس فيها من الاغنياء الا التجار الكبار والملوك وشيوخ الاقطاع وهؤلاء ليسوا الا جزءا يسيرا من السكان • أما الطبقات العامة في المدن والارياف والبادى فانها كانت تنوء بأغواء الفقر والفاقة لقلة الزراعة وفقدان الامن والاستقرار وصعوبة النقل ورداءة الطرق ، وكان من أسباب انتشار الفقر أيضا كثرة الضرائب التي كانت تفرض على السكان وتجبي منهم بأقسى ما تكون الجباية وكان الفلاح العراقي فريسة دسمة^(١٠) فهو على اسعداد في الموسم وغير الموسم لاستقبال الجباة غلاظ القلوب بل كان عرضة لما هو أشد من ذلك عندما تحتاج الدولة الى المال في حروبها وأعمالها فيطلب اله أن يدفع فسما كبيرا من حصة الحكومة قبل موسم البيع وفي غمرة الازهاج والتشكل يضطر الى بيع غلته قل أو انها بضمن أقل بكثير من تقدير الحكومة وكان التجار الذين لا ذمة لهم يتربصون بهذا فيشترون بمثل ما يقدررون ويشاركون الدولة في ظلمها^(١١) •

وكان غير الفلاح خاضعا لالوان من الضرائب التي لا حصر لها فقد كانت تفرض على الدور والحوانيت والمتاجر والسلع المستوردة والبقر والغنم والاسماك والملح والنخيل والاشجار عدا ضرائب الارض الزراعية • وكان من المضحك أن تؤخذ ضريبة سنوية على بيوت الشعر وقد تتكرر مرتين في السنة^(١٢) • وكانت الطواعين والابوثة والى جانبها فيضان الانهر باستمرار من الاسباب التي تضعف حركة العمل والسعى وتبعث على تشريد السكان

(١٠) كان يدفع الخمس حصة للحكومة وحصة الجيش وهي ستة بالمائة وحصة للمعارف التي لم يستفد منها الى جانب حصة الملاك والرئيس

(١١) (لغة العرب) الجزء الثامن من السنة الثالثة شباط ١٩١٤

(١٢) راجع (الزوراء) العدد ٥١٦ السنة السادسة ١٤ محرم

في القفر اليباب ثم لا يعودون الا بحذر وخوف وهم جياع عراة • وكانت بغداد نفسها تثير الامسى بمظاهر البؤس والفقر المنتشرين في أطرافها^(١٣) ولم تكن المدن الاخرى بأحسن حالا منها ، وكانت أرياف العراق التي اشتهرت قديما بالخصب والنماء ليست الا بلاقع موحشة فلم تكن المزارع تتجاوز الميل أو الميلى من ضفة النهر وقد تكون الارض البوار متصلة بحاشية النهر لا يفصلها فاصل من نخل أو زرع • وكانت مظاهر الفقر ماثلة في مناطق الاكراد وعلى ضفاف الانهار بين القبائل العربية فلا تكاد تقع العين الا على أجساد لا تسترها غير ملاءة من الصوف الخشن • أما المنازل في القرى فانها كانت أشبه شيء بمقابر قديمة ليس فيها غير العظام والرمم وقد كان الكيرون من السبكان لا يكادون يستقرون حتى يرحلوا الى مكان آخر لعلهم يجدون اللقمة اليابسة^(١٤) ، وقد حدث من جراء ذلك أن انتشرت اللصوصية وقطع الطرق ونهب القوافل والسفن ، وكثيرا ما كان قطاع الطرق يفرضون الاتاوة^(١٥) على المسافرين والزوار الذاهبين الى المشاهد المقدسة وقد تدفهم القسوة الى ابداء الزائرين • ولم تكن هذه الوسيلة من قطع الطرق ونهب القوافل خاصة بسكان الجنوب بل كانت شائعة في الشمال أيضا فقد اشتهر الاكراد الهماوند بالقتل ونهب القوافل^(١٦) بل كان من الاكراد اللباس من يسبح الله ويصلى النوافل ولكنه يسفك الدماء البريئة^(١٧) ويعترض طريق القادمين والرائحين ومثلهم قبائل باجلان من الترك والاكرد^(١٨) • ولم يكن كل ذلك لو لا الحاجة الى العيش والاستقرار ولو لا فساد الحكم

(١٣) Baghdad the city of peace. p. 297.

(١٤) راجع (عمرة وذكرى) لسليمان البستاني ص ١٤٤ - ١٤٥

(١٥) كانت هذه الاتاوة تسمى (الخاوة) وقد جاء وصفها في

الكتيب المخطوط (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) الورقتان ٢٤ و ٢٥ من نسخة يعقوب سركيس والورقتان ٤ و ٥ من المختصر الموجود لدى

(١٦) عشائر العراق للمحامى عباس العزاوى رقم ٢ ص ٧٧

(١٧) المصدر السابق - ص ١٠٥

(١٨) رحلة المنشى - ص ٤٢ ترجمة المحامى عباس العزاوى

في حين كان الكثير من الولاة والموظفين والطبقات الغنية قد انصرفوا الى
سهو والموبقات ولاسيما في بغداد^(١٩) .

مظاهر الافراح والاحزان :

في العراق مواسم للافراح وفيه مواسم للاحزان شأنه شأن غيره من
شعوب والمجتمعات وهذه المواسم منها ما هو فردى خاص ومنها ما هو
جماعى عام فالاعياد الدينية مواسم عامة لاصحابها كعيدى الفطر والاضحى
لمسلمين جميعا وكالاعياد الدينية عند النصارى واليهود ، وكان للشيعة عيد
خاص بهم وهو عيد الغدير الواقع في الثامن عشر من ذى الحجة وكذلك
مولد النبوى وهو في الثامن عشر من ربيع الاول عند الشيعة وفي الثانى
عشر منه عند السنة ، وللاكراد عيد موسمى يحتفلون به وهو عيد (النوروز)
لانه بداية فصل الربيع ويشاركهم فيه الفرس المقيمون في العراق . ومظاهر
'الفرح في كثير من هذه الاعياد تبدو واضحة ان في المدن أو في الارياف ،
ومثلها الافراح الفردية كحفلات الزفاف^(٢٠) عند العرب^(٢١) والاكرا^(٢٢)
وللختان وعودة الحجاج من مكة نصيب غير قليل من الفرح والابتهاج .
أما الاحزان فانها كانت تسرف في حدثها عند سكان المدن وهى غير
قليلة الشأن عند سكان الارياف ولاسيما المرأة التى تفقد عزيزا لها فانها قد
تقى مجللة بالسواد حتى يخلفه الكفن ، غير أن سكان البادية أكثر صبرا
وجلدا وعدم اهتمام بهذا المظهر .

وفي العراق مظهر كبير من مظاهر الحزن يتخلل أيام السنة وهو

(١٩) راجع - شعراء بغداد وكتابها ص ٢٨ و ٤٨

(٢٠) كانت تصحب الزفاف بنادق تدوى مقذوفاتها فى الفضاء ولعل
هذه العادة نشأت فى بغداد وعنها أخذت وسبب نشوئها ان جنود الدولة
كانوا يقتصبون الاولاد والنساء ولاسيما العرائس منهن وكثيرا ما كانت
المدابج تقع بين الجنود وبين مواكب الزفاف راجع (لغة العرب) ج ١٠
س ٣ نيسان ١٩١٤

(٢١) راجع عشائر العراق - الجزء الاول ص ٣٤٣ - ٣٤٦

(٢٢) راجع التفصيل فى رحلة (ريج) ص ٢٠٠ - ٢٠٤

خاص بالشيعة وذلك في وفاة النبي (ص) والائمة من آل البيت وتجلّى ظاهرة الحزن بوضوح في العشرة الاولى من محرم فيشيع لبس السواد وتقام المآتم في المدن والقرى^(٢٣) وتلى سيرة الحسين وحادثة قتله في اليوم العاشر وتشد قصائد الشعر من فصيح ودارج ويتجنب الشيعة خلال محرم وصفر - مهما استطاعوا - أى مظهر يدل على الفرح والبهجة كالزواج والختان مما يتنافى مع شعار الحزن والالم •

الديانات والمذاهب^(٢٤)

لقد كان العراق قديماً موطن الآلهة تنحت وتعبد وكان سكانه القدماء من بابليين وآشوريين وكلدانيين وسومريين يفتنون في صنع آلهتهم ويضعونها في الهياكل والمعابد ويتبركون بها في المواسم والاعياد • وانطوت عادة الآلهة من الاحجار والصخور والنجوم وغيرها لتحل محلها عبادة رب واحد أرسل الرسل وبعث الانساء وأنزل الكتب ، ودان العراق وخضع للرب الواحد وآمن بالرسول والكتب ولكنه صنع من سكانه ما صنعت بابل من العجائب فالى جانب الديانات الثلاث - الاسلام والنصرانية واليهودية - ديانات اخرى منها القديم الموروث ومنها الطارئ المستجد ، وكان ميراث العراق من العصر العباسي ذى الفلسفات والمذاهب وحظه من العناصر المختلفة والامم الداخلة في الاسلام ميراثاً صعباً شاقاً رسم للتاريخ مناهج فيها كثير من الالتواء والتعقيد ورسم التاريخ منه صوراً فيها كثير من الابهام والغموض وهى ان وضحت

(٢٣) يقول عبد الباقي العمرى في ص ١٣٠ - ١٣١ من (الترياق الفاروقى)

نحن أناس اذا ما قد حل شهر المحرم
فكل شئ علينا سوى البكاء محرم

(٢٤) أحصت حكومة الاحتلال سنة ١٩١٩م سكان العراق فكانت النتيجة كما يلي (١) الشيعة ١٥٠١٥٤٩٤ ١٥٠١٥٤٩٤ (٢) السنة ١٥٠١٥٤٩٤ (٣) اليهود ٨٧٤٨٨ (٤) النصارى ٧٨٧٩٢ (٥) الديانات الاخرى ٤٢٣٠٢ راجع جريدة (دار السلام) البغدادية العدد ٤ من المجلد الثالث السنة الثالثة ٢٢ شباط ١٩٢٠

فى شىء فان وضوحها هذا انما يدل على تيارات متضاربة فى المعتقدات ، وفى شمال يقطن (العلى اللهية) الذين يؤلهون الامام عليا وينسبون له من انصافات ما لس له • ويقسم الى جانبهم (اليزيدية) ولاسيما فى سنجار شرقى الموصل وهم يدعون أن ديانتهم سماوية أتى بها يزيد بن معاوية من من الاله الاعظم^(٢٥) • وفى الشمال أيضا قليل من بقايا الباطنية والنصيرية • وبقايا الصابئة فى جنوب العراق يدعون أن نبيهم يحيى وهم يقدسون النجوم ويعظمونها محافظة على أصول ديانتهم فى أقدم عهودها^(٢٦) • وقد انقسم النصارى الى عدة طوائف منهم الكلدان والريان واليعاقبة والنساطرة والكاثوليك والارثوذكس واللاتين والبروتستان والسبتية والملكانية^(٢٧) ، ومعظم هؤلاء من سكان القرى المنتشرة فى الشمال ولهم أديرة فى تلك الانحاء^(٢٨) ومثلها أديرة وكنائس فى الموصل والبصرة وبغداد^(٢٩) حيث يقسم بعضهم •

وكان ثقل اليهود^(٣٠) فى بغداد^(٣١) غير أن بعضهم سكن البصرة والعمارة والحلة وفى جوار المكاين المقدسين عندهم (العزيز) فى جنوب العراق (وذى الكفل) بين الحلة والكوفة^(٣٢) •

أما الديانة الاسلامية وهى الديانة الكبرى فى العراق فانها قسمت

(٢٥) اليزيدية لصديق الديمولوجى ص ١٦٤

(٢٦) رجع التفاصيل فى كتاب (الصابئون فى حاضرهم وماضيهم)

لعبدالرزاق الحسنى

(٢٧) لم يبق للملكانيين ذكر الآن

(٢٨) راجع أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٩

(٢٩) كان للنصارى فى بغداد ستة معابد فى أواخر القرن التاسع

عشر (تنزه العباد) ص ٤٦

(٣٠) جاء فى مجلة (سومر) المجلد ١١ الصادر سنة ١٩٥٥ ان

عدهم يربو على عشرة آلاف فى القرن التاسع عشر

(٣١) كان لهؤلاء فى بغداد خمسة وعشرون معبدا (تنزه العباد)

ص ٤٧

(٣٢) لم يبق لهم ذكر الآن فى هذين المكاين

المسلمين الى طائفتين هما طائفة السنة وطائفة الشيعة والثانية أكثر عددا من اختها وكل أتباعها امامية اثنا عشرية ومذهبهم الذي يرجعون اليه الامام السادس جعفر الصادق وقد انتشروا ما بين بغداد والبصرة على جانبي الفرات ودجلة ، أما السنة فانهم موزعون بين المذاهب الاربعة غير أن معظم الموظفين والمقربين لدى الدولة كانوا يدينون بالمذهب الرسمي وهو المذهب الحنفي وكان أكثر الاكراد من أتباع المذهب الشافعي •

وقد ظهرت في العراق خلال القرن التاسع عشر بعض العقائد المتطرفة ومنها العقيدة (البهائية) وقد قوبلت بهجوم عنيف من المسلمين وحاربها رجال الدين من الشيعة والسنة وطردها من بغداد أيام الوالي محمد نجيب^(٣٣) ومن ثم ضعفت ولم يبق من أتباعها الا التزدد^(٣٤) •

اثر الدين في حياة السكان

ان لكل هذه الديانات والمذاهب التي ذكرتها رجال دين يتدارسونها ويبحثون فيها ويدافعون عنها وينشرونها بين أتباعهم ويشرفون على تعليمها واقامة شعائرها في المسجد والدير والكنيسة والبيعة ، وهم المسؤولون عن المحافظة عليها والرد على من يطعن أو يعارض • واذا تركنا الطوائف القليلة بتعاليمها المبهمة وكتبها غير المنشورة فانا نجد الديانات الثلاث ذات أثر في أتباعها وذات شأن فيما يكتب عنها وينشر فللنصارى أديرة وكنائس ومدارس لا تألو جهدا في ترسيخ التعاليم المسيحية بين أتباعها ولليهود مثلهم • أما المسلمون فقد كانت رعايتهم للتعاليم الاسلامية في حدود ضيقة وفي طبقات

(٣٣) كان داعيتها المسمى ملا علي البسطامي قد جاء الى بغداد سنة ١٢٥٨هـ ثم نفى منها

(٣٤) من أشهر دعائتها الداعية المعروفة (قرة العين) التي يسميها أتباعها (الطاهرة) وقد جاءت الى كربلاء سنة ١٢٦٣هـ ثم انتقلت الى بغداد واتصلت ببعض رجال الدين من بيت الالوسي ولكنها أخرجت من العراق راجع التفاصيل في (الرسالة التسع عشرية) لاحمد سهراب ص ١٠٥ - ١١٣ في الملحق لمحمد مصطفى البغدادي

خاصة كطبقة رجال الدين أنفسهم وغيرهم من المتدينين الذين يقيمون في المدن وفي بعض الطبقات الأخرى فيما يتصل بالفرائض والمعاملات ، أما تطبيق الحدود فقد كان أمرا صعبا لأن الدولة نفسها ما كانت تهتم بذلك فقد كان الكثيرون من موظفيها يقتربون الموبقات فيكونون قدوة سيئة لمن يتصل بهم ويسايرهم من ضعاف النفوس .

وكانت القبائل البدوية لا تعرف إلا السير من الدين وأحكامه بل كانت تجهل الأحكام التي تتعلق بالمعاملات والزواج والطلاق والارث وما يتصل بالفرائض العامة . أما سكان الجبال فقد كان الوازع الديني ضعيفا عندهم وقد عرف عن الأكراد أن أكثرهم يؤدون العبادات ولكن معظمهم يجهل حقوق الله في المجتمع ولا يبالي بقتل الأبرياء^(٣٥) . ومثلهم القبائل العربية المستوطنة على دجلة والفرات فقد كانت هي الأخرى تجهل الواجبات والأحكام إلا القليل ممن تعهدوا بعض رجال الدين الذين كانوا يتفقهون في النجف والحلة وسائر المدن المقدسة وكان معظمهم من تلك القبائل نفسها ، ولم يكن هذا العمل من رجال الدين مما يرضى بعض الموظفين في بغداد أو السائرين في ركبهم فهو في نظرهم وسيلة من وسائل انتشار التشيع بين القبائل وفي هذا خطر على السلطان^(٣٦) .

التصوف وأثره

لا أريد أن أبحث في التصوف هنا بحثا موضوعا لأن هذا ليس من منهج البحث وإنما أريد أن أتناول هذه الظاهرة بمقدار ما لها من مساس بحياة السكان وبما لها من علاقة بالشعر وإن كانت ضعيفة في السياسي

(٣٥) راجع عشائر العراق رقم ٢ ص ١٠٥

(٣٦) راجع هذا الرأي في جريدة (الزوراء) العدد ٥٦٩ السنة

السابعة رمضان ١٢٩٢هـ و (عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد) لأبراهيم فصيح الحيدري ص ٢٠ من النسخة المخطوطة في مكتبة الآثار - بغداد .

منه (٣٧) . وقل أن أين مدى انتشار التصوف في العراق أود أن أشير الى أن التصوف قد شاع خلال القرن التاسع عشر في الدولة العثمانية شيوعاً مفرطاً فقد كان السلطان وكثير من وزرائه وحاشيته والولاة والموظفين يشجعون طرق الصوفية بل كان السلطان نفسه يلوذ بالمتصوفة أيام الحروب (٣٨) وكانت والددة السلطان تتردد على المتصوفة وتترود من بركاتهم (٣٩) حتى كثرت الربط والتكايا في الاسناتة وحتى صار بعضها فخاً للاصطياد عند بعض الشيوخ (٤٠) الذين لا يحط من قدرهم حتى شرب الخمر (٤١) . وكان السلطان عبدالحميد الثاني (٤٢) قد عرف بتقريبه أصحاب الطرق الصوفية ومنهم محمد أبو الهدى الصبائي المتوفى سنة ١٣٢٧هـ ١٩٠٩م وكان هذا زعيم الطريقة الرفاعية وقد اشتهر بنفوذه وصلاته برجال الدين والشعراء (٤٣) وكان يحث بعضهم على التأليف في الطرق ولاسيما الطريقة الرفاعية (٤٤) .

أما الطرق المتعة آنذاك فأشهرها القادرية نسبة الى الشيخ عبدالقادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ ، والرفاعية نسبة الى السيد أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨هـ والنقشبندية نسبة الى الشيخ أحمد بهاء الدين النقشبندی البخاري المتوفى سنة ٧٩١هـ والبكتاشية نسبة الى الحاج محمد بكتاش المتوفى

(٣٧) في (الترياق الفاروقي) لعبد الباقي العمري اثر بارز للتصوف وفي (الطراز الانفس) للاخرس البغدادي بعض القصائد ومنها القصيدة التي يمدح بها الشيخ عبدالقادر الكيلاني في ص ٣٧ - ٣٩ وفيها شكوى حارة من فساد الحياة والحكم

(٣٨) التصوف في مصر للدكتور توفيق الطويل ص ٢٦

(٣٩) غرائب الاغتراب ص ١٦٢

(٤٠) المصدر السابق ص ١٥٧

(٤١) المصدر السابق ص ١٩١

(٤٢) انشئ في أيام هذا السلطان ست عشرة تكية راجع

(سالنامة البصرة) الدفعة ٢ سنة ١٣٠٩هـ

(٤٣) زار أبو الهدى بغداد سنة ١٢٨٣هـ وقد مدحه الاخرس راجع

(الطراز الانفس) ص ١٦٩ - ١٧١

(٤٤) راجع (الاطهرار الالهية) للسيد محمود شكرى الالوسى

ص ٤

سنة ٧٣٨ هـ • وإذا كانت هذه الطرق ذات أثر كبير في نفوس الاتراك فان لها في العراق أُنعا من المغمين والدرائش ومن التف حولهم^(٤٥) ، وقد شاعت النقشبندية الى جانب القادرية بين الاكراد ، وكان معظم أُنعا الطريقة الرفاعية من العرب المتحضرين ، أما البكتاشية فان لها تكايا في بغداد وكربلاء والنجف ولكنها لم تكن ذات أثر بارز بين شيعة العراق كما لم يكن للطرق الاخرى أى اهتمام عندهم وليس معنى هذا أن التشيع خلا من الدرايش والمتصوفين في غير العراق ، الا أن معظم شيعة العراق كغيرهم من سكان البوادي والارياف تغلب عليهم النزعة القبلية التي لم تؤثر فيها أعمال المتصوفة تأثيرا ملحوظا يضاف الى هذا أن انصراف الشيعة الى ما يقرب من ذلك بالنسبة لآل البيت قد شغلهم عن اتباع الطرق الصوفية ولاسما سكان المدن منهم^(٤٦) • وإذا استئنا القبائل العربية التي لم تسرب فيها هذه الطرق تسربا محسوسا فاننا نجد بعض سكان المدن قد بالغوا في الطرق واعتقدوا بمشايخها اعتقادا مسرفا وانقادوا لاوامرهم انقيادا مفرطا^(٤٧) ، وقد شجع

(٤٥) مما لاشك فيه أن للسياسة أثرا في اتباع هذه الطرق فان كثيرا من رجال الدين والوجهاء أرادوا بذلك أن يتقربوا الى السلطان والولاة (٤٦) كان اهتمام الشيعة بمواليد آل البيت ووفياتهم واضحا في اقامة محافل الافراح والاحزان مما يشبه حلقات الذكر عند المتصوفة وان ما نسب الى مشايخ الطرق من الخوارق والكرامات كان لدى الشيعة ما يشبهه من نسبة المعاجز والكرامات لآل البيت ورجال الدين أما الغلو المفرط بمؤسسى الطرق والمشايخ عند المتصوفة فقد كان لدى بعض فرق الشيعة ما يشبهه ولا سيما فرقة الشيخية وهم أتباع الشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائي وكان هذا قد درس في النجف وكربلاء ثم انتقل الى المدينة وتوفى فيها سنة ١٢٤٢ هـ ١٨٢٦ م ودفن بالبقيع وله عدة كتب دينية ومنها كتاب في الرد على الصوفية وأعمالها وقد رماه بعض علماء الشيعة بالافراط والغلو بالبيت

راجع (روضات الجنات) للسيد محمد باقر الخونسارى ص ٢٥ طبع طهران

(٤٧) جاء في (تذكرة الشقيق الجامعة لمعرفة الطريق) للشيخ عبدالقادر الكيلاني (الورقة ٢) من نسخة دار الكتب المصرية ما يلي
اعلم اخي ان شرط الصعبة لكل من زاد عليك رتبة
تبجيله حق وحفظ سره ثم قبول نهيه وأمره
وكن لديه خاضعا كالعبد ولا تعارض قوله بالرد

على اتناع هذه الطرق ما كان يديه بعض الولاة من اهتمام بها للتبرك بل للترلف واستخدام المشايخ لتحقيق ما آرب سياسية^(٤٨) ، وقد بلغ من تمسك المريدين أن المرء منهم لا يذكر اسمه الا مقرونا بالانتساب الى الطريقة التي اتبعها والمذهب الذي ارتضاه ، أما الكرامات والخوارق التي نسبت الى مشايخ الطرق والمؤسسين فانها كثيرة وقد بولغ فيها أشد المبالغة كالذى نسب الى الشيخ خالد بن أحمد الشهرزورى^(٤٩) رئيس الطريقة النقشبندية فى أول القرن التاسع عشر من شفاء المرضى وغيره^(٥٠) وكوضعه فى مصاف الانساء^(٥١) وكالذى نسب الى الشيخ عبدالقادر الكيلانى من احياء الموتى ورد الارواح وقلب الانثى ذكرا ونزول المائدة من السماء وتسليم الاسماك عليه عندما يذهب الى دجلة ومخاطبة الله اياه بالهام خاص^(٥٢) وإشارته على السلطان مراد فى عالم الرؤيا بأن يصنع المدافع لفتح بغداد سنة ١٦٣٨م^(٥٣) أما ألقابه فمنها الغوث الاعظم والكنز العرفانى والغوث الكيلانى والقطب الصمدانى^(٥٤) وغير ذلك .

وقد وقف بعض رجال الدين من هذه الطرق موقف المؤيد وأصدر حكمه على المناوئين لها والمنكرين عليها وعلى أصحابها ما يأتون به من أعمال

(٤٨) كان الوالى محمد نجيب يدعى مرة بأن قادرى الطريقة ومرة أخرى بانه نقشبندى وكان (على أشقر) أحد ولاة الموصل وهو من ممالك السلطان قد جاء الى بغداد مع الوالى على رضا سنة ١٢٤٧هـ واتصل بمشايخ الطرق طمعا بولاية بغداد فلما يئس منها عدل عن المتصوفة (راجع عن الاول العراق بين احتلالين ص ٨٣ ج ٧ والترياق الفاروقى ص ٢٤٦ وعن الثانى غرائب الاغتراب ص ١٥٨ - ١٥٩)

(٤٩) ولد سنة ١١٩٠هـ وتوفى فى دمشق سنة ١٢٤٢هـ ١٨٢٦م

(٥٠) المجد التالذ فى مناقب الشيخ خالد - لابراهيم فصيح الحيدرى ص ٢٤

(٥١) رحلة (ريج) ص ٩٨

(٥٢) راجع (تفريج الخاطر فى ترجمة الشيخ عبدالقادر) لمحمد صادق القادري الشهابى . وهو مترجم عن الفارسية ومطبوع فى مصر

(٥٣) مجلة (لغة العرب) ج ٨ ص ٣ سنة ١٩١٤

(٥٤) جريدة (الزوراء) العدد ٥٠٥ من السنة السادسة ١٢٩١هـ

وعد هذا الانكار عرضة لغضب الاله لانه يؤول الى انكار الكتاب والسنة^(٥٥) وحث بعضهم على حسن الظن بالسادة الصوفية وعدم الوقعة بهم لانها مهلكة^(٥٦) . على أن هذه الطرق - بالرغم من التأييد القوي الذي حظيت به من السلطان وأتباعه - لم تلق رواجا محسوسا بين القبائل العربية - كما قلنا - فقد استنكر بعضهم احترام شيخ الطريقة في بغداد والوقوف له في أحد المساجد^(٥٧) ، وفي بغداد أيضا كان بعض الناس يسخر من الصوفية ويستهزئ بحلقات الذكر^(٥٨) ، بل كان بعض الاكراد قد نسب الضلال الى الشيخ خالد النقشبندي وأراد قتله^(٥٩) ، وبعضهم رماء بالكفر والزندقه لانه لم يشف نجل (الباشا) كما ادعى^(٦٠) حتى اضطر أن يهرب الى دمشق ويبقى فيها حيث توفي .

التباعد

لعل الذي قدمته من وصف موجز لأهم المظاهر في المجتمع العراقي خلال القرن التاسع عشر أقرب الى الواقع في رسم الصورة الكاشفة عن خصائص السكان وأخلاقهم وعاداتهم ، ولعل هذه الصورة التي رسمتها لم تكن صورة مشرقة جملة فان أيسر ما يدركه المتأمل في حياة سكان العراق اختلاف العادات وتضارب الاهواء ، وكان من الطبيعي أن يكون هذا الاختلاف بين السكان في حياتهم وتفكيرهم وسلوكهم ما داموا مختلفي الاجناس واللغات والديانات والمذاهب وما دام كل فريق يتعصب لتقاليد وعاداته الموروثة ولعنصره ولقته ، واذا كان في بعض المدن اختلاط لطف بعض الشيء من طباع المتباعدين فانه لم يستطع أن يمزجهم مزجا كاملا بحيث

(٥٥) راجع المجد الثالث ص ٢٤

(٥٦) مقامات الالوسي ص ٥

(٥٧) عشائر العراق ص ٣٩٨ ج ١

(٥٨) المجد الثالث ص ٣٩

(٥٩) المصدر السابق ص ٤٠ - ٤١

(٦٠) رحلة (ريج) ص ٢٢٧

يجعل منهم عالما واحدا يخضع لعادات موحدة ويشعر بشعور واحد ، والفرق كبير جدا بين الجمع والمزج وبين الاختلاط والاندماج لذلك بقى سكان المدن فى القرن التاسع عشر خاضعين لتلك المؤثرات والعوامل التى باعدت ما بينهم وجعلت منهم أصحاب مدن مختلفة بل جعلت من أهل المدينة الواحدة أصحاب أطراف ومحلات يخاصم بعضها بعضا ويصطدم بعضها ببعض وكانت بغداد أوضح صورة لهذا اللون من السلوك ، فالسنة يعيشون فى محلاتهم الخاصة والشيعة كذلك واليهود والنصارى أيضا والأتراك والاكرد كل فى عالمه الخاص لا صلة ولا ترابط الا فى الاسواق وأماكن البيع والشراء • وقد يخفف الزواج بين السكان من حدة الخلاف ولكن هذا كان مفقودا بين المسلمين والمثل الاخرى ونادرا جدا بين الشيعة والسنة ، وهكذا عاشت بغداد وأهلها فى تعاود وتدابير ان لم يكن فى الاعمال وفى قرارة النفوس ، ومثل بغداد فى هذا التباعد بقية المدن الاخرى فان فساد الحكم وخشونة الحياة وصعوبة المواصلات كل ذلك قد باعد ما بينها وجعل كل مدينة تعيش فى عزلة أو شبه عزلة • وكانت المدن الشيعية المقدسة غير خالية هى الاخرى من انعدام التجانس والتفاعل وتجاوب الطبائع فقد كانت النجف نفسها مسرحا لحوادث مزعجة بين السكان وكانت ثورات المحلات بعضها على بعض وقتل الابرياء شيئا مألوفاً^(٦١) على الرغم من كثرة رجال الدين فيها وسيطرتهم الروحية على الشيعة فى العراق وغير العراق •

ولم تكن ظاهرة التعاود من صفات المدن وحدها فقد كانت بارزة بين القبائل العربية والكردية وبين القبائل وسكان المدن بل بين البدو وسكان الارياض فالاكرد المدينون يعتقدون ببلادة القرويين منهم^(٦٢) والعرب يرون الاكرد أقل شأنا ، وأهل الريف والبادية يكرهون سكان المدن ، وسكان المدن يرون أبناء القبائل أناسا متوحشين ، أما البدوى فانه يرى نفسه أسمى

(٦١) ان حوادث الزكرت والشموت قد شغلت مدينة النجف طيلة القرن التاسع عشر

(٦٢) رحلة (ريج) ص ٦٣

من الريفي ، وكان بعض أصحاب الحرف محترقا لدى عامة المجتمع • ولم
يعدم التاعد بين طوائف النصارى أيضا ، فقد كان لكل فريق كنيسة ومعبد
خاص •

أما الخصام بين السكان جمعا وموظفى الدولة من كبيرهم الى صغيرهم
فدليله تلك الثورات التى مر ذكرها فى الفصل الاول ، ولم تكن قصائد
مديح التى قيلت فيهم لتقيم برهانا على تقارب سليم بين السكان ورجال
حكم وانما هى خطرات الشعراء التى لا تنبعث الا عن رغبة أو رهبة فى
معظم الاحيان •

الفصل الثالث

الحالة العلمية والادبية

قبل البحث :

فى حوض الرافدين تاريخ قديم وأمم عريقة كان لها شأن كبير فى الحضارة والتفكير وفى العلم والادب ، وقبل آلاف السنين كانت الحياة تسير فى دأب واستمرار لتعمر الارض الخضراء وتغذى الجسم والعقل ، وقبل آلاف السنين كانت الارض الخضراء تحيط بالبلور المذاب وتسمع الى حفيف الفصون وأغاريد الطيور وقصائد الشعراء •

ونشط الجسم للعمل فكانت الارض الخضراء تفىء الملايين من أبنائها • ونشط العقل فكانت الشرائع تسير حاة اولئك وكانت بابل مصدر تلك الشرائع ، ونشط الفكر ونبض القلب فكنت الاناشد والملاحم وغنت القصائد بين أيدي الآلهة على مزامير الارض الخضراء • وجاء الاسكندر ليرى مهد الاعاجيب ، وعبرت جيوش الفرس لتلتقى معه فى سهول الشمال وبين جباله الشامخة • وفتن الشرق والغرب بهذه الارض ثم انطوت العصور ودرجت الامم واختفت المعابد والهياكل والآلهة والنقوش والاساطير والقصائد والملاحم وتلاقت فوقها الرمال وبقايا الجدر والصخور •

ولكن الارض الخضراء بقى تحتفظ بكثير من خصائصها ومقوماتها وظل الفرات ودجلة يتهامسان متعاقبين تحت أفاء النخيل والفصون ، وورث

الارض أبناء الصحراء الذين لوحت وجوههم الشمس وشدت أجسامهم
لوافح الهجير فأسسوا وبنوا وخططوا وهندسوا وزرعوا وأفادوا وكان الفرات
يداعب أقدام العرب فى الحيرة والانبار ويستمتع الى قصائد النابغة وعمرو
ابن كلثوم والحارث الشكري •

ثم جاءت القافلة الثانية تحمل علم الاسلام لتقم فى الارض الخضراء
حضارة جديدة فى العلم والعمل وأسست الكوفة والبصرة وسار العلم
والعمل فى تلك المعاهد والضاف جنبا الى جنب ثم أسست مدينة واسط
بين الكوفة والبصرة لتسهم بنصيب من العلم والعمل ثم قامت بغداد على
دجلة فشغلت التاريخ وماجت بالعقول المبدعة المنشئة ونشطت المدرسة
الاسلامية العربية تعطى وتأخذ وتمد أشعتها فى مسافات بعيدة من دنيا
المسلمين ودونت الكتب فى الدين والعقائد والمناظرات والفلسفة والادب
والتاريخ واللغة وتعددت دواوين الشعراء ومجاميع النثر وألف للجسم ما
ألف للعقول والقلوب وبقي كل شيء من ذلك ميراثا للأجيال يتحدث به
الغادى والرائح والمقيم والراحل والعربى والاعمى

وانطوى عصر بغداد بين الفتن والحروب والخصام على الدين والملك
وتشتت العلماء والشعراء وهاجر الكثير منهم الى حث يكون الامن
والاستقرار ، وتحولت الارض الخضراء الى رمال وسهول خالية وجفت
الانهار والجداول وانقطعت صلة الكثير منها بالرافدين الكبيرين بعد أن
ردمت الضفاف وتلاقت الرمال والحواشى وبقي الفرات ودجلة وحدهما
يضيقان بالتيار فقذفان به على الرمال والسهول ليغرق ويدمر ويشرد ويهدم
حتى تحولت المدن الى قرى والقرى الى أطلال ومعالم !!

وتبع ذلك كله ما كان لابد منه نقص فى الاموال والانفس والثمرات
وخوف واضطراب وحكومة تأتى واخرى تذهب ، وجيوش تعمر وتزحف
واخرى تنكسر وتهزم ، وحروب تشغل الناس والتاريخ ، واخرى ينتظرها
الناس والتاريخ ، وجنس يصارع جنسا ولسان لا يعرف لسانا ، وبقايا
رواسب تختفى تحت الاحجار والاطلال كأنها بذور قديمة سقطت من قافلة

عابرة تنتظر الطل فتخضر بلا رعاية وتنمو بلا ثمر •
واسسلم العراق لعصر مظلم لا يرى فيه من خلال الكوى الصيقة
غير شعاع ضئيل كأنه بصيص يتراقص على أمواج البحر من بعيد فيلوح
للسفينة المضطربة حيناً ويختفي أحياناً آخر •

ومنذ عصر المغول حتى بداية القرن التاسع عشر كان العراق عير
العراق الاسلامي أو العاسي وكان العلم فيه ترديدا للصدى وترجيحا للنغم
ولكن في حناجر ضيقة وعلى أوتار رخوة تختلط فيها الاصوات وتطلق من
غير انسجام ولا ايقاع •

وبقت بغداد معبر القوافل وقنطرة المسافرين تعتمد في مدارسها على
الحوامع المتأكلة وفي دروسها على السطوح والشرفات لا الاسس والدعائم
وفي علومها على ما كان يليقه الملقنون لا الشراح والمفكرون • وفي شعرها
ونثرها على الخلط من سمين معاد وهزيل مستحدث • وتلاقت اللغات
الاربع من تركية خالية الا من التراكيب الثقيلة وفارسية لا يفهمها الا
القليل وكردية تدمدم بين الجبال وعربية تصارع من غير قوة الا ما كان لها
من قداسة القرآن وشرف الحديث وجمال الشعر •

ونست الموصل - أو كادت تنسى - ما لها من تراث عريق فشغلتها
الحياة والسياسة المضطربة عن الانتاج والابداع وفتحت أبوابها للقوافل من
الشرق والغرب عابرة أو مقيمة • ومثلها مدينة البصرة فقد أقفرت هذه من
أناشد المريد وروائع الجاحظ وفلسفة اخوان الصفا •

ولكن الخيط الدقيق بقي متماسكا بين العواصف والغيوم فلم تخل
هذه كلها من صلة تربط الحاضر بالماضي وتدافع عن لغة القرآن والحديث
وكان لابد أن تبقى الصلة ما دام الغزاة الفاتحون يدعون الاسلام ويحكمون
باسمه فحافظ الفقه على طريقته وبقي التفسير على سجيته ولكنها طريقة
التقليد وسجية الثقل ، واندثرت واسط بعد أن شغلت جانبا من جوانب العلم
حتى العصور المتأخرة فطويت بين الرمال والصخور •

وبقي الخيط الدقيق يربط الحاضر بالماضي في أساليب الشعراء المتكلفين في

بغداد والموصل والبصرة ، ولكن الثقل قد وجد مستقرا في مدينة الحلة^(١) على الفرات ففتحت هذه المدينة أبوابها لآبناء العرب يتدارسون العلم واللغة والادب وتخرج فيها مئات من العلماء وينبع فيها عشرات من الشعراء لم يكن صفى الدين الحلي بأكبر منهم شأنًا ، واستمرت هذه المدينة متمسكة بطابع العلم والشعر لم تفتر ولم تقصر طوال القرون المظلمة •

وكانت مدينة النجف الى جانبها على مسافة قليلة من ضفة الفرات الغربية موطن العلماء ومثابة الدارسين من مختلف الاقطار وقد بدأت نهضتها العلمية في منتصف القرن الخامس للهجرة واستمرت في هذه السبيل طوال الفترة المظلمة ، وكان لمدينة كربلاء نصيب من العلم والادب ولكنه جاء متأخرا كما كان ممزوجا باللون الفارسي الوافد من ايران ، وكان لأربيل وشهرزور في الشمال حظ من دراسة الفقه وغيره من العلوم الاسلامية •

نصيب الدولة من العلم والادب :

لست تلك المقدمة الوجيزة الا مفتحا لدراسة الحالة العلمية خلال القرن التاسع عشر ودراسة هذه الناحية في العراق تقتضى الاشارة الى مقدار اهتمام الدولة العثمانية نفسها بالعلوم والثقافات الاسلامية على الاخص ، والاشارة هنا لا تستلزم التفصيل أو تناول الجزئيات بل يكفي منها بالمظهر العام •

أسست الدولة العثمانية سلطانها باسم الاسلام وتوسعت فتوحاتها بصيغة الخلافة الاسلامية وكان عليها أن تنظر الى مقومات الناحية الدينية من العلوم الاسلامية وأن تعطى هذه الناحية ما تستحق من العناية غير أن انشغالها بالحروب الكثيرة وتمعصها للغة التركية حال دون الوصول الى أية غاية مطلوبة من العلم فقد كان بعد الاتراك عن اللغة العربية وعدم فهمها حاجزا من الحواجز التي حالت بينهم وبين الاطلاع على أسرارها ، وما فهم

(١) أسس مدينة الحلة الامير سيف الدولة صدقة بن منصور الاسدي سنة ٤٩٥هـ

اللغة الا مفتاح لفهم علومها وآدابها ، لذلك لم تكن الجهود العلمية التي بذلت الا جهودا سطحية وقد انحطت فيما بعد ذلك أشد الانحطاط وبقيت المدارس القديمة تضم بين جدرانها أشباه الاميين ، ولم تكن المدارس الدينية فى الاناضول والاساتنة والروم أبلى الا صورة من صور انحطاط فلم تخرج الا تلامذ متدينين يتولون الوظائف الدينية أما العالم الكبير منهم فانه لا يحسن غير النقل والاختصار والجمع مع ركافة أعجمية بادية^(٢) ، وكانت الوظائف الدينية لا توجه الا بطريقة الارث من الاب الى الابن ولو لم يكن له نصب من العلم بل كانت توجه الى الصغار من أبناء المتوفين رعاية الى مكانة آبائهم حتى صارت هذه الوظائف وقفا على بعض الأسر لا تتعدها^(٣) الى غيرها ، وقد سيطر الجهل والتعصب على من يدعون العلم فى الاساتنة حتى صاروا يفضون كل من يرد على بلدهم من الافاضل وان كان نبيا ... وكانت رؤية العالم العربى فى أعينهم الموت الاحمر^(٤) . أما الطلبة فقد كانوا مقصرين بل كان الدرس يختم والكثير منهم نائم ، وكان معظم المدرسين فى غاية الاسكبار والاناسة ومثلهم الوعاظ الذين لا يقابلون بغير الضحك من المستمعين^(٥) .

وبقت المدارس الدينية على حالتها من الانحطاط وعدم النظام وقد شعرت الدولة فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بضرورة الاخذ بالنظم الحديثة غير انها لم تفكر باصلاح المعاهد القديمة بل تركتها وشأنها وأنشأت معاهد جديدة مستقلة ولكن انشاء هذه المعاهد كان بدافع عملى لا منطقى اذ بدأت بانشاء المدارس العسكرية من عالة ثم اعدادية فرشدية وكانت المدارس العالية فى العاصمة وحدها أما الاعدادية والرشدية فلما ركز الولايات نصب منها ثم انشئت بعد ذلك المدارس المدنة للهندسة

(٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٣١١ من الجزء الاول

(٣) المصدر السابق ص ١٥ و ١٦ من الجزء الثانى

(٤) غرائب الاغتراب ص ١٦٩

(٥) راجع المصدر السابق ص ١٧٣

والطب والصناعة والزراعة والتعليم والحقوق والادارة والسياسة والقضاء والتجارة^(٦) وكان التعليم فيها كلها باللغة التركية ثم الفرنسية •

أما الادب التركي فانه كحضارة الترك مستمد من الفرس فأوزان الشعر مأخوذة من العروض الفارسة ومواضعه أكثرها صوفي ديني ، والنثر كان متكلفا ضعيف النسيج^(٧) ولم يتطور الادب التركي الا في القرن التاسع عشر بعد أن اتصل بالآداب الاوروبية وتأثر بها عن طريق الدراسة والترجمة ونبع فيه شعراء وكتاب^(٨) غير أن هؤلاء - على الرغم من اتصالهم بالثقافات الاجنبية - كانوا اذا عالجوا الموضوعات السياسية أو الاجتماعية فالتلميح والاشارة لا بالصراحة والجرأة وكانوا لا يعبرون عن الدولة الا بالزهرة الذابلة والغادة المطروحة على سرير الموت^(٩) وان كان منهم من استطاع أن ينتقد بعض الاعمال التي لا صلة لها بالسياسة العليا •

الحركة العلمية في العراق - المدارس العثمانية :

سار التعليم في العراق ابان القرن التاسع عشر في خطين موازيين لا يلتقيان عند نقطة واحدة أولهما الخط الذي رسمه الاتراك لتعليم بعض العراقيين وثانيهما الخط الموروث الذي حافظ عليه العراقيون أنفسهم بقدر

(٦) راجع - حولية الثقافة العربية - ص ٤ - ٧

(٧) راجع (تاريخ الاتراك العثمانيين - ص ٢٨ و ٢٩ ج ٣

(٨) منهم عاكف ورشيد وشناسي منشي جريدة (تصوير أفكار)

وقد توفي سنة ١٨٧١م ومنهم محمد نامق كمال المتوفى سنة ١٣٠٦هـ وكان شاعرا وكاتبا والروائي المشهور حامد عبدالحق والشاعر المعروف توفيق فكرة والكتاب أحمد مدحة الذي صحب الوالي (مدحة) وحرر في جريدة (الزوراء) البغدادية وكان من الموجهين الى الثقافة الفرنسية وقد حرر بعد عودته الى الاستانة في جريدة (بصيرت) وانتقد الوالي مدحة وسياسة التعليم في العراق (راجع عنه (الزوراء) العدد ٢٢١ س ٣ و (دائرة المعارف الاسلامية) ص ٤٩٨ - ٤٩٩ من المجلد الاول ومنهم الوزير أحمد جودة المتوفى سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٥م وكان مؤرخا معروفا وشاعرا بالفارسية والتركية والعربية (مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ص ١٦٨ - ١٧١ ج ٢ ط ٣) ومن المتأخرين الدكتور رضا توفيق الفيلسوف

(٩) تاريخ الاتراك العثمانيين - ص ٣٧ ج ٣

ما يستطيعون من المحافظة ، وما رسمته الدولة كان معولاً أراد هدم اللغة العربية وتراثها فلم يأت بأكثر من تخريج موظفين جهلة ، وقد أردت أن أبدأ بعمل الدولة فأصفه بإيجاز لانه شيء تافه لا أثر له في تكوين عقلية علمية أو خلق احساس أدبي ولانه جزء من عمل الدولة في عاصمتها وفي الولايات التابعة لها •

عندما انتهى عصر الممالك الذين أرادوا الاستقلال بالحكم في العراق وجاء الولاة الاتراك يتعاقبون من قبل السلطان تغير الاتجاه وتحولت السياسة العثمانية الى جعل العراق تركيا بلغته وتفكيره وقطع الصلة بينه وبين ماضيه العربي فتركوا المدارس القديمة تسير كما كانت بل أهملوا منها ما كان ذا أثر كبير في العصور السالفة^(١٠) ، وأخذوا ينشئون مدارس تركية في بغداد وغيرها ولكن هذا العمل لم يبدأ الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد أن أسست المدارس الحديثة في الاسنانة وبعض الولايات الاخرى فقد أنشئ (مكتب رشدي)^(١١) في بغداد في أيام الوالي محمد نامق في ولايته الثانية (١٢٧٧-١٢٨٤هـ ١٨٦١-١٨٦٨م)^(١٢) ثم أسست ثانوية للنين عام ١٨٧٠م في عهد الوالي مدحة وتبعها مدرسة للصناعة ، وفي عام ١٨٩٨م أنشئت ابتدائية للنات وتبعها ابتدائيات اخرى في الالوية • وفي الموصل أسس مكتب رشدي سنة ١٨٦١م وبقي وحده حتى سنة ١٨٩٠م^(١٣) • وكان الاهتمام بالنواحي العسكرية في مقدمة العمل المدرسي فقد أنشأ مدحة في بغداد ثانوية عسكرية سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١-١٨٧٢م ، ومما يجب ذكره أن الحكومة المحلية أخذت تحت في أواخر القرن التاسع عشر على التعلم وتدعو السكان للتبرع لانشاء مدارس في الاماكن التي يسكنونها^(١٤) غير أن هذه

(١٠) من ذلك اهمالهم المدرسة المستنصرية وجعلها مخزناً للملابس العسكرية ثم دائرة للمكوس

(١١) المكتب الرشدي يعنى المدرسة الابتدائية

(١٢) راجع (الزوراء) العدد ٥٨٥ من السنة السابعة

(١٣) تاريخ الموصل ص ٣٢٢ ج ١

(١٤) الزوراء - العدد ٤٣١ من السنة الخامسة والعدد ٦٠٣ من السنة السابعة

الدعوة لم تجد محالا واسعا ما دام معظم السكان فقراء وما دام التعليم يجرى بلغة غير لغتهم • أما الطلاب الذين كانوا يرتادون مدارس الحكومة فان معظمهم من أبناء الموظفين الاتراك لان القليل من السكان من كان يرغب فى التعلم ولان المواد التى كانت تدرس انما تدرس باللغة التركية حتى النحو والصرف والمنطق والجغرافيا والحساب ، وكان التدريس منحطا والنظام أجوف والمدارس غير كافة والمعلمون لست لديهم ثقافة صحيحة^(١٥) وكانت المواد غير مفهومة بل كان المديرون والمعلمون جهلة سيئى الاخلاق ، وكان الطلاب يتخرجون ولا يعرفون الكتابة حتى بالسير من اللغة العربية^(١٦) وقد بلغ الشأن بأحد كتاب الاتراك أنفسهم أن يثور على التعليم الحديث فى العراق وأن يصف المعلمين بأنهم جهلة لا يساوون حتى كتاب العرائض وكان يفضل مدارس اليهود ويحث المسلمين على ادخال أبنائهم فيها^(١٧) • وبالرغم من أن الدولة كانت تعلن أن تربية الاطفال ونشر المعارف المهمة (ملتزمة) لدى (الجنب العالى) وكل نوع من السكان والاتباع سواء لدى السلطان^(١٨) !! أقول بالرغم من كل ذلك كانت المدارس لا تفتح أبوابها لكل من يرغب فقد كان الشيعة وهم أكثرية السكان لا يلقون تشجيعا فى تعليم أبنائهم^(١٩) •

وقد اهتم اليهود ازاء هذا التعليم المنحط بتأسيس مدارس لأبنائهم وبناتهم فأسسوا أول مدرسة يهودية فى بغداد عام ١٨٦٥م بإشراف الحلف العالمى اليهودى^(٢٠) ثم أسسوا مدارس الاتحاد (اللانس) واستقدموا لها

(١٥) العراق - دراسة فى تطوره السياسى - ص ٨٨ الترجمة العربية

(١٦) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٣٠٢

(١٧) هو الكاتب (أحمد مدحة) من مقال له فى (بصيرت)

التركية راجع عنه الزوراء العدد ٢٢١ من السنة الثالثة

(١٨) منقول ببعض التصرف من الزوراء العدد ١٩٢ من السنة الثالثة

١٢٨٨هـ

(١٩) العراق - دراسة فى تطوره السياسى - ص ٨٨

(٢٠) Baghdad the city of peace. p. 242.

أساتذة من أوروبا^(٢١) وجمعوا المال المطلوب لتمشية هذه المدارس واهتموا بتعليم الفرنسية والفارسية والعربية والتركية^(٢٢) الى جانب المواد الاخرى . وكان المسيحيون مثلهم في العناية بأبنائهم من لدن المشرين الامريكان والفرنسيين والانكليز وكانت مدارسهم بالموصل^(٢٣) وبغداد عامرة بتدريس العلوم واللغات الى جانب اللاهوت والديانة المسيحية . أما المسلمون فقد بقوا في جهلهم وانحطاط مداركهم ، وكانت القائل أشد السكان انحطاطا وجهلا حتى بمبادئ القراءة والكتابة .

وفي سنة ١٩٠٠م كانت نسبة المتعلمين تتراوح بين الخمسة والعشرة بالمئة^(٢٤) ، واذا قلنا ما تقوله المصادر الحكومية آنذاك فإمكاننا أن نقول ان ما يقرب من ثلثي الاهالي كانوا لا يعرفون قراءة ولا كتابة^(٢٥) لذلك كانت نسبة المتعلمين في غير المسلمين أكثر منها في المسلمين^(٢٦) وقد أدى هذا الى رسوخ اللهجة الدارجة بين السكان^(٢٧) واتخاذها لغة التخاطب والحديث بل لغة بعض المؤرخين وكثير من الشعراء وكانت في بغداد وبعض المدن ممزوجة بكلمات أجنبية كالتركية والفارسية بل كانت اللغة التركية

(٢١) الزوراء - العدد ٢٢١ من السنة الثالثة

(٢٢) المصدر السابق - العدد ٥٨٥ من السنة السابعة

(٢٣) ان المرسلين الدومنيكين قدموا الى الموصل سنة ١٧٥٠م

١١٦٤هـ باجازه من البابا مندكتس الرابع عشر واسسوا مطبعة سنة ١٨٦٠م ١٢٧٦ = ١٢٦٧هـ لطبع الكتب المدرسية بالعربية والكلدانية والفرنسية وفتحوا مدارسهم لمختلف الطوائف وكان للراهبات المعروفات بأخوات المحبة أثر في تعليم المرأة بالموصل اذ فتحن مدارس للانات سنة ١٨٧٣م وكن يقبلن المسلمات كالمسيحيات راجع - تأريخ الموصل ص ٣٢٣ - ٣٢٥ ج ١ وراجع أيضا عن الطباعة في الموصل مجلة (لغة العرب) ج ٣ و ٤ من السنة الرابعة و ج ٩ من السنة الخامسة

(٢٤) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٣٠٢

(٢٥) الزوراء - العدد ٥٦٩ من السنة السابعة ١٢٩٢هـ

(٢٦) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٣٠٢

(٢٧) كانت عامية العراق أقدم من هذا العصر وهي تختلف باختلاف

المناطق غير أن السكان يفهم بعضهم بعضا فيها وان اختلفت في بعض الكلمات والاصوات

فى بغداد أكثر ذبوعا من العربية العامة وان كان كل منهما رديئاً (٢٨) أما المصطلحات المهنة فان أكثرها خلط من التركية والفارسية وكان سكان المدن أكثر من غيرهم تقسلاً لهذا الدخيل بحكم الاختلاط والاتصال بالسيادة العثمانية •

المدارس القديمة

اذا كان ثمة فضل على اللغة العربية فى بقائها وسيلة من وسائل التألف والثر والتشعر فى العراق فانما هو للمدارس القديمة التى بقيت تصارع الجهل والعجمة من كل جهة ، والبحث فى هذه المدارس من كل نواحيها أمر ليس بالسهل المستطاع لأنها كانت موزعة فى الموصل وبغداد والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية والصرة وسامراء وكانت فى مناهجها غير المنظمة مختلفة باختلاف الحاجة إليها وباختلاف البيئات والمذاهب ومثل هذا العمل يحتاج الى دراسة موضوعة ليس هذا مكانها غير أن عرض أهم الجوانب فى هذه المدارس شئ لا بد منه لبيان القم العلمية والادبية التى تتصل بالبحث •

تبدأ المدرسة القديمة بتعلم القرآن وأكثر ما يكون هذا لدى الكتائب ثم تعلم الخط ولو بأبسط أشكاله ، واذا كان تعلم القرآن موجوداً فى القرى والارياف ولو بقلّة وندرة فان الدراسات التى تله تكاد تكون محصورة فى المدن وفى طبقات خاصة من سكان المدن كالاسر الدينية وبعض التجار ومن يفد الى المدن من القرى والارياف أو من خارج العراق بغية الافادة من العلوم الدينية ، وكانت المدارس القديمة فى مناهجها وطرق التدريس فيها لا تعدو تلك التى أنشئت قديماً فى العصور السابقة • وكانت المانى ليست الا ما بقى من القرون الماضية أو الذى استحدث فى القرن التاسع عشر من قل الموسرين وذوى الر الى جانب المساجد التى كانت ملتقى كثير من الطلاب ، وكانت هذه المدارس والمساجد التى شهدت حلقات الدرس منتشرة

في بغداد والموصل والتجف والحلة وكر بلاء والكاظمية وسامراء والبصرة ولكنها كانت تختلف قوة وضعفا فهي في بغداد والموصل والتجف والحلة أقوى منها في بقية المدن وكان الطلاب يصبحون وقد يمسون في هذه المدارس والمساجد لستمعوا الى ما يناسب عقولهم ومداركهم ، وقد تضم المدرسة والمسجد أكثر من حلقة واحدة يرأسها استاذ يلقي ويفسر ويشرح ويستمع الى استنضاح أو مناقشة •

وكان الطالب يبدأ بدراسة النحو والصرف ثم المنطق فالاصول فالفقه لذلك كان يتلقى هذه العلوم على أستاذة مختلفين في الغالب ، وقد يتصدى الاستاذ الواحد لتدريس هذه العلوم ويحضر لديه طلاب مختلفون في أوقات مختلفة • وكان في المدن التسعة ما يسمى بالبحث الخارجى في الاصول والفقه وهو أشبه شيء بمحاضرة يلقيها أحد الاساتذة الكبار أو المجتهدين على حلقة كبيرة من طلابه فشرح مادة أو أكثر ويستمع الى نقاش الطلاب معه فيؤيد أو يفند ، وهذا البحث لا يحضره الا من فرغ من دراسة كثير من الكتب في النحو والمنطق والاصول والفقه وصار أهلا لمثل هذه البحوث الخارجية • وقد يكون طالب البحث الخارجى استاذاً لمن دونه وهكذا • وكانت أمكنة الدرس والبحاث لس فيها استعداد من كتب أو أفرشة سوى ما تحويه المساجد من الحصر وما يشبهها • أما المطالعة والتحضير فانهما ضروريان للطلاب التابه قبل الدرس وبعده فلا يحضر الا أن يكون قد اسوعب الدرس السابق وأعد العدة للدرس الجديد • وكانت حياة الطلاب - الا القليل - حاة قاسية خشنة وكان معظمهم يقم في حجر أعدت لهذا الشأن في المدارس القديمة أو التي استحدثت أما وسائل الراحة فهي مفقودة لدى الكثير منهم ، ولم تكن مصادر العيش غير دراهم من وقف أو زكاة أو ما يرسله أهل الطالب اذا كان وافداً من مكان بعيد وكان أهله قادرين على اعاقته ، أو ما يوزعه ذوو السار ، وقد يستعين الطالب أو العالم الشعبي بعشيرته أو فريته فذهب في انوس - اذا كان من أهل القرى والارياف - ثم يعود الى الدراسة بعد أن يزود بشيء من مال الزكاة قد

لا يكفى حاجته ، وقد يجد الطالب فى عشه مشقة تعرضه للاستعطاف والاستجداء •

مراجع الطالب :

لا يشك أحد فى أن أهم مصادر الدراسة والثقافة وجود الكتب ميسرة سهلة التناول لمن يشاء ، وفى الحق أن العراق كان غير فقير من هذه الناحية - وإن كانت حاجته الى الكتب تزيد عما فيه منها - فقد كانت مساجد بغداد ومدارسها الشهيرة غير خالية من عشرات المخطوطات النافعة وكانت فى النجف مكتبة ثمينة فيها بضعة آلاف من المخطوطات وهى من أوقاف الضريح العلوى ولم تخل كربلاء والحلة والكاظمين والنصرة من أنواع المخطوطات كما كان فى الموصل مثل ذلك وكان الكثيرون من رجال الدين فى المدن التى أشرنا اليها معنيين بجمع الكتب ولكن هذه كلها كانت غير ميسرة لطالب العلم فقد كان يحال بينه وبينها فى الاغلب ولا يسمح له أن يستعير وقد يتعذر عليه نسخ ما يحتاج اليه واذا استطاع ذلك فقد يخطئ فى الاستنساخ وقد يضطر الى مشاركة رفيقه فى كتابه • أما الوراقون والنساخون فقد كانوا قلة نادرة ولم تكن ثمة أسواق أو أماكن عامرة يرجع اليها طالب العلم فشترى منها ما يحتاج واذا وجدت هذه الأسواق والاماكن فليس للطالب قدرة على استنساخ أو شراء • أما الكتب المطبوعة فانها لم تعرف الا فى أواخر القرن التاسع عشر وكان بعض هذه الكتب يؤتى به من الاستانة ومصر والشام وايران والهند وهذه أيضا كانت قليلة لا يستطيع اقتناءها الا ذوو اليسار من رجال الدين وأمثالهم • وعلى الرغم من وجود الطباعة فى العراق منذ أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر^(٢٩) لم تكن ثمة طلائع تبشر بحركة طبع ونشر يستفد منها العراق فقد كانت مطبعة الدومنيكيين فى الموصل لا تعدو ما يفيد المسيحيين من الكتب ، وكانت مطبعة الحجر فى كربلاء

(٢٩) انشئت المطابع فى الموصل وكربلاء سنة ١٨٥٦م وفى بغداد على أشهر المصادر سنة ١٨٦٩م

لا تسطيع أن تنهض بأى عبء من أعباء النشر ، أما مطبعة الحكومة فى بغداد فانها كانت مشغولة بطبع الجريدة الرسمية • وفى مثل هذه الظروف القاسية كانت الدراسة تشق طريقها وتلمس أسباب القاء والانتشار وتذلل المصاعب بالقليل من الزاد والكتب وتعتمد - فيما تعتمد عليه - على الذكاء الموروث والقبليات النشطة •

اختلاف المناهج وتنوع الدراسات :

شاهد القرن التاسع عشر فى العراق مدرستين هما امتداد للصور السالفة وأعنى بهاتين المدرستين مدرسة الشيعة الامامية ومدرسة السنة وكانت قاعدة الاولى مدينة النجف وفروعها القوية فى الحلة وكربلاء والكاظمية وسامراء ، وصدى غير قليل فى بغداد والبصرة أما الثانية فقد كانت قاعدتها بغداد ولعلها فى الموصل لا تقل شأنًا عما كان لها فى بغداد ، وفى ظل هاتين المدرستين حافظت العلوم العربية والدينية على ما بقى لها من تراث قديم على الرغم من وقوعها بين تيارات أجنسة تحذبها ذات السمين وذات الشمال • وكان اتفاق المدرستين فى بعض المناهج يقابله اختلافهما فى بعض المناهج الاخرى فقد كان الاتفاق فى النحو والصرف والمنطق والبيان وما يتصل باللغة والادب ، وكان الاختلاف فى الفقه والتفسير والحديث والكلام وما يتصل بالعلوم الدينية فالسنة لا يعولون فى النواحي الدينية على غير ما أثر عن طرقهم ، والشعة لا يأخذون بغير ما صح عن آل البيت عن طرقهم أيضا • واستمرت هاتان المدرستان فى طريق التقدم والنشاط وقد كانت بداية القرن التاسع عشر بداية كريمة استطاعت فيها الخطا أن تتسع وقد صادف هذا التقدم رعاية من بعض الولاة فى بغداد وعناية من الولاة الجليلين فى الموصل وتشجيعا من أغنياء الشعة ورؤسائهم فى العراق وايران والهند لمدارس النجف وكربلاء والكاظمين وبقيت المدرسة السنية فى بغداد والموصل بعد نهاية الممالك والجليلين مستمرة على سيرها العلمى معتمدة على الاوقاف ما قدم منها وما استجد ، واستمرت المدرسة الشيعية فى سيرها العلمى معتمدة على الخيرات والحقوق الشرعية التى ترسل الى المجتهدين

من داخل العراق وخارجه ، ولم تكن الاوقاف هناك ولا الخيرات والهبات
والحقوق هنا لتسد عوز الطلاب فقد كان أكثرهم يعاني مرارة العيش وعسر
المورد وكان بعضهم قد لا يجد قوت يومه بل كان بعض رجال الدين الكبار
في بغداد معرضا للفاقة الشديدة عندما يغضب عليه الوالى فيسلب منه الاوقاف
ووظيفة التدريس أو الخطابة • ومثل هذا قلما يحدث للمجتهد الشيعي لانه
غير خاضع لنصب أو عزل من قل أية سلطة • ومع كل هذا كانت الدراسة
نشطة وكان الافعال عليها يزداد سنة بعد اخرى وكانت النجف وغيرها من
المدن الشيعية المقدسة مثابة لمئات الوافدين من داخل العراق وخارجه وكان
هؤلاء يفتدون للدراسة حتى اذا تزودوا منها عادوا الى مواطنهم لنشر التعاليم
الدينية وقد بقي بعضهم لينال درجة الاجتهاد • غير أن عدم التنظيم في
المنهج وعدم الرقابة والامتحان في الدروس الى جانب الفقر الذى كان
يتعرض له كثير من الطلاب كان كل ذلك يحول دون مواصلة الدراسة
لاغلب المنتظمين في هذا السلك فقد كان هؤلاء يقف بهم التحصيل غدد
المادى القليلة وكان بعضهم يصل الى درجة لا بأس بها من العلوم الدينية
فعود الى المدينة أو القرية التى جاء منها ليقوم بنشر الدين وأحكامه وقليل
من هؤلاء من أتحت له الفرص لمواصلة الدراسة فى كل أنواع العلوم
والفنون المعروفة ، وقليل منهم من وصل الى درجة تهىء له قابلية التأليف
والابتكار أو اضافة شىء جديد الى القديم المعروف •

ولقد كان التخصص مفقودا أو فى حكم المفقود الا فى الفقه والاصول
فان العلوم اللسانية لم تكن فى الحقيقة الا وسائل يصل بها طالب العلم - أو
يحاول الوصول - الى الغاية التى درس من أجلها وهى الفقه على الأكثر ،
لذلك كان الفقهاء أكثر من اللغويين والنحويين ولذلك كثر المجتهدون فى
المدن الشيعية والفقهاء فى بغداد والموصل وقل المنصرفون الى الدراسات
العربية فى اللغة والنحو والصرف والبيان والادب الا ما كان جمعا أو تعليقا
أو شرحا مسطحا أو تألفا ليس فيه من الجدة والطرافة ما يغنى عن
المصادر القديمة •

أما التاريخ الاسلامى القديم فقد كان الاطلاع عليه فى حدود سيرة
 الا ما كان من تاريخ النبى وغزواته وتاريخ آل البيت ، وقد اهتم بعض علماء
 بغداد والاكراذ^(٣٠) بالنواحي الصوفية فكتبوا عن مشايخ الطرق وأربابها
 وأغرقوا فى تراجمهم وكراماتهم • ولكن هذا كله لا يعنى أن العراق فى
 القرن التاسع عشر لم يأت بجديد فقد كان حافلا بعشرات من الفضلاء
 وكانت شهرته بعلمه وأدبه - ولاسيما الفقه والشعر - أوسع انتشارا وذيوعا
 منها فى القرون السالفة التى خضع فيها للحكم العثمانى غير أن من رجال
 العلم من اتخذ الدين وسيلة للدنيا وجمع المال ومنهم من كان اصعبا تحركها
 الدولة للشغب على السكان ومنهم من بنى وشيد وتملك الضياع والبساتين
 وتملق الحكومتين العثمانية والايروانية وهؤلاء لا يزال أبنائهم يـرثون
 ما تركوه لهم فى بعض مدن العراق^(٣١) •

التأليف وأهم المؤلفات :

لعل فيما قدمته من هذه الدراسة ما يكشف عن نواحي التأليف فى
 العراق ويوضح الخطوط العامة التى سلكها المؤلفون وقد كان للحاجة أثر
 كبير فى توجيه رجل الدين وغيره الى الانتاج والكتابة فقد كان للفقه أولوية
 على كل شئ وكان لكل مجتهد شيعى أو عالم من فضلاء السنة كتاب دينى
 قد يكون من وضعه وقد يكون - وهو الاكثر - شرحا لكتاب قديم ، ثم يأتى
 بعد ذلك فى درجات مختلفة تناول العلوم والفنون الاخرى كالتفسير
 والحديث والرجال والاصول والعقائد والمنطق والبلاغة والادب والتاريخ
 والتصوف والفلك وما كان مألوفاً فى الدراسات آنذاك • وقد كان من هذه
 الدراسات ما يعد أساسا كالفقه والاصول والتفسير ومنها ما يعد متمما قد

(٣٠) فى الاكراذ فضلاء يكتبون بالكردية والفارسية والعربية
 ولكن قابلياتهم فى التدريس ليست كغيرهم راجع - مقامات الالوسى -
 ص ٢٥ - ٢٦ •

(٣١) تأريخ هؤلاء معروف لدى العراقيين ولكننا أضربنا عن التفصيل
 والتسمية لثلا نثير ما نحن فى غنى عن اثارته

لا تقتضيه الحاجة أحيانا ، وقد يكون من هذه المؤلفات ما يقصد به ارضاء السلطان أو الوالى ، وقد يكون منها ما يقصد به ارضاء عالم دينى أو شاعر أو وجه من ذوى السار ، أما الكتب التى تمثل الخصومات الدينية والمذهبية فقد شهد القرن التاسع عشر كثيرا منها •

ولعل ظاهرة المؤلفات الدينية لا تقل عنها ظاهرة المؤلفات الادبية وهى مؤلفات لا تعدو الجمع من القديم والحديث وتدوين آثار الشعراء وجمع القصائد التى تقال فى مدح عالم أو وجه متنفذ أو رثاء أحد هذين • ومن أهم المؤلفات التى ظهرت فى هذا القرن كتاب روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى للسيد محمود شهاب الدين الالوسى (٣٢) المعروف بأبى الثناء وهو مأخوذ عن تفسير الامام فخرالدين الرازى مع حذف وازافة وأخذ كثير من تفاسير المتصوفين وقد طبع فى مصر سنة ١٣٠١هـ • وكتاب جواهر الكلام فى شرح شرائع الاسلام للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦هـ فى النجف وهذا الكتاب من أمهات كتب الفقه عند الامامية أما الاصل فهو للعالم الحلى المشهور جعفر بن الحسن الهذلى المعروف بالمحقق المتوفى سنة ٧٢٦هـ • وكتاب (الفصول فى علم الاصول) للشيخ محمد حسين بن عبدالرحيم المتوفى سنة ١٢٦١هـ وهو من علماء كربلاء • وكتاب (ايضاح الكلام فى شرح شرائع الاسلام) للشيخ عبدالحسين الطريحي النجفى أما الاصل فهو للمحقق الحلى مار الذكر غير أن هذا الشرح لم يشتهر كشرح صاحب الجواهر الذى سبق ذكره • ومنها كتاب (متن المقال فى أحوال الحديث والرجال) للشيخ الطريحي أيضا • وكتاب (كشف الطرة عن الغرة) لآبى الثناء الالوسى وهو اختصار لدرة الفواص وشرحها وقد طبع بمصر سنة ١٣٠١هـ • وكتاب (شرح البرهان فى اطاعة السلطان) للالوسى أيضا • وكتاب (شهى النغم فى ترجمة شيخ الاسلام وولى النعم) للالوسى أيضا وقد ترجم فه للشيخ عارف حكمة شيخ الاسلام فى الاستانة •

(٣٢) ألفه بطلب من الوالى على رضا اللاط

وللالوسى رحلات وكتب اخرى اعتمدنا عليها فيما اعتمدنا عليه من المراجع • ومنها كتاب (مطالع السعود فى أخبار الوالى داود) للشيخ عثمان ابن سند الصرى الوائلى وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا فيه تاريخ وفيه شعر للمؤلف نفسه وهو من أهم المراجع التى تتصل بهذا البحث • وكتاب (نزهة الدنيا فى مدائح الوالى يحيى) لعدالائقى العمرى وقد جمع فيه ما نظم الشعراء فى مدح يحيى الجليلى والى الموصل •

ومنها كتاب (وشاح الرود والجواهر والعقود فى نظم الوزير داود) للشيخ صالح التميمى ولكن هذا الكتاب قد اختفى مع كتابه الثانى المسمى (شرك العقول فى غريب النقول) الذى أرخ فيه اربعين السنة الاولى من القرن الثالث عشر للهجرة •

ومنها كتاب (العقد المفصل) للسد حدر الحلى وهو على غرار الامالى وقد ألفه لصديقه العالم الشاعر الحاج محمد حسن كة أحد تجار بغداد وقد طبع هذا الكتاب فما بعد سنة ١٣٣٢هـ فى بغداد • و (دمة القصر) للمؤلف نفسه • ومن كتب العقائد كتاب (النفحات القدسة فى الرد على الامامة) لابي التناء الالوسى •

وفد شاع فى هذا العصر شرح القصائد الدينية والصوفية وممن اشتهر بذلك أبو التناء الالوسى فقد شرح لعدالباقى العمرى قصيدة فى مدح الامام على واخرى فى مدح الشيخ عبدالقادر الكيلانى ، وهذا الذى ذكرناه لس كل المؤلفات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر أما دواوين الشعر فانها كثيرة استعرضنا معظمها فى الباب الثانى من هذا الحث •

نثر المؤلفين والادباء

لس من الاجحاف أو الغبن أن نقول ان النثر فى العراق كان امتدادا لخط يبدأ أوله من عصر الانحطاط فلم يكن كل نائر قد طاوعته الاداة ومكنه الذهن من تطويع المعانى • نعم كان فى العراق نثر علمى ألفت به كتب الفقه والاصول والحديث والتفسير وأمثالها ولكن هذا النثر ليس

دليل الابتكار والتجديد لتظهر فيه الميزة الادبية بل هو اعادة وتكرار للقواعد القديمة مع شيء من اضافات المؤلف ، والمفروض في النشر العلمي أن يخلو من المبالغات والخيال والزخرفة وأن يسلم من الاخطاء النحوية واللغوية لانه يتعلق بمسائل وأحكام يجب أن توضع في قوالبها الخاصة بها وأن لا يكون فيها زيادة أو نقصان • أما النشر الادبي فانه غير خاضع للقيود العلمية والمنطقية الا في حدود واقعه وصوره التي وضع من أجلها وهي تأدية الغرض والتعبير عن فكرة سليمة تعبيرا جملا مقبولا ، ولكنه كالنشر العلمي في خضوعه لقواعد اللغة والنحو غير أنه لا يتمتع عن الخيال والعاطفة والمبالغات في حدودها المألوفة فلا اغراق ولا تهويل ثم هو في مقاييسه الصحيحة ما كان بعدا عن التكلف والزخرفة المصطنعة وعن اسخدام فنون الدبيع استخداما لا جمال فيه ولا فنة ، ومثل هذا النشر قلّ أن شهده القرن التاسع عشر في العراق بل قلّ أن شهد من سما بالاسلوب عن مسوى القاضي الفاضل وترفع به الى ابن العميد فلا ترسل في الاسلوب ولا دقة في المعاني وانما كان هدف الناثر أن يأتي بالاسجاع والفواصل وأن يجنس ويورى ويكثر من المترادفات وأن يزخرف ويلون وقد يأتي بأمثلة وشواهد من الشعر تتخلل شره كأنه يكتب مقامة أو يضع خطبة • وحتى ذلك التاريخ القليل الذي كتب عن العراق كان خاضعا للسجع والفواصل وعدم العناية بالحقائق التاريخية التي كان أكثرها يضيع خلال الاسجاع والمبالغات (٣٣) •

(٣٣) مما يمكن الحاقه بهذا النشر ما كانت تنشره جرائد الحكومة التي صدرت في أواخر القرن التاسع عشر وهي جريدة (الزوراء) وقد أنشأها الوالي مدحة وصدر العدد الاول منها في يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الاول عام ١٢٨٦هـ الموافق للسادس عشر من حزيران عام ١٨٦٩م وجريدة (الموصل) وقد صدرت عام ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م وجريدة (البصرة) وقد صدرت عام ١٣١٣هـ ١٨٩٥م وهذه الجرائد - ولاسيما الزوراء - كانت تراعى اللغة التركية الى جانب اللغة العربية الضعيفة بل كانت تطفئ عليها العامة المبتدلة الا القليل مما كتب في أواخر القرن التاسع عشر وقد ذكرت بعض النماذج مما كانت تكتبه جريدة الزوراء راجع الحواشي ٧٩ و٨٣ و١١٠ من الفصل الاول

ولم تكن موضوعات النشر على شيء من التجديد فما هو معروف قديما فهي لا بعدو مقدمات الكتب وبعض دواوين الشعر والتقاريف والرسائل والرحلات والعرائض التي كانت ترفع الى السلطان والولاة والحكام في التماس شيء أو طلب منفعة ، ومهما يكن من شيء في أمر هذا النشر فإنه لا يعدم بعض الصور التي يمكن أن تؤدي وظفتها في مجال النشر العام من حيث الأسلوب والموضوع وهو - على ما فيه من قصور عن اللحاق بالشعر - كان لا يعدم ألوانا من تصوير السياسة والمجتمع (٣٤) .

نهضة الشعر :

ان الادب العربي في نهضاته القديمة لم يكن وليد المصادفات بل كان ولد حركات قوية وملكات أصيلة وبيئات مهيئة فقد ساعد على نموه وتطوره خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وساعد على نموه وتطوره مواهب فذة وعقريات خلاقة مدعة وبيئات تنبت المواهب وترهف الشعور وتغذي الاحساس وتنمي الملكات ، وتلاقحت هذه الاسباب وغيرها فأنتجت أدبا عربيا خالدا لا يستغنى عنه ما دامت اللغة العربية قائمة حية ، وشعرا لا يمل ما دامت النفوس تهتز للغناء وتطرب للانشاد .

أما في القرن التاسع عشر فقد خلا العراق من خليفة يشب أو أمير يهب أو وزير يرعى عدا ما سجله الثلث الاول منه لواليين من ولاية بغداد هما داود المملوك على ظلمه وتعسفه وعلي رضا على قوته وبطشه ، وعدا ما سجله أيضا للولاة الجليليين في الموصل ، أما في الثلثين الآخرين فقد قل أن شهد العراق والبا أو حاكما قرب الشعراء وأنابهم الا القليل ممن كان الوقوف على أبوابهم مشوبا بكثير من الذل والاستعطاف وقد ذهب هؤلاء وليس لهم أثر بارز في نهضة أدبية أو حركة علمية . والذي عرفناه من تاريخ القرن التاسع عشر في العراق أن أكثر الشعراء - ومثلهم رجال الدين

(٣٤) راجع ما نقلناه من عبارات أبي الثناء الالوسي في الفصل الاول

البارزين - قد عاشوا فى ضيق ونكد^(٣٥) ، وكان بعضهم يعمل فى الاسواق للحصول على رغيف الخبز^(٣٦) ولم يدفعهم الى نظم الشعر غير حب الشعر وقد سجل الكثير منهم صورا تمثل الى مدى بعد ما كان يعانيه اولئك من شظف العيش وضيق منابع الرزق ومن ذلك قول السيد حيدر الحلي أشهر شعراء الفرات آنذاك

لا عداً مسم الهجاء أناسا كان وسم المديح فيهم غريبا
صنع الله أوجه البض والصفر يحظ الذى يكون أديبا
كم أعارت محاسن الدهر قوما ملؤا عيبة الزمان عيوباً

وقوله

وحسب نفسى وان أصحت ذا عدم من ثروة أننى مثر من الادب^(٣٧)

أما الاخرس البغدادى فقد أكثر فى هذا الموضوع ومن ذلك قوله
أسفا للشعر لا حظ له فى زمان الجهل والقوم اللثام^(٣٨)
وقوله

وأنفقت أيامى على غير طائل فلا منهلا عذبا ولا عشة رغدا^(٣٩)
وقوله

ومن مضض الايام مدحى عصابة بذلت يدا فيهم وما نلت اصعا^(٤٠)
ومثله السيد ابراهيم الطباطبائي فقد قال
لقد قسم الله رزق الورى وقرر بالرزق أقسامه

(٣٥) يقول أبو الثناء الالوسى بعد تخليه عن منصب الافتاء وانصرافه الى اتمام تفسيره معبرا عن عوزه حتى كدت أكل الحصير وأشرب عليه مداد التفسير راجع (غرائب الاغتراب) ص ٢٥

(٣٦) راجع (نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر) للدكتور محمد مهدي البصير ص ١٣

(٣٧) ديوان السيد حيدر الحلي ص ٦٩ و ١٠٣

(٣٨) الطراز الانفس ص ٣٤٩

(٣٩) من مجموعة للاخرس لم تنشر ص ٣٤ من نسختي الخطية

(٤٠) الطراز الانفس ص ٢٥٢

وهل نافعى أنتى شاعر تضر وتنفع أشعاريه
أديب وتدركنى حرفة الاديب فتعسا لآدابه (٤١)

أما السيد جعفر الحللى فانه يقول
ملكنت فكرتى بكار المعانى والى الآن ما ملكنت كتابا (٤٢)

ولعل الشاعر هنا لا يذهب بعيدا فى خياله فدعى أن الشعر كان يأتيه
وحا والهاما دون أن يقرأ كتابا وانما كان محتاجا لا يستطيع أن يشرى
الكتاب لقرأه فجمع بين الفخر بنفسه وبين واقع حياته •
واذا عرفنا أن كبار الشعراء فى القرن التاسع عشر كانوا لا يجدون
ما يكفيهم من وسائل العيش أدركنا تعليل تلك الظاهرة الادبية التى بنت
على ضفاف الرافدين فى القرن التاسع عشر ، وتعليل تلك الظاهرة لا يعدو
قوة الاسمرار وعامل البيئة الطبيعية والبؤس الذى يدفع الى التذمر وارهاف
الشعور الى جانب شئ من الرعاية كان يلقاه بعض الشعراء من بعض الاسر
الفنة فى العراق والى جانب الحركة العلمية التى نشطت فى المدن الشهيرة ،
ومما لا شك فيه أن البيئة العراقية بمناخها المتغير المتقلب وبحرارة صيفها
وبرودة شتائها وبأنهارها وجداولها ونخلها وحقولها وبأريافها وصحاريها قد
شجذت المواهب ودفعت بها الى الانتاج وان الحركة العلمية التى نشطت فى
بعض المدن قد ساعدت عامل البيئة الطبيعية على النشاط الادبى وتطور الشعر
من جمود الفترة المظلمة الى التلمل والارهاص •

وقد انفردت مدينة النجف ومثلها مدينة الحلة بهذه العوامل المؤثرة فى
تكوين نهضة شعرية عزيزة الجانب • كانت الحلة فى موقعها الجغرافى
الجميل موطناً من مواطن الشعر بل كاد الشعر أن يكون فيها سليقة يجرى
على كل لسان وحسبنا أن نعرف من موقعها أنها تطل على جانبى الفرات
بالقرب من بابل القديمة وقد تعانقت عليها ظلال النخيل وأفياء الشجر
الوارف وعلى مدى غير بعد منها تساب الفروع والجداول خلال الواحات

(٤١) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ٢٧٢

(٤٢) سحر بابل ص ١٠ •

الخضر ، وكان لها من تاريخها القديم ميراث ضخم من العلم والادب والشعر الكثير وقد حافظت على هذا الميراث وسارت على نهجه وتعدد فيها الشعراء وقالة القريض الرقيق والثائر وكان نظم الشعر لدى سكانها سهلا مطاوعا حتى على ألسنة الاميين الذين لا يقرؤن ولا يكتبون فيأتون به عذبا جميلا لا خروج فيه على قواعد اللغة وأوزان العروض (٤٣) .

أما مدينة النجف فانها تختلف عن مدينة الحلة في موقعها اذ هي أشبه ما تكون بصومعة أقيمت على جبل صحراوي لا ماء فيه ولا شجر (٤٤) وكانت ترتفع عن الفرات القريب منها شرقا ارتفاعا غير قليل فلا يصل اليها ماءؤه وكانت حاجتها الى الماء قد تشدت في كثير من الاحان فتصل الى درجة العطش وقد بقيت هذه المدينة داخل سورها تطل على بحيرة جافة في المنحدر الغربي منها وليس في تلك البحيرة أو ذلك المنحدر من النخل والشجر الا القليل أما المدينة فانها تستقبل الشمس من أرياف العراق الوسطى وتودعها في صحراء نجد وتقبلها الفصول بين سموم الصيف الشديد وزمهرير الشتاء الجاف ويعاني أكثر سكانها مرارة الفقر والعسر وقد ساعد على بقائها شامخة في هذا المكان المنعزل كونها ملتقى الشيعة يؤمونها لزيارة ضريح الامام علي وكونها مدينة علمية نشطت فيها الحوث الشعبية على مذهب الامام جعفر الصادق وجمعت فيها أسفار كثيرة من المخطوطات منذ القرن الخامس للهجرة ، هذه المدينة بما فيها من علم وأدب وبما في حياتها من خشونة وبما لستها من تقلب بين الحر والبرد ولأفقها من صفاء وجمال كانت ذات أثر كبير في تفتح الازهان وتوقد الشعور وارهاف الحس فقد تخرج فيها كثير من الشعراء وغصت نواديها ومحافلها بعشرات منهم واستمعت الى مسجلاتهم

(٤٣) راجع نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ص ٢٩٤ -

(٤٤) كانت النجف عامرة بالعرب أيام المناذرة وكانت الاديرة منتشرة فيها حتى مدينة الحيرة القريبة منها وفيها عيون نابعة تمتد الى الصحراء راجع (البلدان) لابن الفقيه ص ٦٨٧

ومطارحاتهم والى جدهم وفكاهاتهم وكانت محافل الانشاد ومواسم الشعر في أيام الافراح والاحزان تشجع على نظم الشعر وتدفع الشعراء على الاسمرار والصعود •

وقد شهدت بغداد نهضة شعرية مرموقة ايام الوالى المملوك داود فالوالى علي رضا • واستمرت تلك النهضة ولكنها كانت أضحف مما كانت عليه • وقد أسهمت مدينة الموصل بنصيب غير قليل في بناء النهضة الشعرية في عصر الولاة الجليلين ثم ضعفت الحركة فيها بعد هؤلاء •

أما الاسر التي ساعدت على نمو النهضة الادبية فهي غير قليلة في المدن العراقية ومن هذه الاسر من جمع بين العلم والادب كآل الشيخ جعفر الكبير المعروفة بأسرة (آل كاشف الغطاء) وأسرة بحر العلوم والأعسم وغيرهم في النجف ، وكآل القزويني في الحلة وآل الالوسي والجميل في بغداد ، وآل العمرى والغلامي في الموصل • ومن الاسر الغنية التي قربت الشعراء آل باش اعان والزهير وأمراء كعب في الصرة وأطرافها وكان في آل كبة والشاوي أدباء وشعراء كما كان فيهم من أخذ من العلوم الدينية بنصيب غير قليل •

موضوعات الشعر وطريقة الاداء

لم تختلف موضوعات الشعر في القرن التاسع عشر عما كانت عليه في القرون السابقة ولم يستطع الشعراء أن يجددوا تجديدا بارزا ملحوظا الا فيما ندر من وصف بعض المخترعات كالترامواي^(٤٥)، والباخرة^(٤٦)، وأسلاك البرق^(٤٧)، والساعة^(٤٨)، وصفا غير فني ، فقد التزموا بالموضوعات القديمة

(٤٥) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ٧١ - ٧٢ -
ونهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ص ٢٨٢
(٤٦) راجع الطراز الانفس ص ٤٢٧
(٤٧) راجع الترياق الفاروقى ص ٣٥٤ - ٣٥٦
(٤٨) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ٤١ وسحر بابل ص ٣٧

من المدح والتهاني والرثاء والفرل والمداعبات والاخوانيات ونظم التوارىخ
للحوادث والمنشآت وأكثروا من مدح آل البيت ورنائهم كما أكثروا من
شعر التوسل والتصوف ولهم فى الحماسة والفخر والتذمر والشكوى
والتنيد بالظلم شعر غير قليل ولم تذل بعض الدواوين من شعر الهجاء
ولكنه قليل بالنسبة للموضوعات الأخرى •

أما طريقة الاداء فقد كانت تختلف باختلاف المناسبة فالرثاء لا يعدو
القصيد ذات القافة الواحدة والمدح كالرثاء ولكنه قد يأخذ طريقة الموشح
كما فى شعر السيد محمد سعيد الجوبى وبعض قصائد السيد حيدر الحللى •
وأبرز شئ فى موضوع المدح والتهانى ما فى القصيدة من مقدمة تقليدية قد
تكون غزلا أو وصفا للخمر وقد تكون نسيبا مصطنعا يخرج فيه الشاعر عن
بيئته ويته فى صحراء نجد ووديانها • وكان التخميس والنشيطر من طرق
الاداء التى شاعت فى هذا العصر ولاسيما فى موضوعات المدح والتهانى
والفخر والحماسة والشكوى • ولعل فى الفصول الآتية ما يكشف عن
جوانب كثيرة من خصائص الشعر فى القرن التاسع عشر

الباب الثاني

الشعر السياسي

- ١ - تمهيد - الشعر السياسي : معناه وتطوره .
- ٢ - الفصل الاول : الشعر والحوادث الوهابية .
- ٣ - الفصل الثاني : الشعر بين الحس العربي والشكوى العامة .
- ٤ - الفصل الثالث : ثورة الشعر في ظل العقيدة .
- ٥ - الفصل الرابع : الشعر في ركاب الدولة .
- ٦ - الفصل الخامس : القيم الفنية والموضوعية .

تقديم

الشعر السياسى - معناه وتطوره

لعل من الضرورى فى دراسة الشعر السياسى الحديث أن تقدم له شىء من الايضاح والتفسير لمعنى السياسة عند القدماء والمحدثين ولمعنى الشعر الذى يلامسها ويتصل بها فيسمى شعرا سياسيا • وأن نشير بايجاز الى هذا النوع من الشعر فى تاريخ العرب وآدابهم •

ان كلمة (سياسة) عند العرب تعنى تدبير شؤون الناس وتولى أمورهم والرياسة عليهم ونفاذ الامر فيهم^(١) وهى أيضا استصلاح الخلق بارشادهم الى الطريق الصحيح^(٢) • أما عند المحدثين فهى تعنى حكم الامم أو فن هذا الحكم • وهى كما تتصل بنظم الدولة فى الداخل تتصل أيضا بنظمها والتزاماتها مع الدول الاخرى^(٣) • وما دامت السياسة كما حددناها فى هذه التعاريف المشهورة فان الشعر الذى يلامسها ويعبر عنها يسمى شعرا سياسيا سواء تناول نظم الدولة الداخلية أو مس مكانتها الخارجية بين الدول والاقطار وسواء التزم جانبها ودافع عنها أو وقف مناوئا لها ولاعمالها • وليس من الضرورى فى هذا الشعر أن يعبر عن رأى يقره المجتمع فقد يكون الرأى خاصا بالشاعر أو بقئة قليلة ممن تنظمهم تلك الدولة ، كذلك

(١) راجع لسان العرب والقاموس فى مادة (سوس)

(٢) راجع (رسائل اخوان الصفا) ج ١ ص ٢٠٧ طبع مصر

(٣) تأريخ الشعر السياسى ل احمد الشايب ص ٣ و ٤ ط ٢

ليس من الضروري في الشعر السياسي أن يلتزم البراهين والتفاصيل بل يكفيه أن يلمح ويوجز ويترك التفاصيل والجزئيات للتاريخ وللناس لانه وليد العاطفة والخيال ومثل هذا الشعر الذى لا يلتزم البرهان والاحتجاج يدخل فيه المدح والهجاء والحماسة والفخر والوصف والثناء والغزل أيضا^(٤) متى ما كانت هذه الفنون تتصل بحكم أو مذهب وان لم تعالج النظريات السياسية بالشرح والتفصيل • هذا هو الاصل في الشعر بوصفه فنا يقاس بغايته التى يرمى اليها غير أنه لم يهمل الناحية التفصيلية في كل صوره بل عالجها فاحتج وساق البراهين وتناول المعانى الجزئية مع احتفاظه بخصائصه الفنية •

وليس من الضروري في الشعر السياسي أيضا أن يكون تعبيره عن السياسة - سلبا أو ايجابا - ناشئا عن عقيدة يؤمن بها الشاعر ويدين بها بل قد يكون ذلك ناشئا عن طمع في مال أو منصب أو خوف من شر أو عن صلة خاصة بين الشاعر والحاكم ومثل هذا يعد تأييدا سياسيا غير مباشر^(٥) • هذا الضرب من الشعر كان في كل عصوره وآفقه من أبرز المقاييس في رسم الجانب السياسي لحياة العرب ونظمهم حتى البدائية منها أو الشبيهة بالبدائية ، وكان وسيلة هامة من وسائل التعبير التى تناولت السياسة منذ العصر الجاهلى فقد كانت القبيلة العربية آنذاك أشبه ما تكون بالصورة المصغرة للدولة^(٦) بوصفها ذات مكان ووحدة ونظام ورئيس يشرف عليها ، وكانت صلتها بالقبائل الاخرى تشبه صلات الدول الآن^(٧) ولو الى حد قليل • واذا استعرضنا الشعر الجاهلى في جملته وتفصيله وجدناه قليلا يخضع في تجاربه لسيادة القبيلة ومكائنها بين القبائل الاخرى وان كان غائيا يشمل معظم الموضوعات ، فهو يستمد مقومات القبيلة في اطارها الداخلى حين يعتز بها ويمدح رجالها وأعمالها وقد يثور عليها ويؤنبها لانها قصرت

(٤) راجع المصدر السابق ص ١١ و ١٢ و ٢١٤ و ٢١٥

(٥) هذا الشعر اعتمد عليه الامويون أيام عبدالملك بن مروان

(٦) تاريخ الشعر السياسي ص ٤

(٧) في الادب المقارن - لعبدالرزاق حميده ص ١٠٧

فى حماية أو تخاذلت فى موقف ، وهو يستوحى مكانتها الخارجية حين يفتخر بها أمام القبائل ويذكر أيامها ويهجو أعداءها وينازل خصومها من الشعراء • ولقد كان الى جانب هذه الانواع نوع آخر نادر لا يمس القبيلة فى شىء من ذلك بل كان يمس النظام القبلى عامة من حيث اضطرابه ويمس النظام الاقتصادى من حيث تقصيره فى حماية الافراد من الجوع والحاجة ، وهذا النوع من الشعر يكاد ينفرد به الشعراء الصعاليك الذين كانوا نادرين على الفقر والعوز^(٨) •

واذا تركنا العصر الجاهلى لنستعرض العصور التى تلتها فاننا نرى الشعر السياسى قد تطور واتسع نطاقه من حيث الموضوعات نتيجة لتطور الحكم والنظم عند العرب بعد ظهور الدعوة الاسلامية وقد شهد صدر الاسلام صورا كثيرة تؤيد الحكم الجديد المتمثل فى الدين الاسلامى وتدافع عنه وترد على الجانب المناوئ الذى تمثله صور اخرى ليس لها حظ فى الدراسات كحفظ تلك ، وجاء العصر الاموى فنشطت الاحزاب التى اتخذت من الدين الاسلامى شعارا لها وكان أقواها الحزب الاموى الحاكم ثم حزب العلويين النادرين فى وجه الحكم الاموى ، ثم الخوارج الذين استمر صراعهم طيلة الحكم الاموى ودون هؤلاء حزب الزيريين النادرين على بنى أمية أيضا ، وفى عصر هذه الاحزاب كانت النزعات القبلية قد عادت الى ما هو أشد من الجاهلية فى الصراع والتنازع وكان هذا كله مؤثرا قويا فى توجيه الشعر السياسى الى حيث يتمثل فيه الصراع القائم بين تلك الاحزاب وتلك القبائل والى حيث يمثل الآراء والعقائد السياسية ويصور الحالة العامة حتى الفقر والحاجة •

ولما أديل الحكم الى العباسيين انتقل الشعر الى تأييد البيت الهاشمى من عباسيين وعلويين ثم انقسم بعد برهة وجيزة الى شطرين أحدهما مع الجانب العاسى وهو الغالب وثانيهما مع الجانب العلوى بعد أن ظهر عداة العباسيين لآل علي ، على أنه كان الى جانب هذا صور غير قليلة ليست فى

(٨) استمر هذا النوع من الشعر طوال العصور

جانب اولئك أو هؤلاء كالشعر الذى مدح به بعض الامراء والوزراء أو رؤساء القبائل من غير العباسيين أو العلويين وكالشعر الذى فيه تلميح أو تصريح بالاستياء من الحكم والسياسة ، هذا فى العراق أما فى الشام ومصر والمغرب والاندلس فانى أترك التفصيل الى المراجع الكثيرة التى عنت بتسجيل هذا اللون من الشعر .

ولقد استمر الشعر السياسى فى طريقه المرسوم له يؤيد وينأوى ولكنه فى أواخر العصر العباسى حتى نهاية القرن التاسع عشر قد استحال معظمه الى مدح وتأيد للحكم أيا كان ذلك الحكم وفى أى قطر من الاقطار العربية وقد فقد قوته فى فنه وموضوعاته الا القليل مما كان يصدر عن بعض الشعراء الذين لم يرافقوا الحكم أو يتصلوا به اتصالا مباشرا والا ما كان للشعراء العلويين الذين طبعوا شعرهم بطابع التشيع والولاء لآل علي .

ولقد تركت التفصيل فى دراسة التطور الذى رافق الشعر السياسى فى كل أدواره لان ذلك لم يكن من عناصر الموضوع اذى تناوله هذه الدراسة الخاصة بالقرن التاسع عشر وانما استعرضت هذا التطور بايجاز - الى جانب توضيح المعنى - لكى أقف على مظاهر التشابه بين الشعر السياسى فى القرن التاسع عشر وبينه فى العصور القديمة ولكى أربط الصور التى رسمها شعراء العراق فى القرن التاسع عشر بأمثالها من الشعر القديم ان لم يكن فى الفن والاداء وفى الموضوع والغاية فان فى هذه الصور ما يخضع للحكم ويؤيده كمدح السلاطين والولاة ومن دونهم من الموظفين سواء جاء هذا المدح فى مناسبة عامة أو جاء فى مناسبة خاصة أو كان صادرا عن ضمع فى مال أو منفعة يقصدها الشاعر لنفسه^(٩) ، وان فى هذه الصور ما يدل على تدمير واستياء من الحكم وفساد النظام وان كان قليل الصراحة والجرأة ، وفيها ما شاع من مدح الزعماء العرب ومن الحماسة والفخر والاعتزاز

(٩) فى بعض دواوين الشعراء قصائد فى مدح بعض الحكام الايرانيين كناصر الدين شاه وابنه مظفر الدين وغيرهما وهى تتصل - فى الغالب - بما يقوم به هؤلاء من تعمير العتبات المقدسة وقد تركت ذكر هذه القصائد لقلتها ولانها لا تؤلف موضوعا سياسيا واضحا

بالنفس أو بالامة التى ينتمى اليها الشاعر • وفى هذه الصور ما يتصل بالشكوى والتذمر من الحياة وما يعبر عن الحاجة والفقر نتيجة لفساد الحكم وفساد النظام الاقتصادى • وهناك نوع هام من الشعر السياسى فى القرن التاسع عشر وهو الذى صور اتجاه الشيعة وأثر السياسة والحكم فى حياتهم العامة فقد برز هذا الشعر واضحا فى شعر المراثى لآل البيت وفى القصائد الكثيرة التى وجهت الى المهدي المنتظر •

والى جانب هذا وجدنا لونا آخر من الشعر السياسى ظهر فى العراق خلال القرن التاسع عشر وهو الشعر الذى حارب الوهابيين وعقيدتهم ، ولعل هذا اللون الذى رافقت بعضه مؤثرات من العقيدة الشيعية الى جانب قصائد الرثاء للامام الحسين وآل البيت وقصائد التوسل بالمهدي يمكن أن يشبه الى حد كبير تلك الصور التى ظهرت فى الشعر الحزبى خلال الاعصر الاول • على أن هذا الشعر فى كل موضوعاته لا يستطيع أن يسامى الشعر القديم فى قوة الاداء والتعبير وأن أشبه معظمه فى المسلك والاتجاه •

المجلد الاول

الشعر والحوادث الوهابية

لقد مر في الفصل الاول من الباب الاول توضيح غير قليل لتاريخ الدعوة الوهابية والحروب والحوادث التي تمخضت عنها وقيام الدولة العثمانية بحملاتها العسكرية المتتابعة للقضاء عليها ، وكانت الغاية من توضيح تلك الحوادث على وجه الاجمال لا التفصيل والعناية بها في الفصل السياسي توضيح الجانب الادبي الذي رافقها في مختلف مراحلها وسجلها في أهم أعمالها ، وأعنى بالجانب الادبي الشعر الذي نظمته شعراء العراق في تلك الحوادث مستجيبين لعوامل الدين والسياسة منطلقين مع البواعث النفسية والاجتماعية لتناولها تناولاً يعبر عن واقع الرأي الاسلامي العام أو العراقي على الاخص آنذاك^(١) .

ولقد كان من حق المنهج الذي وضع أن يوزع هذا الشعر بين الفصول الاخرى لان منه ما يتصل بالدولة ومدح أعمالها التي نهضت بها لمحاربة الوهابيين وللدولة وأعمالها فصل خاص ، ومنه ما يتصل بالعقيدة الشيعية التي أثرت في توجيه الشعراء ورسمت لهم طريق الثورة على الوهابيين

(١) لقد وجدت فيما وقع في يدي شاعراً عراقياً واحداً مدح الدعوة الوهابية وأصحابها وسيأتي ذكره في آخر الفصل اما شعراء نجد فان لهم قصائد في مدح الوهابيين

وللعقيدة الشيعية فصل خاص أيضا ، غير أن حق التاريخ الادبي كان أكبر فى نظرى من حق المنهج الذى رسمته واتبعته فى معظم فصول الرسالة لان الدعوة الوهابية لم تكن دعوة صغيرة تذهب كما يذهب بعض الظواهر الضعيفة الشأن ولان حوادثها وحروبها واهتمام الدولة بها لم يكن فى حدود ضيقة ولان الشعر الذى قيل فيها لم يكن خطرات عابرة لا شأن لها ولم يكن من القلة وعدم الجدوى بحيث يتناثر هنا وهناك • لهذه الاسباب ولتكون هذا الشعر جديدا فى موضوعه وموحياته رأيت أن أفرد له فصلا خاصا به ليكون ذا وحدة تاريخية مترابطة الاجزاء وليسلم له شكله وموضوعه دون تفكيك وتناثر ، ولقد رأيت أن أدرس هذا الشعر الذى قيل فى الحوادث الوهابية وفق المراحل التى مرت بها وأن أتابعه فى مرحلتين هما أهم مؤثر فى تكوينه وخلق صورته على اختلاف قيمها وأساليبها •

فى المرحلة الاولى :

لقد كانت المرحلة الاولى التى بدأت بالحركات الوهابية وانتهت باحتلال نجد والحجاز من جانب الجيش المصرى^(٢) مرحلة حادة فى حوادثها المؤثرة التى استجاب لها الشعراء استجابة الناقم المفضب وكان هؤلاء الشعراء فيما نظموه ازاء هذه الحوادث لا يقلون اندفاعا عن رجال الحكم والدين وزعماء القبائل وقد سجلوا معظم تلك الحوادث - ولاسيما التى تعرض لها العراق - تسجيلا لا يقل فى اسلوبه وتعبيره عن قوة العاطفة الدينية والشعور السياسى المناوئ للوهابيين ، فلقد كان فى جانب منه يعبر بلوعة وحسرة عن مدى تأثير الغزو الوهابى للمدن الشيعية المقدسة وأعمال الوهابيين التى عدت انتقاما واعتداء واهانة لمراقدة آل البيت ، بينما يعبر من جانب آخر عن مدى تأييد الشعراء للخليفة العثمانى ومن يمثله فى العراق على محاربة الدعوة الوهابية وأتباعها •

ولقد سجلت بداية القرن التاسع عشر حادثة خطيرة هزت عواطف

(٢) راجع الفصل السياسى - القسم الاول

الشعراء وأثارت فيهم الالم الشديد والاستنكار الصارخ وهى حادثة غزو كربلاء سنة ١٢١٦هـ - ١٨٠٢م^(٣) ومن الطبيعي أن تثير هذه الحادثة شعراء الشيعة على الاخص لانها استهدفت المدينة التى تضم مرقد الامام الحسين بن علي وانتهت بنهب الضريح المقدس وهدمه وقتل كثير من المجاورين له وفيهم رجال الدين والاطفال والنساء •

وقد نظر الشعراء الى هذه الحادثة كأنها تجديد للأساة الحسين يوم استشهد فى كربلاء مع اخوته وأبنائه وأنصاره فكوا وسخطوا واستنهبوا وأثاروا ونقموا على الوهابيين أشد النقمة وهددوهم وناظروهم وجادلوهم • وكان من أبرز الشعراء الذين استفزتهم هذه الحادثة الحاج هاشم الكعبي المتوفى سنة ١٢٣١هـ - ١٨١٦م فقد كانت عاطفته الشيعة حافرا مثيرا لتجربة طافحة بالالم الشديد وقد انطلقت هذه التجربة الحادة فى قصيدة صبغها بالدماء وحشد فيها صورا متجانسة كل جانب منها كان حزينا ، وقد استعرض فيها أسماء من قتلوا من رجال الدين وبكى فيها اولئك القتلى وصور ذعر النساء وما أصابهن من الذهول لفقدهن رجالهن وقتل أطفالهن • ثم بكى الامام الحسين وأشار الى أن هذه الحادثة انما هى تجديد ليوم قتل فيه الحسين ، ثم استنهض قومه للاخذ بالثأر وجادل الوهابيين جدلا فيه ثورة الشاعر وعاطفة الناظم وختم القصيدة باستهزاء تقليدى للامام المهدي • أما أول القصيدة فنسب تقليدى يتألف من خمسة أبيات تبدأ بقوله

أنت الملولم فمن يكون الألوما فلك الظما هيئات معسول الملى

ثم يبكى القتلى فيقول

يا سعد قف بى فى المنازل ساعة
بكى نفوس تقى تراق على الظبا
بكى فربت عبرة تروى ظما
ظلما وأجسادا تفسلها الدما
بكى لصرعى فى التراب تخالها
فى الليل من فوق البسيطة أنجما
بكى حرائر هكت أstarها
بعد الحجاب فأصبحت مثل الأما

(٣) راجع ص ٣٢ و ٥٦

ويشير الى مدينة كربلاء

قد كنت أحسب أن غاية كربها يوم قضى « ابن محمد » فيه ظما
فاذا الرزايا لا تزال بربعها فذا تطرق بالخطوب وتوأما

والى الحسين يوم قتل ويوم غزا قبره الوهابيون

لم تَفْت قارعة تحل بربعه حياً وتزعجه رميما أعظما
كتب البلاء على علاه كأنما فُرض البلاء على علاه وحثما
حيا وميتاً لا يزال مجرعا بألف أهل البغي صايا علقما
ويروح يوما صدره متحطما فيهم ويوما قبره متهدما
خلفا توارثه البغاة وسيرة يقفو بها المتأخر المتقدما

وبعد أن يبكى ويتألم لما وقع يعلن سخطه على من بقى حيا لم يسلك
سل اولئك القتلى المجاهدين فيخطبه أو يجرد من نفسه شخصا
يخطبه فيقول

شأن الغواني صار شأنك لم تكن الا تقيم عزاً وتنصب مأتما
ان كان همك ليس الا بالبكا فتكون نائحة وتسمع مفرما
فلم ادخرت من السيوف مصمما لكريمة ومن الرماح مقوما؟

وينظر الوهابين ويجادلهم فيقول

يا للرجال الا معود شيمة ان صح قول (سعود) ألا مسلما
أفلم يكن فيكم مراعاة حرمة ان كنتم من ليس يخشى محرما
ان صح أن ولاء آل محمد وهوام قد كان شركا أعظما
ان صح أن الواصلين نبيهم فى آله يستوجبون جهنما
ان صح أن المسلمين بأسرهم ما فيهم لله من يحمى حمى
ان صح لا خلفاء بعد نبيهم أو لا أئمة حرما ما حرما
بل كلهم باغ مضل مبدع الا سعود فنوره يجلو العمى !!

ويختتم الشاعر قصيدته باستنهاض الامام المهدي فيقول

يا ناصر الاسلام يا ابن محمد أكرم به نسبا وأعظم منمى

يا ابن الكرام أما نعمن بلفتة عظم البلاء وتجاوز الماء الفما
ثم يصرخ بخلجة نفسية بعانيها كل من يصاب بفادحة وله أعداء
وخصوم يشمتون به ويفرحون لمصابه
قرت عيون الكاشحين شماتة واقرت ثغر الشامتين تسماء^(٤)

والقصيدة طويلة تتألف من سبعة وثمانين بيتا غير أن فيها تكرارا للصور
الحزينة الباكية وفيها استعراض غير قليل لهذا المشهد الدامي ، وإذا كانت
عاطفة الشاعر في هذه القصيدة عاطفة دينية أكثر منها سياسية - بما لهذه
الكلمة من مدلول - فإن استنهاض الناس ممن بقوا أحياء ثم استنهاض الامام
المهدي لدليل على سخط الشاعر ويأسه من الحكم الذي خلا من القوة
المدافعة عن السكان والمدن المقدسة •

وقد اهتمت لهذه الحادثة شاعر آخر هو الحاج محمد رضا الازرى
التميمي^(٥) فقد نظم هذا الشاعر أكثر من قصيدة وكان شعره يجمع بين
وثبات العقيدة والحس العربي التقليدي ولم يكف بتصوير الحادثة من
زاوية القلب والعاطفة بل حاجج الوهابيين وناظرهم ودافع عن عقيدته ودينه
دفاع المتبع المطلع وسلك في بعض قصائده مسلك الكعبي فاستنهض
واستصرخ ، ونظر الى حادثة كربلاء هذه كما نظر اليها الكعبي وعدها
الحادثة الثانية بعد قتل الحسين ، وقد لاحت طلائع كربلاء في أول بيت
من احدى قصائده فقال

أريحا فقد لاحت طلائع كربلاء لنقبر أشلاء ونسعد مرملا

ثم قال فيها :

وهل عاد رزء الطف^(٦) في الطف ثانيا أجل جلّ ثان تابع اليوم أوّلا

(٤) راجع ديوان الكعبي ص ٤٨ - ٥٢ وشهداء الفضيلة للشيخ
عبدالحسين الاميني ص ٢٨٩ - ٢٩٣

(٥) توفي سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٤ - ١٨٢٥م وهو أخو الشاعر الشيخ
كاظم الازرى

(٦) الطف من أسماء كربلاء

واستمر يصف الحادثة والقتلى من الرجال والاطفال والذعر الذى انتاب النساء من نواكل وغيرهن ثم انتقل بعد هذا الوصف الى الاستنهاض والاستصراخ فقال

| | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| فيا قائد الجيش العرمم سجه | تزاهر عن ليل من النقع أليلا |
| بحيث لواء النصر أسدل فوقها | ونص خطيب السيف بالوحي فيصلا |
| كتائب دلت بالجبال سوائرا | اذا انماط عنها جحفل مدّ جحفلا |
| الام وها ضاق الزمان بوافد | يضج ولا ساح يجير ولا ولا ؟ |
| فمن لى؟ وهل (من لى) يعود بشأوهم | ويرجع صرعى بالتداني مكللا |
| واسحبها فى روقى الملك برودة | تكاد بمعناها تمد السججلا |

ولكن الشاعر لم يصرح باسم من خاطبه فى الايات السابقة فلهذا أراد المهدى ولعله أراد الامام عليا لانه قال بعد ذلك

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| لك الله لو شافته حوما (حيدر) | وشاهدت أنوارا هناك ومحفلا |
| فقف بازاء القبر من منكب الحمى | وناد يناديه الكميّ المفضلا |
| ألا يا (على) القدر دعوة مرهج | يرود بصدر بالهموم قد امتلا |
| ملاذا فقد طال المدى وجلا الندى | وقام العدى مستسمى سبق العلا |

ثم يقارن بين عمر بن سعد فى حادثة مقتل الحسين وبين ابن سعود فى هذه الحادثة فيقول

فثم (ابن سعد) سنّ أفعال حقه ونجل (سعود) قد توطاه لا تلا^(٧)

ووصف هذه الحادثة بقصيدة اخرى جاء فى أولها

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| خطب على الطف قد غشى بطوفان | فجلّ عن جانبيه كل تبيان |
| فما انجلت عن ضواحيه غياهما | حتى التقى الدم غدراننا بغدران |

ويستمر فى شيء من التفصيل لما وقع من قتل الرجال والاطفال وارهاب النساء ويتألم

لقتل خمسة آلاف بأونة من النهار سوى المستشرف العاني

(٧) راجع (شهداء الفضيلة) ص ٢٩٣ - ٢٩٦

ثم ينهى القصيدة بيت يؤرخ فيه عام الحادثة فيقول
يقول في رزئها الأدهى مؤرخة في كربلاء دهانا رزؤها الثاني^(٨)

ولهذا الشاعر قصيدة نالته يخرج فيها عن مجال الالم والبكاء الى
المنظرة والجدل فينكر على الوهابيين أعمالهم ورميهم المسلمين بالزيف
والضلال وقد شرح بعض النواحي من العقيدة الاسلامية في ضوء ما يعرفه
منها وهو فيما شرح وناظر كان غير قليل الحظ من الاطلاع على الاصول
والفروع وقد أطل الجدل والحجاج وبعد أن انتهى من جدله ومناظرته
انتفض واهتز وهدد ووعد على طريقة الشعراء القدماء وقد بدأ
القصيدة بقوله

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| ألم يأن أن يصنى الى الحق غافل | ويسلك نهج الاستقامة مائل |
| فهايتك سبل المسلمين تفرقت | وشطت برأى المبدعين المحامل |
| فقل للألى حادوا عن الدين ضلة | وبدر الهدى فى هالة الدين كامل |
| تعالوا الى قول سواء فيتنا | وبينكم ما فيه خلف وباطل |
| فان تجنحوا للسلم نجح لها وان | أبيت فحد السيف بالحق فاصل |

ويسألهم عن عقيدتهم الجديدة
ولم أدر ذا وحى عن الله جاءكم
أم الامر ممن قد حكتم بشركمهم
حديثا فلم تدرك مداه الاوائل ؟
أتاكم وكل فى الشريعة باطل

وبعد أبيات من الجدل والحجاج يقول لهم
وان تسألوا عن بعض ما اقترف الورى
هبوا أنهم جاؤا بكل كبيرة
من الانم فالرحمن للتوب قابل
بل الكفر تحليل الدماء التى أنى
فما ذاك كفر بل فسوق وباطل
بتحريمها الأجماع والذكر نازل

والقصيدة طويلة ساق الشاعر فيها البراهين والادلة على ما احتج به من
آراء وذكر الوهابيين بوقائع التاريخ التى مرت ليعتبروا بها ثم هددهم بأبيات
غير قليلة من هذه القصيدة ان لم ينتهوا عن أعمالهم فقال

(٨) المصدر السابق ص ٣٠٢ - ٣٠٣

ويا قوم سمعا ما أقول فانها تذكرة فيها هدى ودلائل
 حذار فقد أنذرتكم بزواجر تاشد غطفانا فتسع وائل ؟
 فان تنتهوا يغفر لكم ما مضى وان تعودوا فما غير البنود وسائل
 وساء صياح المنذرين اذا هوت صواعقها في أرضكم والزلازل^(٩)
 ولا شك ان الازرى كان يمثل العقيدة الشيعية ويدافع عنها بحرارة
 وايمان ويرد على الوهابيين وهو كصاحبه الكعبي من قبله لم يتعرض لذكر
 الدولة العثمانية ولا لحكومة العراق آنذاك وسر هذا الاغفال ان الدولة لم
 تفعل شيئا ازاء الحادثة هذه وان اليأس قد بلغ بالشاعرين - الكعبي
 والازرى - حدا لم يستطيعا معه أن يذكر الدولة بشيء أو يشير إليها وانما
 بقيا في اطار العقيدة التي لا ترى في ذلك الحكم المسيطر ما يملأ رغبتهما
 ويزيل عنها الشعور بالحيف الذي لحق بالسكان أو يلحق بهم .

واذا كان الكعبي والازرى قد أهملوا ذكر الدولة والحكومة القائمة في
 بغداد آنذاك لانها لم تدافع عن المدن المقدسة فان شاعرا من الحلة قد سلك
 حيل الوهابيين مسلكا حكوميا لان المناسبة كانت تستدعي ذلك فوقف الى
 جانب الوالى (علي)^(١٠) ومجد حملته التي وجهها سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤ -
 ١٨٠٥م لمحاربة السعوديين ، أما الشاعر فهو حسين بن سليمان الحلبي
 المعروف بالحكيم وقد مدح الوالى وندد بالدعوة الوهابية وأنصارها ووصف
 الوالى بأكثر مما يستحق واستغل اسمه في الاطراء فتشبهه بالامام علي وشبه
 سيفه الذى حارب به سعود بن عبدالعزيز بنى الفقار فقال يخاطب الوالى
 أقمت اعوجاج الملك بالسيف والغزم^(١١)

وشيدت ركنيه على مفرق النجم

ثم يقول

فلا سيف الا سيفه للممة وليس فتى الاه عن حرم يحمي

(٩) المصدر السابق ص ٢٩٧ - ٣٠٢

(١٠) كان هذا كتحدا لسليمان الكبير وقد عين واليا بعده كما مر

سابقا

(١١) وردت في الاصل (القرم) ولا معنى لها هنا

وليس فى القصيدة سوى التهديد وهى أقرب ما تكون الى هجاء الوهابيين منها الى الجدل المنظم أو النظرة السياسية المركزة^(١٢) .

ولم تكن حادثة الهجوم الذى قام به الوهابيون على مدينة النجف عام ١٢١٩هـ ١٨٠٤م لتمر على الشعراء دون أن يلتفتوا اليها ولكن الذى وصل إلينا من هذا الشعر لم يكن من القوة والمتانة بحيث ينسجم مع مكانة النجف فقد نظم السيد أبو الحسن كوثر مقطوعة ركيكة الاسلوب سقيمة المعانى وقد استهلها بقوله

بشرى لمن سكنوا كوفان والنجفا وجاوروا المرتضى أعلا الورى شرفا
ولكن الظريف فى هذه الايات أن الشاعر عين الشهر واليوم والوقت فقال مشيرا الى زحف سعود بن عبدالعزيز

وقد أتى الناس قبل الفجر فى صفر بتاسع الشهر نحو السور قد زحفا
ويؤرخ هذه الحادثة فى البيت الاخير من المقطوعة^(١٣) .

وهذا شاعر آخر لم يكن نصيبه من المعرفة بأقل من غيره من الشعراء المشهورين وهو عثمان بن سند البصرى الوائلى^(١٤) فقد سجل تعصبه الشديد ضد الوهابيين بقصائد ومقطوعات كثيرة وناوأهم أشد المناوأة وكفرهم ووسمهم بالزيف والضلال فى نثره وشعره على السواء ودعا الى حربهم باسم الدين لانهم - كما زعم هو وغيره - مارقون خارجون عن اجماع المسلمين وعلى طاعة السلطان ، وثورة ابن سند مثار عجب لانه نجدى الاصل ومن قبائل عنزة التى ينتمى اليها السعوديون ، غير أن العجب يزول اذا عرفنا أن هذا الشاعر كان فى العراق وكان متصلا بالوالى داود وكانت صلته به تدعوه

(١٢) ذكر المؤلف أن هذه القصيدة فى مدح الوالى على رضا وهذا غير صحيح لان هذا الوالى لم يحارب الوهابيين راجع القصيدة فى (شعراء الحلة) للشيوخ على الخاقانى ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ج ٣

(١٣) راجع (ماضى النجف وحاضرها) ص ٢٣٧ ج ١

(١٤) اختلف المترجمون له فى وفاته ففى (مختصر مطالع السعود)

المخطوط بالقاهرة وفى المسك الاذفر ص ١٤٦ أن وفاته فى سنة ١٢٤٦هـ وفى (مختصر مطالع السعود) المطبوع بالهند انه توفى سنة ١٢٥٠هـ وفى مجلة (لغة العرب) ج ٤ س ٣ ان وفاته فى سنة ١٢٤٢هـ ١٨٢٦م

الى الممالة اوتباع سياسة الارضاء والتقرب وهو بوصفه سنيا متعصبا كان يرى وجوب طاعة السلطان والخضوع للوالى الذى يمثلته فى بغداد لذلك كان شديد النكير على الدعوة الوهابية وأنصارها • وقد سلك ابن سند فى شعره الذى قاله فى الحوادث الوهابية مسلكاً تاريخياً راعى فيه تسلسل تلك الحوادث التى كتب عنها فى تاريخه (مطالع السعود) فهو حين يذكر الحادثة يضع الى جانبها مقطوعة أو أكثر وقد ينظم فيها قصيدة أو أكثر وكل الحوادث الوهابية التى كتب عنها كانت أقدم تاريخاً من وقت تسجيلها • ومعظم الشعر الذى قاله فى تلك الحوادث كان شديد اللهجة والاندفاع ضد الوهابيين وكان مليئاً بمدح الدولة والسلطان وأتباعه من الولاة والقواد الذين حاربوا السعوديين فى الحجاز ونجد وكان فى بعض المقطوعات يقتصر على النواحي الدينية فيهدد الوهابيين بعذاب النار فى الآخرة لانهم سفكوا الدماء وكفروا المسلمين^(١٥) • ومن شعره ما قاله حين كتب عن ثوينى بن عبدالله وقتله سنة ١٢١٢هـ بعد عودته من حرب السعوديين^(١٦) فقد رثاه بقصيدة جاء فيها قوله

| | |
|------------------------------|---|
| فشلت يمين من (طيس) سبط به | تأثف طلاب الجدى بعده اليتم |
| جدعت به يا كلب عرين قوم | وأشملهم بذلا اذا كلج الأزم |
| قتل ابن عبدالله والحاكم الذى | سجته التقوى ودينه الرحم |
| ومن هو للاسلام وجه ومقلة | ومن حكمه لم يعر ساحته ظلم ^(١٧) |

وحين كتب عن زهاب الكتخدا (علي) الى محاربة الوهابيين سنة ١٢١٣هـ وعودته بالفشل وخيانة بعض أتباعه^(١٨) قال

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| أسلمتهم للمهلكات رجال | عن هدى الله للمطامع مالوا |
| واستحلوا مال الوزير وقالوا | ان مال الوزير لله مال |

(١٥) راجع (مطالع السعود) الورقة ٦٨

(١٦) راجع ص ٥٥

(١٧) مطالع السعود الورقة ٧٥ - ٧٦

(١٨) راجع ص ٥٥

أبطنوا الغش للوزير وراموا كل ما فيه للوزير اختلال^(١٩)
و يشير في بيتين آخرين الى أن الكتخدا قد استشار في الصلح الذي
عقده مع الوهابيين من لم يكن ناصحا له

لم يشاور من كان في النصيح جدا ككتخدامهم فخاب سعيها وجدا
من يرم خيبة يشاور عدوا برداء الخداع دأبا تردى^(٢٠)
ويكرر هذا المعنى في أبيات أخرى معتقدا بأن الخيانة كانت من
ابراهيم بن ثاقب بن وطان لانه من أقارب سعود وكان ابراهيم قد رافق
الحملة فيقول

لسان الحال قال لهم غزوتهم سعودا كي يعز وكي تذلو
تمنوا أن يلاقوه بنجد فلما أن دنا جنبوا وذلو
عذيري من أناس عظموه بعين الكتخدا فعمره ذل
ومن يجعل معاديه مشيرا فما لنصيحة فيه محل^(٢١)
وحين كتب عن حادثة كربلاء التي وقعت سنة ١٢١٦هـ أردفها بقوله
عن سعود

سفك الدماء وظن أن صنيعه ينجيّه
ولقد تجاوز حده في كل ما يجنبه
فلسوف يعلم غب ما أبداه من تمويه^(٢٢)
ولعل التهديد بعذاب الآخرة كان أقرب شيء الى ذهن الشاعر لانه
كتب عن هذه الحادثة بعد وقوعها بسنين وبعد أن مات سعود •

ولما أרך جلوس السلطان محمود الثاني عام ١٢٢٣هـ نظم بعض
الابيات والقصائد في مدحه واستغل ذهاب الجيش المصرى الى نجد في أيامه
وما انتهى اليه ذلك من القضاء على عبدالله بن سعود سنة ١٢٣٣هـ فقال
همام من بنى عثمان صلت براحته رسوب الحد صلت

-
- (١٩) مطالع السعود - الورقة ٨٠
(٢٠) المصدر السابق والورقة نفسها
(٢١) المصدر السابق الورقة ٨١
(٢٢) المصدر السابق الورقة ٨٦

حمى دين النبي به فأمسى ولا عوج يشان به وأمت
أزال به ضلالة عارضى^(٢٣) لتضليل الورى أبدا يمت^(٢٤)

وحين أرخ استيلاء جيش محمد علي على مكة والمدينة سنة ١٢٢٩هـ^(٢٥)
واخلاءهما من الوهابيين شفع ذلك بقصيدة مدح بها السلطان محمودا ونوه
بأعماله فى هذه الحوادث وطعن على الوهابيين طعنا شديدا فقال

منجّد من بنى عثمان قال له زمانه يا عديم المثل فافتخر
أطلقت قبلتنا من أسر ذى أسر بالسف يبرق والفسالة السمر
لو لم تكن بالطبى والسمر مطلقها ما حجها قط سنى من البشر
دعاك محمود هذا العصر كل فتى يراك فى الحرب مثل الصارم الذكر
لو لا حسامك لم يصدق مؤذنتا فى المسجدين ولم تمدد يد الطفر
ولم يزل عنهما رجس ولا درن من عارضى رمى الاسلام بالغير
مخاصم كل أهل الحق قاطبة من بغيه لم يدع شيئا ولم يذر
ثم يشبه السلطان بالخلفاء الاربعة فيقول

خلفت فينا أبا بكر وكنت لنا عثمان يقفو سديد الرأى من عمر
وكنت فينا عليا فى ماصعة والافق لولا بريق السيف لم ينر
لولاك ما نظرت عين الى ملك لكن لاجلك كانوا مطمح النظر^(٢٦)

ولما كتب عن انتهاء الحكم السعودى على يد ابراهيم بن محمد علي
سنة ١٢٣٣هـ واحتلال ما كان يسيطر عليه عبدالله بن سعود^(٢٧) وضع
محاورة فى مقطوعتين من الشعر اولاهما على لسان عبدالله بن سعود والثانية
على لسان ابراهيم بن محمد علي وقد اعترف فى الاولى بشجاعة السعوديين
وعدم انقيادهم للسلطان فقال فيها

(٢٣) نسبة الى (العارض) من نواحي نجد ويسمى بوادى حنيقة
واليمامة وفيه الدرعية مقر السعوديين وفيه الرياض التى انتقلوا اليها

(٢٤) مطالع السعود الورقة ٩٥

(٢٥) راجع مطالع السعود - الورقة ٩٦

(٢٦) المصدر السابق - الورقة ٩٧

(٢٧) قدم لهذه الحادثة بقطعة من النثر شديدة اللهجة (مطالع

السعود) الورقة ١١٨

انا اذا الحرب شبتها صوارمنا أن يلقنا الاسد عن أسيفنا حادوا
 شابنا صبر في الحرب مذ نشأوا والشيب كم بنفوس أغليت جادوا
 أوصت أوائلنا قدما وأخرنا ألا يدينوا لسلطان وينقادوا

غير أن هذا الاعتراف يتضاءل أمام سجيته في تعظيم السلطان ويظهر ذلك في الابيات التي وضعها على لسان ابراهيم فيقول

انا الملوك اذا سلت صوارمنا على الألى مرقوا عن أمرنا بادوا
 انا على اثر سلطان أوائله سادوا الوري قبلما أمثاله سادوا
 مثابرون على دين النبي كما كانت أوائلكم عن دينه حادوا
 مجاهدون فكم أرووا صوارمهم من كل من لم يكونوا للهدى هادوا
 فسوف تعلم ان لاقيت ناشنا انا لدى الحرب أسيف وآساد^(٢٨)

وليس معنى هذه المحاوره أن الشاعر تقمص الشخصيتين حسب فوضع على لسان كل واحد منهما ما يناسبه ويشعر به وانما كان يصدر ذلك عن رأيه ايضا ولكنه أثر جانب الدولة ملقا وتزلفا •

وليس أدل على مقت عثمان بن سند دعوة الوهابيين من رسالته التي بعث بها الى ابراهيم بن محمد علي عندما نزل الدرعية وحرّضه بها أشد التحريض وذيلها بقصيدة جاء فيها
 ولا تبقي منهم واحدا تستطيه اذا خبت الآباء لم يطب الولد^(٢٩)

على أن ابن سند كان غير مكلف بهذا التحريض الشديد لو لم يكن متأثرا بالجو السياسي في العراق والعقيدة الدينية المسيرة •

واستغل ابن سند حادثة (المورة) سنة ١٨٢٦م^(٣٠) فنظم فيها قصيدة معظم أبياتها خارج عن هذه الحادثة الى الطعن على الوهابيين ومدح السلطان محمود الذي حاربهم ، وتبدأ القصيدة بأبيات فيها تمجيد عام للسلطان

(٢٨) مطالع السعود - الورقتان ١١٨ و ١١٩

(٢٩) لم أجد من القصيدة غير هذا البيت اما الرسالة ففي (مطالع

السعود) الورقة ١٢٠

(٣٠) راجع ص ٢٨

وجيوشه وتنتهى بأبيات قليلة فى ذكر حادثة (المورة) (٣١) وقد تخلل البداية والنهاية أبيات غير قليلة فى وصف العقيدة الوهابية وأتباعها وأعمالهم والتوفيق الذى حالف السلطان فى القضاء على هذه الدعوة وأنصارها ومن تلك القصيدة قوله

بشرى أمير المؤمنين فانى أبصرت فيك على العدى المستنصرا
أصبحت فينا واثقا متوكلا بدرا اذا ليل النواذب أعكرا
اذ زرتهم بكتاب دينية فقريتهم بالبيض موتا أحمر

★ ★ ★
أمطرت (عارضهم) بعارض بندق فجرى به واديهم فدمرا
★ ★ ★
فتنافس الحرمان منك بمعدل أمضى من الليث الهصور وأغيرا (٣٢)

وللشيخ صالح التيمى بيتان قالهما فى عودة عبدالعزيز الشاوى (٣٣)
من نجد وهما

ركن الفخار بركن البيت محتجب فاعجب لركنى علا فى ساحة جمعا
كأن شيطان نجد حين شاهده عفريت جن رمته الشهب فانقمعا (٣٤)

الشعر فى المرحلة الثانية :

كان الخلاف الذى اشتد بين عبدالله وسعود ولدى فيصل قد أدى الى استنجد عبدالله بالدولة العثمانية لطرد أخيه سعود من الاحساء ، وفى أيام الوالى مدحة كان هذا الاستنجد ولم تكد سنة ١٢٨٨هـ تحل حتى كانت أول قافلة من الفيلق السادس فى طريقها من بغداد الى الاحساء وانتهت المعارك بانتصار الجيش العثمانى ومتطوعى العراق (٣٥) وقد كانت هذه الحملة

(٣١) ستأتى هذه الابيات فى مكانها المناسب من الفصل الرابع

(٣٢) مطالع السعود الورقة ١٥٢

(٣٣) راجع ص ٥٦ وقد ورد فيها اسم محمد الشاوى

(٣٤) ديوان التيمى ص ٧٧

(٣٥) راجع ص ٥٨

مناسبة قمة لشعراء العراق فقد تناولوها من زاوية المدح للدولة وللسلطان والوالى (مدحة) وأنصاره من العراقيين وغيرهم وقد تباروا فى التهنته بالانتصار وبالاوسمة والنياشين التى منح بها السلطان عبدالعزيز من كان ذا أثر فى هذه الحملة ولاسيما والى الذى ظفر بسيف ثمين حمل اليه من الاستانة •

وكان عبدالغفار الاخرس من أبرز الشعراء الذين أسهموا فى تخليد هذه الحملة فقد نظم بعض القصائد فى مدح والى مدحة والسيد محمد سعد نقيب البصرة و (نافذ) قائد الفيلق وغيرهم وصعد بممدوحيه صعود الشاعر المبالغ لانهم عصموا نجدا من الاشرار وبذلوا أنفسهم فى خدمة الدولة ، أما (مدحة) فانه استرد الملك الضائع واسترجعه لاهله •

وهذه احدى قصائده وقد نظمها عندما وصل والى مدحة الى البصرة متوجها الى الاحساء بعد الاستيلاء عليها وبعد وصول السيف اليه من لدن السلطان ، وفى القصيدة مدح ممزوج بشئ من الآراء فى تفسير أعمال السعوديين وأولها

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| سعدت نجد اذا وافيت نجدا | بقدم منك اقلا وسعدا |
| واذا أصبحت فى احساها | قل للشر عن الاحساء بعدا |
| أقل الخير عليها كله | منجزا فيك بلطف الله وعدا |
| وأراد الله أن يعصمها | من شرار كادت الاخيار كدا |
| كان كالضائع ملكا مهملا | فاسترد الملك أهله فردا |

ولولا الاعتقاد بالخلافة العثمانية لما اندفع الاخرس الى هذا الرأى الذى كان يدين به الكثيرون من أمثاله وهو أن بلاد العرب ملك للسلطان العثمانى •

ويسجل الشاعر انتصار مدحة فى هذه الحملة بعد فشل الحملات السابقة التى وجهت من العراق لامترداد هذا القطر فيقول
اذ تصديت لأمر لم نجد قل عليك له من يتصدى

أما الانصار والاعوان من الجنود والمتطوعين فانهم

بذلوا أنفسهم فى خدمة أورثتهم بعدها عزا ومجدا
 ثم يوصى مدحة بأن يحكم ما استنقذه حكم المستبد
 فاركب البحر وخض لجته يا شبيه البحر يوم الجدما
 وانظر الملك الذى استنقذه واجر ترتيك فيه مستبدا
 ويهته بالسيف المهدي اليه من السلطان
 يهنك السيف الذى أهدي من ملك أهدها انعاما وأسدى
 ويعبر عن الدولة بقوله

دولة قد أيدت واتخذت من جنود الله أنصارا وجندا^(٣٦)
 وليس من المفارقات الغريبة أن يزعم الاخرس بأن الدولة انتصرت
 بجنود الله على السعوديين الذين كانوا يحاربون باسم الدين كما يزعمون
 فان كلا الفريقين كان يدعى الحق الدينى لنفسه لا لغيره وبهذا الزعم
 سبق أن احتل الوهابيون الاحساء وحاربوا أهلها^(٣٧) لانهم ليسوا
 على مذهبهم^(٣٨) .

وهذه قصيدة اخرى لعبدالفار الاخرس قالها فى مدح السيد محمد
 سعيد نقيب البصرة مطريا بها أعماله فى مساعدة الدولة العثمانية ولم يقتصر
 على مدحه بل مدح السلطان والوالى ومعاونيه أيضا ومنها

حتى اذا العيد وافانا بفرته أقر شوال فى عيني أبى رجب^(٣٩)
 هو السعيد الذى يشقى العدوبه من ذا يعاديه فى الدنيا ولم يخب
 لما دعاه ولّى الامر متدبا أجابه وأراه خير متدب

(٣٦) راجع (الطراز الانفس) ص ١٢٥ - ١٢٧

(٣٧) راجع الحاشية ٦٤ من الفصل السياسى

(٣٨) جاء فى (عنوان المجد) لصيغة الله الحيدرى (الورقة ٨٨)

أن أكثر من ثلثى سكان الاحساء شيعة اما القطيف فكل أهلها شيعة
 وجاء فى (الزوراء) العدد ١٥٨ من السنة الثالثة أنهم شكوا من
 آل فيصل والتجأوا الى العساكر السلطانية وجاء فى (الزوراء) أيضا
 - العدد ٢١٠ من السنة الثالثة أن أكثر سكان قرى الاحساء شيعة

(٣٩) كان نظم هذه القصيدة فى عيد شوال سنة ١٢٨٨هـ وأبو
 رجب كنية المدوح .

لقد كفى العسكر المنصور نائبة تجنو لها نوب الدنيا على الركب
وقومت كل معوج صوارمه وسكنت منذ وافى كل مضطرب

اما وريك لولاه لما خمدت * * *
نار لها غير فعل النار والحطب
أما الذين ذهب النقيب الى محاربته فانهم

بنوا لما نزع الشيطان بينهم والبغى يسلم أهليه الى العطب

ثم يشير الى الوسام الذى منحه السلطان هذا النقيب وما أسداه الوالى
الى الممدوح

ليهنك النصر والفتح المين وما بلغت من جانب السلطان من أرب
لئن جباك بنشان تسر به فانه بك من بين الرجال حبي
هذا المشير أعز الله دولته أبان فضلك اعلانا لكل غبي (٤٠)

وما حول النص هنا يدل بصراحة على ما كان للزعماء والوجهاء من
تهافت لارضاء الدولة واكتساب عطفها وأوسمتها لكى يظهروا أمام الاهلين
بأنهم هم المقربون والمتنفذون •

ويكرر الاخرس تهنته بهذا (النيشان) المنوح للنقيب فيقول له
دمت بالنيشان والعيد سعيدا فترى أيامك الغراء عيدا (٤١)

أما القائد (نافذ) فان له نصيبا من مدح الاخرس لانه شارك فى هذه
الحملة مشاركة فعالة ، ومن ذلك قوله

ألا من مبلغ عنى سلامى رئيسا فى العراق على النظام (٤٢)
رآه مفخر الدنيا حساما وقد يغنيه عن حمل الحسام
فقدمه المشير ليوم بأس يقدم من الخوارج (٤٣) كل هام

(٤٠) الطراز الانفس ص ٦١ - ٦٣

(٤١) راجع المصدر السابق ص ١٣٨ و ١٣٩

(٤٢) يريد بالنظام (الجند) وهو تعبير عصره

(٤٣) يرى (جب) أن الوهابيين وقعوا فى مثل ما وقع فيه الخوارج

من الخطأ فتعرضوا لاضطهاد الاكثرية وقضى عليهم سياسيا راجع
Modern Trends in Islam. p. 26-32. 2 nd

ويمدح بهذه الايات الوالى مدحة لانه بذل خدمة عظيمة للسلطان
رمى من بالعراق عصاة نجد وزير ما رمى مرماء رامى
وأدى خدمة عظمت وجلت بهتمته لسلطان الانام^(٤٤)
وهذا شاعر من مدينة كربلاء التى تطلب الوهابيين بثأر كبير يقدم
تهانيه للوالى مبتدئا بمدح السلطان أما الشاعر فهو السيد أحمد رشدى^(٤٥)
وهذا بعض ما قاله

بدا نور ظل الله يشرق كالصبح فطبق وجه الارض بالعدل والنجح
ملك على العرش استوى ولعزه جميع ملوك الارض تعلن بالمدح
أما الوالى مدحة فانه

وزير على متن الوزارة قد رقى أحاط بها خبرا فما احتاج للشرح
وسير جيشا نحو نجد فحققت قلوبهم خوف العساكر فى جنح
ولا أرى حاجة للتعليق على ما فى البيت الاخير من ركة ومن استعمال
كلمة (جنح) بدل جناح لتم الاستعارة ، ومهما يكن من شئ فقد أراد
الشاعر أن يظهر براعة فى التاريخ فقال متما هذه الايات
ومذ فتحت نجد دعا السعد أرحوا لقد جاء نصر الله يزهر بالفتح^(٤٦)

وهذا شاعر آخر من كربلاء أيضا وهو الشيخ (فليح)^(٤٧) يمدح
السلطان عبدالعزيز ويمجد الوالى مدحة والجيش الذى سار لفتح الاحساء
ويتطرق لقرار سعود بن فيصل فيقول بأسلوبه الضعيف
ألا فليسر المجد اذا فتحت نجد ديار تولى فتحها الجد والجند
لعبد العزيز المستطيل بعزه على كل موجود لقد وجب الحمد
شهنشاه ظل الله راعى عبادته مليك هدى ملك الملوك له عبد

(٤٤) الطراز الانفس ص ٣٨٦ - ٣٨٧

(٤٥) لعله الرشتى

(٤٦) الزوراء - العدد ١٥٨ من السنة الثالثة ١٥ ربيع الاول سنة

١٢٨٨هـ

(٤٧) يلفظ بتشديد الياء وهو تصغير فلاح وقد يكون عند العامة

تصغير فالح

به جهاز الوالى تبارك جده جنودا عليها رفرق النصر والسعد
ولما تعالى سعد (مدحة) رفعة بأوج المعالى واستتار به المجد
سعود (سعود) الشر غابت فأرخوا بحزم عزيز الجند قد فتحت نجد (٤٨)

وتهز هذه الحادثة شاعرا آخر من موظفى الدولة وهو أحمد عزة
العمرى (٤٩) فيمدح السلطان والوالى ، ويؤرخ الحادثة أيضا فيقول

من أرض بغداد الى قطر الحسا عند الصباح حمد القوم السرى
جهاز جيش النصر منا مدحة والى حمى الزوراء فخر الوزرا
أركب نصف شقه اليد ضحى وأركب النصف الاخير الأبحرا
سخر نجدا وقطيفا بعدما صاحبها لقد بغى واستكبرا
أحاطها الجيش بعزم (نافذ) (٥٠) أضحى على تسخيرها مقتدرا
جند أمير المؤمنين قد غدا أرخ بنجد أبدا مظفرا (٥١)

ولم يكف أحمد عزة بهذه المقطوعة بل نظم قصيدة اخرى يصف بها
السيف المهدى الى الوالى مدحة ويمدح هذا الوالى لانه عمر العراق وأنقذ
الاحساء كما يرى الشاعر فيقول
لله سف لاح وهو مذكر فى حده غدت الأعادى تنحر
ويخاطب الوالى قائلا

يا أيها المولى المشير ومن به بدر الوزارة يستير ويزهر
عمرت أطراف العراق وانه لولاك ما كان الولاية تعمر

ثم تأتى العامة المهمة التى لا تربط بين شطرى البيت ربطا موفقا فيقول
مستخدما الجناس

(٤٨) الزوراء العدد ١٥٨ من السنة الثالثة

(٤٩) كان اذ ذاك مديرا لشركة (التراواى) فى بغداد ثم صار
محررا لجريدة الزوراء فكاتبا فى ديوان الوالى ومترجما من التركية الى
العربية وهو ابن أخى عبدالباقي العمرى ، توفي فى الاستانة سنة ١٣٠٩هـ
وله شعر غير قليل فى (الجوائب) و (منتخبات الجوائب)

(٥٠) يورى بالقائد نافذ الذى قاد الحملة

(٥١) الزوراء - العدد ١٦٤ من السنة الثالثة

قطفت يداه من القطيف ثمارها والفصن يكثر حسنه اذ يثمر
 ثم احتسى الأحسا بكأس تعرض والكأس في بعض المواضع تسكر
 ثم يلتفت الى الوالى ويشير الى القطر الذى كان مغلقا ففتحه فيقول
 وفتحت قطرا كان عنا مغلقا ففدا به ماء العدالة يقطر
 وجعلته فوق العراق ضميمة والمملك فى حين الضميمة يكبر
 فجباك سلطان الانام بسيفه كرما وفضلا شكره لا يحصر

ويؤرخ وصول السيف الى الوالى فيقول

وغدا الفخار يقول فيه مؤرخا سيف ترصع بالكمال مجوهر^(٥٢)
 ونظم محمد أمين العمري^(٥٣) أبياتا بهذه المناسبة فهنا الوالى ووصف
 خصومه بالبغي وعبر عن نجد بأنها فرع من بغداد وان الفرع قد ضم الى
 الاصل وطلب من الوالى ألا يكتفى بنجد بل يمد يده الى جنوب الجزيرة
 العربية أيضا فقد كان الجنوب ولاسيما اليمن فى صراع مستمر مع
 الدولة فقال

أيا والى الزورا الذى لجلاله جميع ولاية الارض تدنو وتخضع
 لك المنشآت الغر فى البحر انها تروح بنصر الله طورا وترجع
 أضفت الى الزوراء نجدا بأسرها ولا شك أن الفرع للاصل يتبع
 ومن ظلم أهل البغي أنقذت أهلها فأضحت بجنات العدالة ترتع
 عليها جعلت الجند سورا مشيدا وحصنا حصينا للمفاسد يمنع
 فأنعم ظل الله سيفا مجوهرها عليك به أنف الشقاوة تجدع

★ ★ ★

وانى لأرجو أن تكون ضميمة عليها بلاد حازها قبل تبع^(٥٤)

(٥٢) الزوراء - العدد ١٨١ من السنة الثالثة

(٥٣) كان (كهية - كتخدا) فى بغداد أى (باب العرب) وهذه
 الكلمة تعنى الآن مدير شؤون العشائر وهو ابن أخت عبدالباقى العمري
 وقد توفى سنة ١٢٨٨هـ أى فى السنة التى نظم فيها هذه الابيات
 راجع (المسك الاذفر) ص ١٥٥

(٥٤) راجع (العراق بين احتلالين) ص ٢٦٥ - ٢٦٦ من الجزء

السابع

وهذه مقطوعة اخرى لشاعر لم أهتد الى معرفة اسمه وهي مثل سالفاتها
من حيث التعبير والفكرة ففيها مدح للسلطان والوالى وذم للذين حاربهم
الجيش وفيها يقول

| | |
|---------------------------------------|-----------------------------------|
| بشائر الفتح فتح نجد | قد أسفرت مثل ضوء صبح |
| اذ جهز الجيش جيش نصر | من اسمه شائع بمدح |
| والى العراق الذى تولى | بعزمه مع جميل صفح |
| طاعت وحوش الاعراب ^(٥٥) طرا | لبأسه بعد حسن نصح |
| بظلل سلطاننا المعلنى | سامى الفتوحات رب منح |
| من العزيز القلاح وافى | أرخت هذا عزيز فتح ^(٥٦) |

وهذه أبيات لشاعر من شعراء التجف وهو السيد ابراهيم الطباطبائي
المتوفى سنة ١٣١٩هـ وقد أغفل ذكر المناسبة الا أن الابيات صريحة فى أنها
نظمت فى هذه الحادثة لان فيها مدح السلطان عبدالعزيز وذكر نجد وقد
جاء فيها قوله

| | |
|----------------------------|---|
| أعز ملوكنا عبدالعزيز | أذل عداه بالأسل العزيز |
| فيا بحر العروض جرى طويلا | بظهر البر يرشح بالنزير |
| ويا نجدا به نجد استقلت | مشرعة العماد على النشور |
| رسا جبلا على الجبل المسامى | تبرا لا يزلزل بالهزير |
| أبى السيف الصنيع سوى قراع | بكفك والقناة سوى الغموز ^(٥٧) |

شاعر مع الوهابيين

لقد كان الشعر الذى قدمته فى الصفحات السابقة موجها ضد الدعوة
الوهابية وأنصارها مستكرا أعمالها وحروبها مادحا مقاومتها من رجال الدولة
العثمانية ، وجميع هذا الشعر على اختلاف منابه وعواطف أصحابه وعلى

(٥٥) هذا التعبير من أساليب حكومة بغداد آنذاك راجع العدد
١٩٥ من جريدة الزوراء - السنة الثالثة ٢٨ شعبان ١٢٨٨هـ .
(٥٦) العراق بين احتلالين ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من الجزء السابع
(٥٧) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ١٤١ - ١٤٢

ما بين بعضه وبعض من بعد في الزمن وتفاوت في الاساليب يلتقى عند نقطة واحدة وهي مناهضة الوهابيين وأعمالهم ، ولكن شاعرا عراقيا واحدا انفراد بتمجيد الوهابيين وسار في ركابهم ومدح عقيدتهم وبرر أعمالهم وتملق رؤساءهم ، وهو السيد عبدالجليل^(٥٨) الطباطبائي البصري المتوفى سنة ١٢٧٠هـ غير أن هذا الشاعر لا يستطيع أن يضع نفسه في مصاف شعراء عصره من حيث الاسلوب والصياغة بل كان شعره وسطا وقد يسف فيه الى ما دون الوسط فيأتي به ألفاظا لا تخضع لغير الوزن كما أنه لم يستطع أن يسلك في مبدئه السياسي طريقا واحدا لا ينحرف عنه فهو مع السعوديين حين يكون في نجد وعلى ساحل البحر العربي وهو مع الدولة العثمانية وسلطانها وولاتها حين يكون في البصرة موطنه وموطن أسرته وهو مع شرفاء مكة حين يحج بيت الله الحرام ، والدولة العثمانية وشرفاء مكة خصوم الدعوة الوهابية ، لذلك خلا شعره من الصدق وحرارة العاطفة ولكنه على كل حال يمثل لونا من ألوان الشعر العراقي في تصوير جانب من جوانب الحركات السياسية وبخاصة تلك الحركات التي مثلتها الدعوة الوهابية في نجد والاحساء وعلى الساحل العربي . ولو لم يكن السد عبدالجليل يتردد على الاقطار الساحلية بين الاحساء والكويت والبحرين لأعماله التجارية ولو لم تلجئه الضرورة لما رضى أن يقعد في مكان المعارضة لمعاصريه من شعراء العراق ففي الوقت الذي كان فيه هؤلاء الشعراء يرون الدعوة الوهابية مروقا على الاسلام وخروجها على الاجماع كان عبدالجليل يرى فيها احياء للدين وتشيدا لاركانه وقمعا للبدع وهو في ذلك لا يختلف عن أى شاعر يعيش مع السعوديين آنذاك .

وأول قصيدة ينظمها في مدح الوهابيين كانت بمناسبة حرب سعود بن عبدالعزيز مع أمراء البحرين سنة ١٢٢٤هـ وكان هؤلاء قد رفضوا الخضوع

(٥٨) أسرته معروفة في البصرة ولها بساتين من النخل وقد ولد عام ١١٩٠هـ وسافر الى البحرين واشتغل بتجارة اللؤلؤ وكان كثير الاسفار وتوفى بالكويت وترك ديوان شعر سماه (روض الغل والخليل - ديوان السيد عبدالجليل)

لسعود عن طوعية فأرسل اليهم جيشاً أخضعهم وأمر رؤساءهم بالذهاب الى الدرعية فوصلوها في محرم من سنة ١٢٢٥هـ^(٥٩) وكان هؤلاء من آل خليفة أصدقاء الشاعر وكان هو في البحرين عندما غلبوا على أمرهم ولحقه من الضرر ما لحقهم فقد أسره أتباع سعود وبقي في أيديهم من صفر سنة ١٢٢٥هـ الى صفر سنة ١٢٢٦هـ^(٦٠) وقد قضى من هذه المدة ثلاثة أشهر في الدرعية عند سعود وسعى لفكك آل خليفة^(٦١) وكانوا قد بقوا في الدرعية الى رمضان سنة ١٢٢٥هـ^(٦٢) .

ويشير الشاعر الى أنه نظم هذه القصيدة في ذي الحجة سنة ١٢٢٤هـ^(٦٣) وأرسلها الى سعود بن عبدالعزيز ومعنى ذلك أنه أرسلها بعد المعركة التي وقعت بين سعود وأمراء البحرين^(٦٤) وقبل أن يقع هو أسيراً بأيدي السعوديين واذا صح ما زعمه فانه يكون قد خاف من الضرر فأراد أن يتجنبه بنظم القصيدة ولكنه وقع فيما خاف منه .

والقصيدة طويلة بدأها بالشكر للباري الذي أتحف الناس بدين (محمد) فأثار القلوب به فقال

تاركت يا مولى الملوك الأعظم (عزيت)^(٦٥) يا مبدى الجميل وراحمي

(٥٩) عنوان المجد لابن بشر ص ١٤٧ من الجزء الاول

(٦٠) مباحث عراقية - ص ١٩٥ من الجزء الاول

(٦١) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٦٢) هذه رواية الشاعر كما جاء في (مباحث عراقية) ص ١٩٦

ج ١ اما عثمان بن بشر فيشير الى أن عودتهم كانت سنة ١٢٢٦هـ باذن من سعود راجع (عنوان المجد) ص ١٥٤ ج ١

(٦٣) روض الخل والخليل - ص ١٤ طبع مصر و ص ٢٠ من طبعة الهند

(٦٤) حدثت حرب أخرى بين قوات سعود وبين أبناء الامراء من آل خليفة سنة ١٢٢٥هـ وكانت بحرية أكثر منها برية وقد تغلب فيها آل خليفة راجع (مباحث عراقية) ص ١٩٥ ج ١ و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٤٧ و ١٤٨ ج ١

(٦٥) يريد بها (عززت) وهي لغة من يقلب الحرف الثاني من المضعف ياء

ثم قال

جزى الله رب العرش بالصفح والرضى وبالخير من قد كان أصدق قائم
هو الورع الاواه شيخى (محمد) هو القانت السجاد فى جنح فاحم
وبعد أن يستمر فى مدح محمد بن عبد الوهاب ودعوته التى جاء بها
فى زمن كثرت فيه البدع وانتشر الفسوق والعصيان وقل الناهون عن المنكر
والأمرون بالمعروف بعد هذا كله ينتقل الى مدح عبدالعزيز بن محمد الذى
آزر محمد بن عبد الوهاب فى بداية الدعوة ومكن للعدل حتى تساوت لديه
الرعايا وفازت بالعيش الرغيد ، وقاد الجيوش مثل السيول
فألبس أهل الشرك أثواب ذلة بأسر وقتل واكتساب المغام
وبعد أن يحكم الشاعر على المسلمين بالشرك كما حكم عليهم
الوهابيون يقول

الى أن أباد الله كل معاند وفرق شمل الباطل المتراكم
ورد جموع المشركين بغيظهم وما قط نالوا غير شر الهزائم

ثم يمدح سعود بن عبدالعزيز فيقول

سعود أدام الله أيام سعده وكان له الاقبال خير ملازم
امام الهدى بحر الندى من سقى العدا كؤوس الردى حتى اهتدى كل راغم
وبعد أن يسبغ على سعود ما شاء من الصفات والنعت يستعرض حادثة
آل خليفة أمراء البحرين والجيش الذى زحف عليهم من نجد والقواد
البواسل الذين قادوا ذلك الجيش فأخضعوا أمراء البحرين
وألقى اليهم أمره ابن خليفة وعض لأمر غره كف نادم
فأولاه غفرانا وصفحا امامنا وناصحه فى أخذه للكرائم (٦٦)

(٦٦) بعد أن أفلتت الشاعر من السعوديين ناقض نفسه فقد جاء فى
رسالة بعث بها الى صديقه فتح الله بن نعمة الله الحلبي مشيرا الى عودة أمراء
البحرين بعد أن أعطوا ابن سعود الموائيق بالطاعة وانهم نبذوا الموائيق
جاء فى الرسالة قوله « والذى ألجأهم الى نقض العهد هو ما أذاقهم سعود
من النذل والهوان وأخذ كريم الاموال من الخيل والركاب والسلاح »
راجع الرسالة فى (مباحث عراقية) ص ١٩٦ من الجزء الاول وهى مؤرخة
فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٦هـ ١٨١١م

ويختم القصيدة بقوله مخاطبا سعودا
هنا لك الملك الذى أنت أهله ومانعه من سوء باغ وظالم

وقد حذفنا من القصيدة أكثرها مكتفين بالإشارة الى ما تضمن القسم المحذوف من أهداف وأغراض تتصل بالدعوة الوهابية ومؤسستها وأنصارها على أن قسما منها غير قليل تعرض للحالة الاجتماعية فى نجد وغيرها ولاسيما ما يتصل منها بالبدع والخرافات والمفاسد وسواء أكانت القصيدة بدافع من خوف أو طمع فانها تصلح أن تكون متنا من متون التاريخ لتلك الدعوة فى بدايتها^(٦٧) .

وفى موقف آخر من مواقف الطمع والتقرب ينظم هذا الشاعر قصيدة اخرى فى مدح سعود بن عبدالعزيز عندما وفد اليه مع آل خليفة سنة ١٢٢٥هـ فيقول فيها

عليك سلام أيها الملك الذى اليه ملوك العصر قد ألفت الأُمرا
جمعت شتات المكرمات سجية فسدت الورى مجدا وفقتهم فخرا
وظاهرت دين الله بالبيض والقنا وبرهانك القرآن والسيرة الغرا^(٦٨)

والذى أراه أن هذا الشاعر لم يكن قد نظم هذا الشعر بدافع دينى ولم تكن مواقفه هذه بوحى من عقدة بل كانت بدافع من الخوف والطمع لانه حضرى لا يقوى على مواجهة البدو ولا يطيق خشوتهم ودليل على تملق الشاعر وعدم صدقه فيما نظم من مدح للدعوة الوهابية وأنصارها ما جاء فى رسالته التى بعث بها الى صديقه الحلبي وهو قوله

« لما كنا فى أرض ابن سعود كنت فى أسوأ حال كارها معاشرة غير المشاكل والمجانس وفى أرض لا نعرفها وناس ما ألفناهم ٠٠٠ ثم ان جماعتنا من بنى عتة - يعنى بهم أمراء البحرين - بعدما من الله عليهم بالنصر والظفر على عدوهم وقطع دابرة ابن سعود من جميع ساحل البحر استراحوا

(٦٧) راجع القصيدة فى (روض الخل والخليل) ص ١٤ - ١٦ من طبعة مصر و ٢٠ - ٢٢ من طبعة الهند

(٦٨) راجع (روض الخل والخليل) ص ١٧ طبعة مصر

واستقروا» (٦٩) • فأين نضع هذه الرسالة من ذلك الشعر ؟

فى المرحلة الثانية

وبعد أن استقل تركى بن عبدالله فى الرياض معيدا الحكم السعودى أرسل اليه السيد عبدالجليل هذا مقطوعة مع كتاب تأييد ريك الاسلوب وكان ارسال المقطوعة مع الكتاب فى سنة ١٢٤٨هـ وهى جواب على كتاب ورد من تركى كما يدعى الشاعر^(٧٠) ، وقد جاء فى المقطوعة قوله

أخذت بالهمة العلاء منفردا ما يعجز الجحفل الجرار مجتمعا
ونلت بالحزم ما لم يجر فى خلد وأن يمد اليه طالب طمعا
صبرت محتسبا تحت المكاره لا من مسعد منجد أن تدعه سمعا
فى قفرة لس فيها للطريد حمى ولم تجد موثلا مهما تكن فزعا
لم يشك الهول عما رمت غايته ولم تكن فى الذى كابدته جزعا
حتى امتطيت ذرى العلاء لا أشرا ولا فخورا ولا مستكبرا قذعا^(٧١)

وبعد أن قتل تركى بن عبدالله سنة ١٢٤٩هـ على يد ابن اخته وجاء ابنه فيصل فقتل القاتل وحل مكان أبيه زحف جيش مصرى واحتل الرياض وسبق فيصل الى مصر سنة ١٢٥٤هـ ثم فر من مصر سنة ١٢٥٩هـ وعاد الى الرياض فاحتلها واقام فيها يدعو الناس^(٧٢) وفى هذه السنة أرسل اليه السيد عبدالجليل قصيدته طويلا قال فيها

امام أتنا بالمسرة والهنا وبالغز والعدل العيم وبالرشد
ومن المعروف أن أهل نجد من الوهابيين كانوا يطلقون كلمة الامام على كل من يتولى الحكم من آل سعود • ثم يشير الى ما حدث ليفصل فى مصر

فصل مصر عنه هل رأيت غير حازم أبى على حمل العنا صابر جلد

(٦٩) راجع (صاحب عراقية) من ١٩٦ ج ١

(٧٠) روض الخل والخليل - ص ٦٥ و ٦٦ طبعة مصر

(٧١) المصدر السابق ص ٦٦

(٧٢) اجمع ص ٣٤

ففوض لله المهيمن أمـره وعاذ يرب الناس من شر ذى حقد
وعاد يحمد الله غير مدافع عن الامر ممون النقية والقصد
ثم يصف حالة نجد بعد غياب فيصل فى مصر فيقول

وأنهى لك الحال مذغت غالنا بنيتك الدهر العبوس على عمد
جلاء وتنكيد وغرم وذلة ولا ناصر للحق ذو نخوة يجدى
ثم تتكشف الحقيقة عند الشاعر ويوضح عما فى نفسه من أنه
لم يمدح عن عقيدة بل عن طمع وتقرب وأمل بالطاء الذى يستريح به من
الكد والتعب فيقول

وأرجو من الرحمن يدل ما مضى بمال يريح القلب من وصمة الكد
واكتفى من هذه القصيدة بما ذكرته لان معظم أبياتها تكرر واعادة
للمعاني التى يعرفها الشاعر أو لا يعرف غيرها وهى معان مبتذلة لكثير من
النظاميين من أمثاله (٧٣) .

هذا ما استطعت أن أظفر به من الشعر العراقى الذى سار فى ركاب
الدعوة الوهابية ومجد أصحابها وأتباعها والمحاربين باسمها ، وهذا الشعر
لم يكن من الرصانة والقوة بحيث يمكن أن يوضع من حث المجموع الى
جانب تلك القصائد والمقطوعات التى ناهضت الدعوة الوهابية وأتباعها وان
كان بعضها ضعيف الاداء ركك الاسلوب .

وهذا أيضا مجموع ما استطعت أن أظفر به من الشعر العراقى الذى
أوحته الدعوة الوهابية وحوادثها سلبا وإيجابا وقد رأيت أن الشعر الذى
ناوأ الدعوة الوهابية وأصحابها كثير فى الكم فهو لشعراء متعددين كان لهم
شأن فى تاريخ الادب والشعر خلال القرن التاسع عشر وان أية موازنة
تعقد بينهم وبين شاعر واحد وقف فى صف الوهابيين موقفا مضطربا تبدو
موازنة غير سليمة اذ لس ثمة من تكافؤ فى الاسلوب والعاطفة يجعل الموازنة
ذات أثر فى البحث أو أنها من سماته وقد رأيت أيضا أن العاطفة الدينية

(٧٣) راجع القصيدة فى (روض الخل والخليل) ص ١٤٦ و ١٤٧

طبعة مصر وعنوان المجلد لابن بشر ص ١٠٦ - ١٠٨ ج ٢

كانت أشد تأثيراً من غيرها فى الشعر الشيعى الذى صور هجوم سعود على مدينة كربلاء واذا كانت هذه العاطفة تلتقى مع النظرة السياسية فى حدود اغفال الدولة العثمانية وعدم الاعتماد عليها فى دفع الشر • أما بقية الشعر الذى وقف الى جانب الدولة العثمانية ومجد أعمالها فى محاربة الدعوة الوهابية وأنصارها فانه شعر يدخل فى باب المدح أكثر مما يدخل فى باب العقيدة وان كان للعقيدة تأثير فيه كما فى شعر عثمان بن سند الذى استعمل سلاح الوهابيين فحاربهم به ورماهم بالزيف والضلال ، وكما فى بعض القصائد والمقطوعات الاخرى التى لم تغفل الجانب الدينى فى تبرير مواقف الدولة العثمانية من هذه الدعوة الجديدة •

الفصل الثاني

الشعر بين الحس العربي والشكوى العامة

مر بنا في أواخر الفصل الساسي ما كان عليه العراق من تأخر في مجال التيارات الحديثة التي ظهرت في مصر وسوريا ولبنان وقد بينا الاسباب التي حالت بين العراق وبين التطور والاقباس وأدت الى بقاءه في تلك الدوامة العثمانية المطبقة فلم تسر اليه الاشعة التي امتدت الى البلدان العربية الناهضة ومنها الشعور بالحرية والانتفاض من سات الجهل والحرمان وكان القصد مما أشرنا اليه أن نستعين على تفسير الشعر الذي يلمس منه استنكار للحكم أو استياء من مظاهره العامة في العراق وكذلك الشعر الذي قيل في الحماسة والفخر والاعتزاز بالعرب وأمجادهم القديمة وتأييد ثورات بعضهم هنا وهناك في تاريخهم الحاضر أو الشعر الذي شكاه فيه أصحابه من الفاقة والحرمان ونكد العيش مما له ارتباط بفساد الاحوال السياسية والاجتماعية ، ومما هو بديهي أن الشعر العراقي في القرن التاسع عشر كان يستمد مقوماته من التراث القديم ويستوحى في موضوعاته عصره وبيئته فلم يستطع الخروج عن هذا المحيط ليتلمس طريقه على ضوء المفاهيم الحديثة التي لم تصل الى العراق آنذاك لذلك بقيت الموضوعات والاساليب التقليدية أهم ما يرتبط به الشاعر فلم يكن باستطاعته أن يتناول الاهداف العامة التي تناولها بعض

الشعراء في مصر وسوريا ولبنان من المطالبة بحرية العرب واستقلالهم أو استقلال الشعوب التي يتمتعون اليها على أقل تقدير بل لم يكن باستطاعة الشعر العراقي أن يدعو الى استقلال العراق وانفصاله عن الخلافة العثمانية التي كانت هي الاخرى موضوعا بارزا من موضوعات الشعر ، أما الشعر الذي يمكن أن يسمى ظاهرة من ظواهر الاستياء والمناهضة للحكم فانه كان يدور في أساليب محدودة لا يدل معظمها على سعة أفق وعمق تفكير وان كان بعضها قد ثار وحرّض ودعا الى الانتفاض على الظلم وتناول سياسة الترك بما هي عليه من غدر وبطش ولكن هذا - كما قلنا - كان يدور في الأفق الضيق المحدود ثم يذهب بذهاب فترة الاستحياء ليعقبه شعر مماليء للدولة وولائها ان لم يكن من الشاعر نفسه فمن الشعراء الآخرين ولعل من النادر جدا أن نرى شاعرا خلا شعره من الجمع بين الضدين •

ومهما يكن من أمر هذا الشعر فانه يمثل الفكرة القومية في بداية المرحلة ويستطيع أن يشارك في بناء النهضة الحديثة للادب العربي الناصد ، ومهما يكن من أمر هذا الشعر في ضيق النظرة فانه كان عدسة تلتقط في معظم الاحسان صورا مختلفة لتلك الظروف والاحوال السيئة ، وكانت تتوهج خلال ذلك الشعر التقليدي المكبل بأغلال المناسبات ومضات تطلق أشعتها في طريق المواطنين وان كانت ومضات ضعيفة متقطعة تدو حينا وتخفى أحيانا كثيرة •

طرق التعبير

لقد سلك الشعراء في التعبير عن فساد الحكم واضطراب الحالة السياسية طرقا متعددة لا تقل عنها طرق التعبير عن النزعة العربية التي ظهرت في شعرهم فقد كان بعضهم ذاتيا لا يتجاوز حدود الشكوى من الفقر والفاقة والسخط على المجتمع وظلمه وقسوته وعلى الحنة وضيقها ، وكان بعضهم يخرج عن ذاته فصرخ بقومه ويحثهم ويناديهم ويندد بالظلم ويتألم ويدفعه ألمه الى اللأس حنا والى الرجاء حنا آخر ، وكان بعضهم في شعره

القومى قبلى النزعة لا يفاخر الا بنفسه ولا يتحدث الا عن آباءه وأجداده ومثل هذا الشعر لا يختلف فى موضوعه عن أى شعر افتخر به القدماء فى عصور الحكم العربى غير أن بعضهم كان يصور الامانى التى يفكر بها ويرسم لها طريق الوصول ولكن بحروب خالية فيها كل خصائص الحروب ثم لا يقع شىء من ذلك الا فى عالم الشعر وحده . والى جانب ذلك كان نوع من الشعر يعبر عن نزعة خاصة لا تريد الحكم الا لبيت خاص من بيوت العرب وهذا الشعر هو الذى يتقنى به بعض الشعراء العلويين فهم حين يصرخون ويفتخرون وحين ثور حماسهم لا يرون موضوعا لهذا الفخر غير الانتساب للنبي وآله ولا ينتظرون قيام حكم صالح الا على أيديهم^(١) فى حين أن هؤلاء الشعراء مدحوا السلاطين والولاة فى الدولة العثمانية شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الشعراء الذين جمعوا بين الضدين فما تناولوه من موضوعات ، وما يلى عرض لأهم تلك الطرق والصور التى عبر بها الشعراء عن نزعاتهم العربية أو عن ثوراتهم وسخطهم على السياسة وما فيها من اجحاف وقسوة .

الفخر والحماسة

هذا اللون من الشعر ولد مع الشعر العربى وصوره شائعة فى العصر الجاهلى وما بعده وعلاقته بالسياسة ناشئة من ارتباطه بالحياة القبلية أيام كانت القبيلة صورة مصغرة للدولة فالشعر الذى يفاخر بها انما هو تأييد لها ولساستها ومثله الشعر الخاص الذى يعبر عن ذاتية الشاعر ونفسه دون الاشارة الى القسلة أو الست الذى ينتمى اليه اذا كان ذلك التعبير يتناول الدوافع والبواعث التى حملته على الفخر والحماسة ومنها الشعور بالذل وعدم الاستقرار ، غير أن هذا الذى قلناه لا ينطبق على القرن التاسع عشر تمام الانطلاق فان وجود القسلة العربية فى العراق لا يعنى أنها مستقلة سياسيا وانها تحكم نفسها بنفسها فما يقال فيها من الشعر يعد شعرا سياسيا

(١) سيأتى فصل خاص بالشعر السياسى عند الشيعة

لانه يدافع عنها ويفخر بها ، أو ما ينظمه بعض الافراد لذاته ونفسه يعد أيضا شعرا سياسيا اذا كان فيه تعبير عن البواعث والدوافع ، ولهذا السبب لا يمكن الحكم على هذا اللون من الشعر بأنه يمثل رأيا سياسيا واضحا وانما تبدو أهميته في كونه تعبيراً عن نزعة لا تريد الذوبان في تيار العجمة الحاكمة وفي كونه من عوامل التنبيه الى مواطن العزة والتماكك ازاء ذلك التيار المخيف وان لم يكن ذلك من قصد الشعراء في بعض الاحيان أو في كثير من الاحيان لانهم شعراء مقلدون في موضوعاتهم وشعر الفخر والحماسة قد تكون صلتها بالتقليد والمحاكاة أقوى من صلتها بالاستقلال النفسى والشعورى في القرن التاسع عشر ، ومثل هذا الشعر كثير لا يمكن استيعابه ولما كانت صورته متشابهة فان بعضها يكفي للدراسة والحكم ومن صورته قول عبدالباقى العمري في تخميسه قصيدة السموأل

لئن نزلت أعدادنا فترارنا حباناً بما تحمى به الجار دارنا
ففر على كل البرايا جوارنا « وما ضرنا انا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل » (٢)

وللاخرس البغدادي صور كثيرة من الفخر الذاتى والحماسة المتدفقة ، وهو - وان أكثر من مدح السلاطين والولاة - لم يكن يردد في الغالب فخره وحماسه الا فى الشعر الذى يكون ممدوحه فيه عربيا أو علويا شريفاً ومن ذلك قوله من قصيدة فى مدح أبى التثاء الالوسى

اذا رأيت الذل رحلت له أنضاء أسفار وناوحت النوى
ونازعتنى شيمة لا ترتضى الا المعالى غاية ومنتهى
وكم هجرت موطننا من أهله والدار من سكانها قد تجتوى (٣)

وقوله فى قصيدة يمدح بها نقيب بغداد (٤)

ولست مقيما ما أقمت بمنزل وعشي أنكاد تسوء وأنكال

(٢) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٣٢٢ - ٣٢٣

(٣) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٨

(٤) هو السيد على النقيب وقد توفى سنة ١٢٨٦ هـ

وتصحبني في كل فج عزيمتي وأبيض هندی واسمر عسال
وما ملكت مني المطامع مقودا لصاحبها في موقف الضيم اذلال^(٥)

واذا كان عيش الاخرس أنكادا واتكالا فانه لم يكن ذا سيف ورمح
ومغامرات وانما هي خطرات تقليدية فيها شيء من التعبير عن واقع
حياته المرة •

ويجرد الاخرس من نفسه شخصا آخر فيخطئه مثيرا مستفرا لحمل
السلاح وخوض الحروب فيقول

فاترك الهزل يوم جد بجد ان هزل المقام بالشهم ذام
واطلب العز بالقنا والمواضي انما العز ذابل وحسام
فمرام المتى ونيل المعالي بسوى البيض والقنا لا يرام
واقترحها اذا نبت بك يوما فأرى المجد بابه الاقتحام
وادفع الشر ان علمت بشر ربما يدفع السقام السقام
وتقلد بالرأى قبل المواضي ليس يجدى بغير رأى صدام^(٦)

ان هذه المقطوعة من الشعر التعليمي وفيها حس قومي يؤمن بضرورة
العمل والكفاح ، وتثور حماسة الاخرس في قصيدة اخرى تدل على ما كان
يشعر به من ألم شديد في موطن لا يجدى الاحرار فيه غير حمل
السلاح فيقول

ألا ثكلت أم الجبان وليدها وفازت بما حازته أم المخاطر
أحن الى يوم عبوس عصصب تنوق له نفسى حنين الأباغر
الى موقف بين الأسنة والطبي ومنزلة بين القنا والمشاجر
يكثر فيه الموت عن حدنا به وتقود النايابا داميات الأظافر
ترفعت عن قوم اذا ما اختبرتهم وجدت كارأاً في ثياب الأصاغر
اذا ما رأيت الحي بالذل عيشه فأولى بذاك الحي أهل المقابر^(٧)

(٥) الطراز الانفس ص ٣٠١

(٦) الطراز الانفس ص ٣٤٢

(٧) من مجموعة للاخرس لم تنشر • الورقة ١٢ من نسختي الخطية

وهذا شاعر آخر من أسرة عربية معروفة في بغداد والعراق وهو
 عبد الحميد بن أحمد الشاوي المتوفى سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٦م فقد ترك لنا هذا
 الشاعر من فخره وحماسة ما يدل على طموح ونبوة واندفاع وتصوير
 لعصره ولبلده الذي صعدت فيه الاندال والثام واستخذي الامجد ، ومن
 ذلك قوله مفاخرا بنفسه وبأسرته

أرقت وهل يهجع المقصد ولس لليل المعنى غد
 وبت أراقب سير النجوم كأني بها ساهر أرصد
 بقلب فريح له لوعة تشب ضراما فما تخمد
 ويقول فيها معبرا عن استائه من بغداد موطن أسرته

فلولا عواد عدت جمّة لقلت - وان كنت لا أقصد -
 سقى الله بغداد صوب الحيا وطالعها الطالع الأسعد
 وان لم يكن لي في شطها - وان لج بي ظمأ - مورد
 ولكن تركت بها معشرا لهم طارف المجد والأتلد
 هم الناس ان عد أهل العلا وان ذكر الاصل والمحتد

ثم يحن الى الكرخ موطن أسرته ويشكو من دهره غير آبه بأحداثه
 وفي الكرخ لي كبد غودرت وقلب أضع فما يشد
 لقت من الدهر ما بعضه يذوب له الحجر الجلمد
 ولست لاحدائه ضارعا ولا أنا مكسب مكمد
 ولكنتي أنا جار على مدى همة شأوها أبعد

ولست أبالي اذا الحادثات * * * عظمى الى أيها أعمد
 وقومي الألى الصيد سادوا الورى وشادوا من المجد ما يخلد
 فتصا لدهر أخوه اللثم وأكر أعدائه الأمجد^(٨)
 وبرز الحسن العربي على لسان هذا الشاعر في قصيدة اخرى لعلها

(٨) أخذت بعض هذه القصيدة من الاستاذ محمد بهجة الاثرى وبعضها
 الآخر من مجموعة مخطوطة لآل الشواف

أشد عنفا من القصيدة السابقة وأوضح تصويرا لما كان يشعر به من غبن في بغداد وما كان يلاقه من جفوة وعدم تقدير لكفائته وكفاية أسرته في بلد ساد فيه الاراذل والعسد - كما يقول - أو كما يشهد واقع الامر في رسم لنا صورة من صور هذا الانفعال وهو بعيد عن بغداد وكان قد أرسل من لدن الحكومة العثمانية الى نجد ليقوم بسفارة خاصة بين الدولة وبين رؤساء نجد ، وقد أرسل القصيدة الى أبيه أحمد الشاوي وفيها يقول

تذكرت بغداد بعد الهدوء ونحن بنجد وبيعاتها
وما ذكر بغداد من جها ولا من مودة سكانها
ولكن تذكرتها اذ زهت بمطعام حمير مطعنها
بسدها وابن ساداتها ملوك الوري حلي تيجانها
أبى وأبو كل أكرومة توارثها صد قطعانها
وبعد هذا الفخر بأسرته وبأبيه يستنكر الإقامة في بغداد التي لم تعترف
بالحمل لآل الشاوي حين دافعوا عنها وصدوا الجيوش الإيرانية عن العراق فقول

فسم الإقامة في بلدة تناكرنا بعد عرفانها ؟
كأن لم ندد عن حماها الجيوش ناكسة نحو ايرانها
بيض يحل تضاربها فراق الرؤوس لأبدانها
وسمر يزرن قلوب العدا خلف مضاعف أبدانها(*)
وخل اذا أقبلت في الوغى حسنت تتابع عقانها
حقنا دما أهلها بالدماء وصا عقائل نسوانها
ولو لم تدافع لظلت تعاع سايا بأبخس أثمانها

★ ★ ★

وبغداد نلقى بها جفوة وضمنا لقله انسانها
يضام أفاضل أشرافها وتسمو أراذل عدانها
تدنس فيها صدور الندى بمرور القروء وعمانها

(*) البدن = الدرع القصيرة أو الدرع عامة

فلا خير يرجى لدى شيها وقبحا وتسسا لشبانها
تساوا بجمع خصال اللثام تساوى الحمير بأسنانها^(٩)

وقد يخيل لبعضهم ان الشاعر كان يهجو أهل بغداد ويشتمهم ولكن الحقيقة التي تكمن خلال القصيدة وتسمد عنصرها من واقع الحياة انما هي غير ذلك ، انها اثاره الحس حين يخمد ، والشعور حين ينام ، انها نفثة شاعر عربي يريد أن يرى بلاده غير خاضعة لظلم مخيم عليها وأن يكون للمدافعين عنها من أبنائها مكان الصدارة بين الناس .

الشكوى من الحياة :

عندما يطفح الالم فى قلب الشاعر ونفسه لا يلبث أن يتحول الى صرخة شاكية وكثيرا ما يكون ألم الشاعر من ضيق الحياة وقسوة الحوادث العامة وهذا ناشئ من اضطراب السياسة وفقدان العدل والامن ، وفى الصور التي سأعرضها ما يمثل هذا الرأى ويكشف عنه لانها لم تكن مقصورة على الشكوى والالام وعلى النظر الى الحياة من زاويتها السوداء التي يراها الشاعر بل سلكت الى جانب ذلك مسلكا مثيرا وشكت من الضيم والذل والهوان وقد كان الاخرس البغدادى أكثر الشعراء تلمسا لهذه الناحية فقد استغل مدائحه فى (عبدالغنى الجميل) وأمثاله من العراقيين ممن لهم شأن فى المجتمع للتعبير عن ألمه وشكواه وكانت وثباته خلال هذه المدائح شديدة الانفعال ومن ذلك قوله فى قصيدة يمدح بها عبدالغنى الجميل سنة ١٣٦٤هـ

أسفا على أيام عمر تنقضى كدرا وتذهب بالمنى تأميلا
وبنات أفكار لنا عربية لا يرتضين سوى الكرام بعولا
تأبى المروءة أن أرانى واقفا فى موقف يدع العزيز ذليلا
أو أننى أرضى الهوان وأبتغى بالعز - لا عاش الذليل - بديلا^(١٠)

(٩) هذه القصيدة نشر كثير منها فى بعض الكتب الحديثة وقد أخذتها من بعض المجموعات الخطية

(١٠) راجع (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ٢٩ - ٣١ وفى (الطراز الانفس) ص ٤٣٧ - ٤٣٨

ويقول فى قصيدة اخرى يخاطب بها عبدالغنى الجميل وقد نظمها

سنة ١٢٦٥هـ

الك أبا (محمود) (١١) أشكو حوادثا كثير على الحر الكريم أذاها
أرى هذه الدنيا لمن ذل أصبحت ذلولا وان كان الأبي أباهـا
تسمنها من كان من دون خفها وكنا نراه تحتها فعلاها (١٢)

ويمدحه بقصيدة اخرى فى سنة ١٢٦٧هـ فقول فيها

متى أترك النوق الهجان كأنها لها - كلما ضل الدليل - دليل
وأخذ اليد القفار أخلة (اذا ما جفاني صاحب و خليل)
الى حيث لا يشقى النزىل بجاره ولا الدهر يعدو بالأذى ويصول
وأترك دار الهون مأوى لمعثر عزيزهم فى النائبات ذليل
وما عن قلى أجفو العراق وأهله ولكن روى بالعراق محيل
ولو كنت ممن يشرب الماء بالقذى رويت وفى رى الذليل غليل (١٣)

ان هذه المقاطع ليست مجرد شكوى من الزمان والحياة وليست مجرد
ثورة نفسية ينفرد بها الشاعر لو لم تكن ثمة بواعت مثيرة ولو لم يكن
تجارب بين المادح والمدوح فى اسبطن هذه الواعت والاحساس بها ، بل
لو لم يكن هناك ظلم وفساد نظام •

وهذه قصيدة اخرى لعل فيها شيئا من الطرافة ولكنها تنطوى على
جانب غير يسير من تصوير الحالة السياسية ، وطفافة القصيدة تأتي من أن
الشاعر سرقت داره فى ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٦٧هـ
فنظم هذه القصيدة لخبر عبدالغنى الجميل بما حدث له ويصور الدار
والسرقة والاولاد الصغار وأهمهم فيقول

(١١) هو محمود بن عبدالغنى الجميل وقد توفى سنة ١٣٢١هـ

١٩٠٣م

(١٢) راجع (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ٣٣ - ٣٦

و (الطراز الانفس) ص ٤٣٠ - ٤٣٢

(١٣) مجموعة عبدالغفار الاخرس ص ٥٦ - ٥٩ - والطراز

الانفس ص ٢٨٠ - ٢٨٢

يا ليلة في آخر الشهر قد جئت بعد الصوم بالفطر
كشف انصاح لنا حوادثها وتكشفت عن مضر الغدر
أصبحت منها غير مفقر أبدا الى حرس على وكر
وانما ذكرت هذه الايات لتكون دلا على عدم استقرار الامن في
بغداد وعلى جرأة اللصوص الذين كانت أيديهم تمتد حتى الى بيت الشاعر
الآخرس وحتى في شهر رمضان •

ثم يأتي بعد ذلك تصوير الحالة السياسية في بغداد فيقول
بعد الرجاء بموطن خشن يلقى الكرام بجانب وعر
بلد كـار ملوكه بقر صاروا ولاة النهى والأمر
لا يفقهون حديث مكرمة فيزهـم نظمى ولا نثرى
أصحت أشقى بين أظهرهم فكأننى أصحت فى أسر
يرقى الدنى الى مراتبهم حتى يريك النعل فى الصدر^(١٤)
وفى الحق انها جرأة من الشاعر أن يشبه حكام بغداد بالقر وأن يعبر
عن المقرين لديهم بأنهم ليسوا الا من الادنياء وان تظاهروا بالنفوذ والقوة •
ولكن صرخة الآخرس تشتد فى مكان آخر وفى قصيدة اخرى يخاطب بها
عدالغنى الجميل فيبدو أكثر صراحة وأشد ألما من الحياة ومن الظلام
الذى لا يريد أن ينجلي حتى صار العراق موردا عذبا للكلاب وصار الاحرار
لا يجدون متسعا فيه فيقول

وحسك مى صبر أروع ماجد بمسوطن ضاقت بمثل رحابه
تداد عن الماء النمر أسوده وقد تلغ العذب الفرات كلابه
ألم يحزن الآبى رؤوس تطامنت وفاخر رأس القوم فيه ذنابه
وأعظم بها دهيا وهى عظيمة اذا اكتنف الضرغام بالذل غابه
متى ينجلي هذا الظلام الذى أرى ويكشف عن وجه الصالح نقابه
وتلمع بعد اللأس بارقة المنى ويصدق من وعد الرجاء كذابه^(١٥)

(١٤) مجموعة عبدالغفار الآخرس ص ٥٩ - ٦٢ و (الطراز

الانفس) ص ١٩٧ - ١٩٩

(١٥) المجموعة ص ٨٨ - ٩٠ - والطراز ص ٥٢ - ٥٤

وفي قصيدة اخرى يثور الاخرس حتى كاد صبره أن يتمزق فيقول
 أنى تغيرت البلاد وأهلها وأتى عليها الدهر وهو مفرق
 هذى هي الدنيا كما تريانها حرم اللب بها وفاز الأحق
 فصبرت فيها والخطوب متاحة لا ضاجر منها ولا أنا مشفق
 حتى رأيت الثائبات تقول لى عجا لصبرك كيف لا يتمزق^(١٦)
 ثم تأتي قصيدة اخرى فى مدح عبدالغنى الجميل ويندس خلالها
 مقطع نائر فيه شعور بالقومية الكريمة المهانة واحساس بهوان تلك القومة
 لدى الاعجام الحاكمين وسخط على الإقامة فى موطن الذل والهوان ذلك
 الموطن الذى تساوى فيه الاشراف والاندال فيقول

أسفى على عمر تقضى شطره فى خيبة المسمى الى الآمال
 وبنات أفكار لنا عربية رخصت لدى الأعجام وهى غوالى
 عجبا لئلى أن يقيم بموطن متشابه الاشراف بالاندال
 تقضى نواظره بأوجه معشر لا يعثرون بصالح الأعمال
 ولعت بهم أيامهم من دوننا ما أولع الايام بالجهال^(١٧)
 ويستغل الاخرس عزل أبى الثناء الالوسى من وظيفة الافتاء فى بغداد
 وحرمانه الاوقاف التى كان يعيش منها^(١٨) فينظم قصيدة يستعرض بها هذه
 الحادثة ويجمل لنفسه وتصوير حياته نصا منها فيقول

أمثلى يطوف الارض شرقا ومغربا على أدب يرضى من الكثر بالقل
 وتقذفنى الاسفار فى كل وجهة فمن مهمه وعزالى مهمه سهل
 وتحرمنى الايام ما استحقه فلا كانت الايام اذ ذاك فى حل
 وأرجع أختار الإقامة خاملا حليف الجهل الوغد والحاسد النذل

(١٦) المجموعة ص ١١٥ - ١١٦ والطراز ص ٢٦٨ - ٢٧٠

(١٧) مجموعة عبدالغفار الاخرس ص ١٠٢ - ١٠٧ والطراز

الانفس ص ٢٨٥ - ٢٨٨

(١٨) كان تعيينه مفتيا لبغداد فى سنة ١٢٥٠هـ أيام الوالى على رضا

وبسعى من الشاعر عبدالباقي العمرى وكان عزله فى سنة ١٢٦٣هـ. ١٨٤٧م

أيام الوالى محمد نجيب راجع (غرائب الاغتراب) ص ٢٣ - ٢٤

(مقامات الالوسى) ص ٥٢

وقد عكفت قوم على كل جاهل كما عكفت أقوام موسى على العجل
فتبا لدهر تستذل قرومه وتستكبر الاندال فيه وتستعل

الام أمني نفس حر أبيه * * * شديد عليها في الدنا موقف الذل
ثم يخاطب الالوسي قائلا

يحط سواك العزل عن شرف العلا ومثلك لا ينحط ما عاش بالعزل
وكم منصب قد قال يوما لأهله اليك اذا عنى فما أنت من أهلي (١٩)

فالآخرس استاء وتألم لعزل الالوسي وندد بالسياسة التي اندفعت الى
مثل هذا العمل مع رجل في طلعة رجال الدين ومن أعوان السلطان والولاءة
والمدافعين عن الخلافة فما ألف وكتب ولكن الآخرس لم يكن ناثرا في
كل ما مدح به الالوسي كما كان موقفه في مدائحه لعبد الغنى الجميل وسر
هذا انما يرجع الى شخصية عبد الغنى نفسه والى موقفه من الحكم وصلابته
فى ذلك الموقف أكثر من غيره من رجال بغداد حتى ملأ قلب الآخرس (٢٠)
فاستجاب له بقصائد كثيرة .

ولم يكن الآخرس وحده الشاعر الناثر على الحياة وعلى فساد نظامها
بل كان لشعراء آخرين ما يشبه الصور التي رسمها فى هذه الثورة النفسية
وان كانوا أقل منه تصويرا وحسا ومنهم عبد القابى العمري الذي نال من
المكانة السياسية ما يمكن أن يحسد عليه مثله فى عصر الولاة وغيرهم ولكنه
فى بعض لحظاته الذاتية كان يشعر بالالام لقلق مركزه السياسى بين
العواصف التي كانت تهدده دائما حتى تعرض لما يتعرض له أى موظف فى
الدولة وفى مثل هذه اللحظات استجابت له شاعريته فقال
ما لزمانى دون كل الأزمن أوقعه الله بداء مزمن

(١٩) الطراز الانفس ص ٣٠٩ - ٣١١

(٢٠) قال الآخرس « ولم أر فى مدينة السلام من العلماء الاعلام
والسادات الكرام من يضاهيه فى علو الهمة وبعد المرام ومكارم
الاخلاق وشدة البأس والتوغل فى معالى الامور على أنى قد سبرت أغوارهم
واقتنيت آثارهم » راجع (مجموعة عبد الغفار الآخرس) ص ٢٣

يقص الأعالى ويقرب الدنى ويعتنى بهم وعنهم يعتنى
فكل طاووس طويس المدنى وكل قرنان أويس القرنى
من زمنى واحربا واحزننى وأسفى والهفى من زمنى (٢١)

وهذا السد راضى القزوينى (٢٢) يعبر عن ألمه من الحياة وفساد
الاضاع فى قصيدة من الشعر الخمس فيقول

أترجو أن تبل صدى رجاء ببحر كالسراب لعين رائى
فوالهفى لآمال ظماء متى تصل العطاش الى ارتواء

إذا استقت البحار من الركايا

تساوى الناس منخفض وعال وذو نقص يعد كذى كمال
فزى يا موت أرباب المعالى إذا استوت الأسافل والأعالى
فقد طابت منادمة المنايا (٢٣)

شعراء علويون

مر بنا فى الصفحات السابقة نماذج من الفخر والاعتداد بالنفس
وتصوير الحياة القاسية وفساد الاوضاع العامة فى شعر عبدالغفار الاخرس
وراضى القزوينى وهما شاعران علويان فى نسبهما غير أن هذا النسب لم
يظهر أثره فيما عرضنا من الصور لهذين الشاعرين كظهوره فى شعر آخرين
من شعراء العراق فقد وجدنا شعرا يمثل النزعة العلوية الهاشمية ويفاخر بها
كالذى حدث للشريف الرضى وأضرابه من الشعراء العلويين القدماء ، ومما
لا شك فيه أن تاريخ العلويين تاريخ مصبوغ بالدماء وقد بدأ هذا التاريخ منذ
صدر الاسلام ومنذ أن شعر هؤلاء بأن حقهم مفصوب فحملوا السيف
وخاضوا المعارك وقتل منهم عدد غير قليل ، ومنذ أن انتقل الحكم الى بنى

(٢١) الترياق الفاروقى ص ٣٩٧

(٢٢) هو ابن الشاعر السيد صالح القزوينى وقد توفى سنة ١٢٨٧هـ

فى تبريز

(٢٣) راجع (ديوان السيد صالح القزوينى) الورقة ١٤١ من

مخطوطات مكتبة الآثار ببغداد

أمية كانت حياة العلويين عرضة للقتل والتضييق بسبب ثوراتهم ومناوأتهم للحكم ولم يختلف العصر العباسي عن العصر الاموي بالنسبة لمحاربة العلويين الذين لم يقف دون طموحهم قتل أو تشريد أو سجن وقد رافقت هذه الاعمال الطامحة من لدن العلويين خطرات من الشعر القوى النابض بالحركة والحس ولعل قصائد الشريف الرضى خير مثل لتسجيل ذلك الطموح ، أما القرن التاسع عشر فقد استمع الى أناشيد العلويين على ضفاف الفرات والى أمانيتهم التي تعبر عنها تلك الاناشيد وهي لا تأتي على الاكثر الا في مرائي الامام الحسين فاروا ونادوا بحمل السلاح واستنهضوا قومهم لاختذ الثأر من أعدائهم وخصومهم واذا كان الاخذ بئار الحسين قد انتهى بانتهاى بنى أمية فان من المؤكد أن العلويين كانوا يريدون حكما غير الحكم الذى يتزعمه العثمانيون آنذاك ، وقد سلك الشعراء العلويون فى التعبير عن أمانيتهم مسالك شتى فمنهم من اقتصر على الفخر والاعتزاز ومنهم من نادى بحمل السلاح ومنهم من مجد ثورة بعض الهاشميين العلويين هنا وهناك ، ومنهم من مزج بين السياسة والدين فيما نظم فاستوحى العقيدة الشيعية ودعا الى قيام حكم علوى وثار على أعمال الدولة العثمانية واستنهض الامام المهدي للقضاء على هذه الدولة ، وسأئى فى فصل خاص أثر العقيدة فى الشعر لذلك لا أرى حاجة لاستعراض هذا الشعر الكثير المصبوغ بالدم وانما أكتفى ببعض النماذج التى تمثل خطرات العلويين فى مجال الاعتزاز والفخر وتمجيد بعض الثورات التى حدثت لغير واحد من العلويين فى البلاد العربية •

ولعل صور الفخر والاعتزاز والحماسة المتدفقة انما تظهر جلية واضحة فى شعر السيد حيدر الحلى المتوفى سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٧م ولاسيما فى قصائده التى رثى بها الامام الحسين فقد كان هذا الشاعر فى مرائيه من أدق الشعراء تعبيراً وأقدرهم على تصوير الالم والحزن واذا كانت هذه المرائي تتصل - أكثر ما تتصل - بمأساة تاريخية آلمت جميع الطوائف الاسلامية فان صلتها بالعقيدة الدينية أشد من صلتها بالناحية السياسية الا اذا عرضنا الى هذه المأساة من زاوية التاريخ السياسى وظهور الاحزاب فى

العصر الاموى ومنها الحزب العلوى المناوئ للسياسة الاموية ومن هذه الزاوية يمكن ربط الاندفاع فى شعر السيد حيدر الحلى الى مخاطبة الهاشميين وحثهم على النهوض بالخيط السياسى الدقيق فى القرن التاسع عشر فهو لا يريد أن يستقر أو يهدأ حتى يرى العلويين قد استعادوا حقهم وأسسوا الحكم الذى يريدون ولو كان بعد هذه المأامة بمئات السنين ولما كان السيد حيدر الحلى قد أسهم اسهاما فعالا فى تكوين الفصل الخاص بالعقيدة الشيعية وأثرها فى الشعر فان مجاله هنا انما يأتى فى الخطرات المعبرة عن نزعة الهاشمية وحماسه واثارته العلويين لكى يحملوا السلاح فى وجه أعدائهم ومثل هذه الخطرات كثير فى شعره ، ومن ذلك قوله فى مقدمة قصيدة يرثى بها الامام الحسين

يا آل فهر أين ذاك الشبا لست ظباك اليوم تلك الظبي
للضميم أصبحت وشالت ضحى نعمة العز بذاك الأبا

ما بقيت فيك لمستتهض * * * بقية للسيف تدمى شبا
حتى على الموت بنى غالب * * * ما أطيب الموت بحر الظبي^(٢٤)

وقوله متحمسا فى قصيدة اخرى يرثى بها الامام الحسين وهى من أعنف قصائده أداء وتعبيرا

ان لم أقف حيث جيش الموت يزدحم فلا مشيت بى فى طرق العلا قدم
عندى من العزم سر لا أبوح به حتى تبوح به الهندية الخدم
مالى أسالم قوما عندهم ترتى * * * لا سالتنى يد الايام ان سلموا^(٢٥)

ولكن الشاعر مات ولم يحمل سيفاً ولم يقف فى معركة .
وفى لحظة اخرى من لحظات الانفعال تند بموقف الاستسلام

(٢٤) ديوان السيد حيدر الحلى ص ٩٠ طبعة الهند

(٢٥) المصدر السابق ص ٣٦٦

والركون الى الضيم وحث على حمل السلاح لدفع ذلك الضيم فقال
حلوك فى محل الضيم داما وحد السيف يأبى أن تضاما
وكيف تمس جانبك الليالى بذل أو تحل به اهتضاما
ولم تضرم بحد السيف حربا الى كبد السماء ترى الضراما
أتذل للخمول جناب حر يحاذر أن يعاب وأن يذاما
وآلك فى الظبي شرعوا المعالى وجيش الموت يزدهم ازدحاما^(٢٦)

ومثل هذه المقاطع الحماسية الثائرة ما قاله السيد صالح القزوينى^(٢٧)
فى قصيدة رثى بها الامام الحسين
فما أنا ان لم أدرك المجد والعلأ بجدى وجدى من على وفاطم
من الضيم أن يغضى على الضيم سيد نمته أباة الضيم من آل هاشم^(٢٨)

ومثله السد ابراهيم الطباطبائى فانه يجدد لنا حماسة الشريف
الرضى بقوله

الام على الضيم اغضائه وكم ذا على الهم اغماضيه
وكم ذا أكتم أسرايه أما أن يظهر اعلايه
فما أنال المنى بالقنأ والا المنة أولى ليه
واما لأفضى العلا حقها والا فيا ليتها التقاضيه^(٢٩)

أما السد جعفر الحلى فانه يصدر قصيدة فى رثاء الامام الحسين بمقطع
حماسى مندفع الى الحرب وحمل السلاح فيقول

فى طلب العز يهون الفنا ولا يروم العز الا أنا
لابد لى فى العمر من وقفة بين الظبى البيض وسمر القنأ
لا عشت ان لم استدر للوغى رضى سوى الهامات لن تطحنا

(٢٦) المصدر السابق ص ٣٦٩

(٢٧) توفى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٤م

(٢٨) راجع (الدرر القروية) الورقة ٦٠ من مخطوطات مكتبة الآثار

بيغداد

(٢٩) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ٢٧١ - ٢٧٣

وانتضيتها في وجوه العدى بارقة اما لهم أو لنا^(٣٠)
 ان هذه النماذج والالوان التي ذكرتها لهؤلاء الشعراء العلويين ليست
 الا خطرات عرضت في مجال الرثاء أو لمجرد الحماسة والفخر اذ لم يعرف
 عن هؤلاء الشعراء أنهم حملوا سلاحاً أو استعانوا بعمل حربي ليحققوا
 آمالهم غير أنهم كانوا بهذه الاناشيد والقصائد من الناقمين المحرضين على
 الثورات وقد كثر في شعرهم هذا استعمال كلمات الضيم والذل والظبي
 والرماح وهي من الكلمات المثيرة الدافعة •

ولكن الشعور العلوى لم يقف عند حدود الخيال الاسترجاعي ليتخذ
 من مأساة الحسين مصدراً للشعر الناقم التأثير بل كان بعض الشعراء قد
 استوحى الحوادث المعاصرة واتخذ من وثبات بعض الهاشميين مادة للشعر
 القومي وغنى واستبشر وفرح وهتف للارهاص الجديد بتطلع الهاشميين الى
 الملك والى مناهضة العثمانيين أو غيرهم ممن يقفون في طريق الحكم العلوى
 ومن ذلك ما استوحاه السيد جعفر الحلي من ثورة امام اليمن محمد بن يحيى
 المتوفى سنة ١٣٢٢هـ فقد نظم قصيدة أرسلها الى التأثير في سنة ١٣١٢هـ وقد
 جاء فيها قوله

مر وانه واحكم فانت اليوم ممثّل والأمر أمرك لا ما تأمر الدول^(٣١)
 عنك الملوك انتنوا عجزا وما علموا أنت زدت علوا أم هم سفلوا
 خلاص ذى التاج أن يعطيك طاعته لأمه - ان عصاك - الويل والهبل

★ ★ ★

(٣٠) سحر بابل ص ٤٢٢

(٣١) جاءت هذه القصيدة في ديوان الشاعر موجهة الى العالم الدينى
 المعروف السيد حسن الشيرازى في سامراء وقد غير فيها الشاعر وأضاف
 وقدمها اليه في السنة التي أرسلها فيها الى امام اليمن وكان ارسالها الى
 السيد الشيرازى في مناسبة خطيرة وهي منح الحكومة الايرانية امتياز
 (التنباك) الى شركة اجنبية وكان هذا العمل قد أثار السيد الشيرازى
 فافتى بتحريم دخان التنباك وأدت فتواه الى فسخ عقد الامتياز ولعل الشاعر
 أراد أن يتخلص من مسؤولية سياسية ففعل ذلك راجع (سحر بابل)
 ص ٣٥٨ - ٣٥٩

هذا سبيل رسول الله أنت به أعطاكه أولياء الله والرسول
الدولة اليوم في أبناء فاطمة بشرى فقد رجعت أيامنا الأول
محمد اليوم قد أحيا بنى حسن كأنهم قط ما ماتوا وما قتلوا
سيوفكم لم تزل يا آل فاطمة منها نجيع الطلال المحمر ينهمل^(٣٢)
ومن الواضح أن اسبشار الشاعر بثورة امام اليمن على الترك دليل
ايمانه بشرعية تلك الثورة التى هى جزء من ثورات العرب على الحكم
العثمانى ودليل تطلعه الى قيام حكم علوى يحقق آمال العلويين ورغباتهم .
ويوجه السيد جعفر الحلى نداء الى شريف مكة فيقول له

اشر لواءك مؤيدا منصورا حا الاله لواءك المنشورا
واقصد بخلك يمنة أو يسرة الله جارك لا ترى محذورا
يا ابن النبي محمد وسمه^(٣٣) طابت حجورك أولا وأخيرا
أعطاك ربك بسطة فى دينه فانهض وطهر يسه تطهيرا
أوليس سيفك ذو الفقار به ظمأ لا يستقى الا الدم المهدورا
ماذا انتظارك بالألى جحدوا الهدى لم لا تصيرهم هبا منثورا
عدلوا عن النهج القويم وغادروا قرآن جدك خلفهم مهجورا
يا وارث العلياء عن آباءه ما زال ذكرك بيننا منشورا
وصل العراق كتابكم- فتهللت فرحا وأصبح من بها مسرورا
فكأنها قل الكتاب ونشره كانت ظلما فاستحالت نورا
كم سد لك بالعراق يود أن يلقاك لو كان اللقا مقدورا

(٣٢) راجع هذه القصيدة فى (تاريخ اليمن) للواسعى ص ١٣٤ -
١٣٥ وجواب امام اليمن عليها بقصيدة من الوزن والقافية ص ١٣٦ - ١٣٧
وفيه يقول

انا نهضنا وللاتراك صلصلة وشدة ضاق عنها السهل والجبل
(٣٣) يظهر من هذا البيت أن هذا الشريف اسمه محمد ولم يعرف
من بين الشرفاء المعاصرين للشاعر من اسمه محمد سوى محمد بن عبدالله
بن محمد بن عون وقد منح رتبة (الباشوية) سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٣م وفى
هذه السنة ثار بعض القبائل فى أطراف مكة ففضى الشريف عون على
ثورتهم راجع (خلاصة الكلام فى بيان امراء البلد الحرام ص ٣٣١) .

لو لم تقم بحدود مكة حارسا ما حيج شخص بيتها المعمورا (٣٤) ومن هاتين القصيدتين يظهر أن ثمة صلات بين النجف واليمن وبينها وبين مكة ، وهذه الصلات تدور في محيط الهاشميين وتعمل لاقامة ملك فاطمي علوى ولعل كلمة (سيد) في البيت ما قبل الاخير صريحة في هذا الاتجاه لانها لا تعني في ذلك الحين غير العلوى الهاشمي ، ويتضح من القصيدة الاخيرة أن شريف مكة كان يكتب بعض العلويين في النجف ولكن الشك يحوم حول المناسبة التي نظمت فيها هذه القصيدة اذا أهمل ذكرها كما أهمل ذكر مناسبات كثير من القصائد فلا يمكن القطع بأن هذه الدعوة كانت ترمى الى محاربة الاتراك (٣٥) فقد تكون غير هذه وقد تكون في بعض الحوادث القبلية أو الوهابية ولعل بعض الدراسات في الآتي تكشف عن المناسبة فضع القصيدة في مكانها من التاريخ ومهما يكن من أمر هذه القصيدة والقصيدة التي قبلها فانهما لا تخرجان عن كونهما دعوة علوية هاشمية لاقامة حكم هاشمي ان لم يكن في الحجاز ففي اليمن وهذا الحكم أينما كان سيجد له استجابة في نفوس العلويين في العراق ، غير أن القصيدة الاولى أصرح من الثانية في هذه الدعوة العلوية .

الثورة الجريئة :

ان النماذج التي مرت كانت في حدود التعبير الذاتي والتفاخر بالبيوت والأسر أو في حدود الشكوى العامة من الحياة والاضاع وليس فيها كثير من الصراحة والجرأة حيال الحكم العثماني فقد كان الشعراء يحومون بأجنحتهم الضعيفة دون الوصول الى هذا الهدف الكبير غير أن بعض الشعراء قد لمس جانب الصراحة والجرأة وكشف عن أمانيه وغاياته وندد بالسياسة الظلمة وصرخ في وجه الحكم وسار في طريق الاثارة والبعث واستمد من

(٣٤) راجع (سحر بابل) ص ٢١٧ - ٢١٨

(٣٥) يرى الدكتور محمد مهدي البصير من مجرد الاستنتاج أنها

تدعو الى محاربة الاتراك راجع (نهضة العراق الادبية) ص ١٦٤

نفسه وحياته قوة الانطلاق ووضع أصابعه على الجراح الدامية وآله ما كان يجرى من الظلم والاستهتار ولكن كل ذلك أفرغ في قالب قديم ليس فيه ما يدل على اتجاه جديد في مناوأة السياسة ومن هؤلاء الشعراء عبدالغنى الجميل مفتى بغداد^(٣٦) ولعل شيئاً هاماً في تاريخ هذا المفتى يمكن أن يوضح أسباب ثورته واندفاعه وذلك أنه كان في الشام مسافراً عندما قدم الوالى علي رضا وقضى على المماليك في بغداد وعلى أثر هذا استدعاه من الشام وعينه مفتياً لبغداد سنة ١٢٤٧هـ غير أن التعسف الذى رافق حكم هذا الوالى وتضييقه على الاهلين لجمع اعانات للجيش وتقديم المال للسلطان واعتداء جنده على سكان بغداد كل ذلك أدى الى غضب عبدالغنى الجميل فنبهه الى خطر ما يعمل به الجند ، واشتدت النفرة بين المفتى والوالى ونار أهل بغداد يريدون قتل الوالى فاضطر عبدالغنى الجميل الى ترك بغداد ثم نهبت داره وأحرقت وأتلفت مكتبته ، وبعد أن هدأت الفتنة استدعاه الوالى مرة اخرى وعرض عليه المقاطعات الجسيمة فلم يقبل شيئاً منها^(٣٧) وبقي غاضباً نائراً طوال حياته وقد عبر عن غضبه وثورته بقصائد شديدة اللهجة عربية الروح والاندفاع وكان يقف في وجه السياسة والحكام دون ما خوف أو وجل ويبعث صيحاته المؤثرة طالبا من كل عربى أن يقف معه ويشاركه في الدفاع عن الوطن الذليل ، وهذه احدى قصائده الطوال تعبر عن قوة جنانه ودعوته الى النهوض وقد تفاخر بها وتحمس وعاب خصومه وذم الجبناء الذين كانت الوظائف الحقيرة تستهويهم فيذلون في سبيلها العزة والكرامة ، وأول القصيدة

ألم يأن للاجاب أن ينصفوا معنا فزاغوا وما زغنا وحالوا وما حلنا

(٣٦) هو عبدالغنى بن محمد جميل بن عبد الجليل ولد في بغداد سنة ١١٩٤هـ ١٧٨٠م وتوفي في ذى الحجة سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م وقد سكنت أسرته بغداد في عهد المماليك قادمة من سوريا

(٣٧) راجع التفصيل في (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ١١ و ١٢ وفى (المسك الاذفر) ص ١٢٦ - ١٢٨

ومنها

بلينا بقوم حافظ الود عندهم
وانا لنأبى الذل فى موطن الغنى
ولا نرتضى الا المروءة مذهبا
وما ساءنا حرب الزمان وبؤسه
وننكر ان شئنا خلائق معشر
هم زعموا أن كل برق يخيفنا
وطاشوا ببرق خُلب لا أبا لهم

أخو سفه بل عادم الرأى لا يعنى
ولا يزدهينا مطمع حيثما كنا
وان لا منا من لا منا عنه أعرضا
ولا حادثات الدهر هدت لنا ركنا
فقل للثام القوم ما أنكروا منا
فخابوا بما قالوا وقلنا فما خبنا
وصالت علينا المرهفات وما طشنا

ويتساءل عن هؤلاء بأى الآباء يفتخرون وان تسنموا القمم
فقل لى بماذا يفتخرون على الورى
فهبهم على المجد الأتيل تسنموا
وما المجد الا دولة وحفاظها

اذا عددوا الآباء أو ذكروا الابنا ؟
أما يعرفون المجد بالقول لا يبنى ؟
صليل المواضى البيض والسمر اللدنا

ويقتخر بنفسه فخر الشامخ العامل لا القائل المتوارى
أجامل أقواما حياء وعفة
واسكت ابقاء لود علمته
صحائف عندي جمعة قد طويتها

فيزعم قوم أننا منهم خفنا
وعندى مقال يقصم الظهر والبطنا
ولو نشرت يوما لعضوا لها الذقنا

ثم يصور حالة العراقيين آنذاك فيقول
اجول بطرفى فى العراق فلا أرى
فخيرهم للاجنبى وقبحهم
وشبانهم شابوا المودة بالجفا
حضرنا متى غابوا بموقف حربهم
سمرنا مع السمر العوالى لياليا
الى الله أشكو من زمان تخاذلوا (٣٨)
وباع بفلس كل خل خليله

من الناس الا مظهر البغض والشحنا
على بعضهم بعضا يعدونه حسنا
وشبنا وما للصفو فى كدر شبنا
وان حضروا فى موقف للخنا غبنا
وهم سمروا فى ذكر سعدى وفى لبني
خيار الورى فيه وساؤا بنا ظنا
وعاد الكريم الحر يسترفد القنا

(٣٨) جرى فيها على لغة (أكلونى البراغيث)

ثم يهدد خصومه فيقول

وعصاة لؤم قد تاجوا لحربنا فيا ويحهم ماذا يلاقونه منا

وتشتد صرخة الشاعر فيدعو الى الثورة ودفع الظلم

ألا نخوة منهم فيصيحوا الى التي (٣٩)

ألا حازم للمرشد شد حزامه لموزمة ينسى بها الطائر الوكنا

ألا مرشد منهم عن الغي قومه فيوقفهم منه على السنن الأسنى

ألا غيرة تدعو الصريخ اذا دعا ليوم عبوس شره يوقظ الوسنى

ألا رافع عن قومه بغى ظالم اذا فقدوا في الحرب من ينطح القرنا

ألا مبلغ غنى سرة بنى الوغى وأقيال عرب كيف صبرهم عنا؟

ثم يعود مفاخرنا حينا وساخنا على بغداد حينا آخر فيقول

ألا لقل لقوم خامر الجهل عقلهم فحاؤا بما جاؤا وظنوا به حسنا

أنحن بعسا للمقاعد نسوة بهن لجلب المال يوما توصلنا (٤٠)

أنحن نبذنا العهد خلف ظهورنا وهل نحن بعد العهد للوعد أخلفنا

سلوا الشام عنا والعراق وعنكم فانا رضنا بالذى أخبرنا عنا

طوبنا عن الزوراء لا در درها بساطا متى ينشر يعدونه طعنا (٤١)

واني وان كنت ابنها ورضيعها فقد أنكرتنا لاسقاها الحامزنا (٤٢)

وفي سنة ١٢٦٦هـ ثارت عاطفة عبدالغنى الجمل ثورة عربية صارخة

وتفجرت عن قصدة تتضرم حسرة وألما وتنساب في خلال صورها الحزينة

القائمة ومضات من الامل والتفاؤل فقال

(٣٩) فى الاصل (الذى) وهو غير صحيح

(٤٠) فى (مقامات الالوسى) ص ٨٦ - ٨٨ تفصيل للوسائل الذميمة

التي تسلك للحصول على الوظائف

(٤١) رفع جواب (متى) الشرطية على وهن القاعدة

(٤٢) راجع هذه القصيدة فى (مجموعة الاخرس) ص ٢٣ - ٢٧

وقد نسبت خطأ الى الوالى داود فى مجلة (الرسالة) العدد ٧٠٦ من سنة

١٩٤٧م لان داود غير معروف فى نظم الشعر ولان البيت ما قبل الاخير

صريح فى نسبتها وهو

واني لعبد للغنى ولا أرى على لغير الله فضلا ولا منا

علام الإقامة في بلدة
ويسأل عن عمره كل من
فهلا رحلنا الى غيرها
فلا بارك الله في بلدة
وفي كل يوم ترينا الخطوب
اذا بلدة أنكرت أهلها
ولكنه يتفائل بعد هذا الذم والمقت لبغداد فقول

فصبرا فان الليالى تحول
وقد يورق الغصن بعد الذبول
وقد تنجلي ظلم الحادثات
فلا تحزنن لأمر عرا
فقد خصص الله دار السلام
ويرجع للخيب من فد ظلم
وقد يسفر الصبح بعد الظلم
اذا ما ظلام الخطوب أدلهم
ولا تنأسن لخطب هجـم
بلطف خفى اذ الخطب عم

وبعد هذا التفاؤل والانتظار يستصرخ قومه استصراخ الناس ويأسف
أشد الاسف لانه لم يجد في بغداد من يملأ نفسه فقول

أهم ومالى من مسعد
فأين سراة بنى هاشم
وأين الكماة الحماة الدعاة
أنادى وما لى من سامع
الى كم نراعى الخسيس الدنيء
فما لى فى الكرخ من مسكن
وكيف وقد سار عنها الكرام
وكل رفع بها ضائع
وقومى كسالى ودائى الهرم
ومن لعظام الأعداى هشم ؟
اذا شب نار الوغى واضطرم^(٤٣)
وهل يسمع القول من فى صمم
ونرعى له حرمة كالحرم
ولا فى الرصافة مأوى العجم^(٤٤)
وفوض عنها حليف انشيم
وكل وضيع بها محترم

(٤٣) لعلها (جمر الوغى) وان كان حذف التاء مع المؤنث المجازى
جائزا ولكن العطف لا يستسيغ هذا الحذف لان الفاعل فى الثانى ضمير
(٤٤) كانت الرصافة مقر الوالى وموظفيه والجند وعوائلهم جميعا
وكانت لهؤلاء محلة قرب (السراى) سميت باسمه كما كان بعض الجاليات
من الامم الاخرى يقيم فى الرصافة أيضا

وتضيق بغداد بالشاعر فلا يرى له فيها مكانا يسعه فيفكر في تركها لانه
أحس بالذل وفقد الامل بالانصار والاعوان

| | |
|--------------------------|--|
| أميم دعيني أجوب الفلاة | فأني وعينيك على الهمم |
| أما تعلمين بأنى امرؤ | أبى عن الضيم مهما ألم |
| وكنت أظن بقومى الوفاء | فخابت ظنوني وحل الندم |
| وكم لى على الكرخ من وقفة | تسيل دموعى لها كالديم |
| أسائل أين الرفاق الكرام | وأين الأعزة أهل الشيم ؟ |
| فلم أر لى من مجيب بها | وأنى تجيب العظام الرمم ^(٤٥) ؟ |

وفى قصيدة اخرى يتشوق بها الى الشام نفثات حارة صدرت عن قلب
مكجوم قد آذاه ما كان يحدث فى العراق من ظلم وما كان يقابل به هذا انظلم
من سكوت وخضوع وقد بدأ القصيدة بمقدمة تقليدية فى الغزل والحنين ثم
قال بعد المقدمة

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| يا ليت شعرى هل لجلق عودة | يوما فألثم تربها بجفونى |
| وأبيت فى وادى السفرجل ليلة | حيث النسيم يمر بالنسرين |
| ماذا أريد من العراق وكرخه | بالعين ان شاهدهته يقذبنى |
| ومن البلية اننى فى بلدة | فيها ارتقى للمجد كل رعين |
| ويصول فيها كل محلول الوكا | لا يرعوى لمؤنب ومشين |
| ويلاه من فتكات دهر جائر | جعل الخيار بكف كل مهين |

* * *

| | |
|-----------------------------|--|
| واذا المنازل بالكرام تغيرت | فارحل بأنف شامخ العرين |
| واختر لنفسك منزلا فيه العلا | فالحر لا يرضى بعيش دون ^(٤٦) |

وفى قصيدة اخرى يشتد غضب الجميل وتثور حماسه ويهتف بقومه
ويتمنى أن يلتف حوله البهاليل من العرب ليعمل ما يفكر به ، وهو بصيخته

(٤٥) راجع (مجموعة الاخرس) ص ٢٧ - ٢٩
(٤٦) نظم هذه القصيدة فى سنة ١٢٦٧هـ راجع (مجموعة
الاخرس) ص ٤٢ - ٤٣

ودعوته لا يكتم استيائه من بغداد التي لا تريد أن تنهض وتنب فقد ألفت
الذل وتختر الدم في عروق أهلها ، ومن هذه القصيدة قوله
وكيف أرى بغداد للحر منزلا إذا كان مفري الأديم نزيلها (٤٧)
ويسطو على آسائها ابن عرسها ويرقى على هام السماك ضئلا
فما منزل فيه الهوان بمنزل وفي الأرض للحر الكريم بديلها
وأصعب ما ألقى رياسة ناقص مساويه ان عدت كثير قلبها
وما ساد في أرض العراقيين ماجد من الناس الأفدمها ورذيلها
فسر عن بلاد طوحت لا ترى بها مقل كريم للعار مقلها
ثم يحوب الآفاق ويقطع المفارز التي أعت معالمها الدليل فلم يهتد الى
الطريق الا حين يستاف التراب ويشمه ليعرف أين مكانه من الصحراء وهو
في تطوافه هذا انما يفتش عن قوة من العرب تشد أزره وتساعد في حمل
الاعاء التي ينوء بها

عفا الله عنى كم أجوب مهامها من الأرض يستاف التراب دليلها
لعل الألقى عصبة عشمية فروع مناجيب كرام أصولها
ينمُّ بهم مجد رفيع ومنطق وينبى عن الخيل العتاق صهيلها
ثم يتلهف ويستفهم - مستبعدة مستبطنًا - عن اليوم الذي يحقق
فه رغبته

متى يلثم اللبات رمحي وترتوى سيوف بأعناق المئام صليلها ؟
وحولى رجال من معد ويعرب مصالحت للحرب العوان قبيلها
إذا أوقدوا للحرب نارا تأججت مجامرها والبيض تدمى نصولها

(٤٧) ارسل هذه القصيدة الى أبي الثناء الالوسي عندما كان في
الاستانة أثناء رحلته التي قام بها في خلال ١٢٦٧ - ١٢٦٩ هـ وقد خمستها
الآخرس البغدادي وأرسلت الى الالوسي في صفر سنة ١٢٦٨ هـ مع التخميس
الذي بلغ ثمانية وخمسين مخمسا كلها منشورة في مجموعة الآخرس اما
في ديوانه فلم ينشر منها سوى ثلاثة وثلاثين ويظهر أن الناشر حذف
ما لا يمكن نشره آنذاك اما الالوسي فقد ذكر منها ثلاثة وأربعين مخمسا
في (غرائب الاغتراب) ص ٢١٨ - ٢٢٤ ويلاحظ القارىء بعض الاختلافات
في الاسطر والكلمات وفي التقديم والتأخير

ويشير الى النظرية القائلة بأن العز لا يكون الا عند سكان الخيام أما
سكان المدن فانهم قد يميلون الى الخضوع والذل^(٤٨)، فيقول

وما العز الا في بيوت تلفها عذارى وأبكار المطى حملوها
تحف بها من آل وائل غلمة لهم صولة في الحرب عال تليلها
ثم يستصرخ ويتألم

ألا غيرة تقضى المنازل حقها وتوقظ وسان التراب خيولها
عليها رجال من نزار وعامر مطاعين في الهيجا كريم قتلها
ويفتخر بنفسه

فلم ألو للاندال جيدي ، ومعشرى بها ليل مستن المنايا نزولها
ويسوؤه ما في بغداد من عدم تقدير للاكفاء

وكم باسقات بالرصافة أقعدت على عجزها حث استطال فسيلها
رعى الله نفسى لم ترد مورد الفدى وتصدى وفي ظل الهجير ظليلها
وما المجد الا دولة ورجالها اسود الوغى والسهرية غيلها
لحا الله دنيا نالها أحقر الورى وتاه على القوم الكرام سفيلها
سأحمل أعباء الخطوب وأنى لا انتظر العقبى وربى كفيلها^(٤٩)

ويسجل عبدالغنى الجميل تاريخ بغداد السياسى فى عصره تسجيلا
واضحا لا يحتاج الا الى شئ من الصراحة فى ذكر المسميات من الاشخاص
الذين يحكمون وذلك فى قصيدة أرسلها الى ابي التناء الالوسى ايضا عندما
كان فى الاستانة ، وقد صور بها الظلم الذى عم الناس والخراب الذى
شمل البلاد ومنها

لهفى على بغداد من بلدة قد عشعش العز بها ثم طار
كانت عروسا مثل شمس الضحى لمستعير حليها لا يعار

★ ★ ★

كانت لآساد الوغى منزلا والخائف الجانى بها يستجار

(٤٨) راجع (مقدمة ابن خلدون) ص ١٢٥ طبعة المكتبة التجارية

(٤٩) راجع هذه القصيدة مع تخميسها فى (مجموعة الاخرس)

فيها ولا في أهلها مستجار
فانقر والا بيدك الخيار
ما ميزوا أشرارها والخيار
يلعب بالألباب لعب القمار
قطبا غدا الثور عليه اندار
قد سجد الليث بها للحمار
وهكذا عادة دار البوار

واليوم لا مأوى لذي فاقة
واليوم قد حلّ بها من ترى
حل بها قوم وهم في عى
وأصبح القرد بها مقتدى
واللث قد غاب وفي غابه
وللخنا لما غدت مريضاً
بارت بها أسنى تجاراتها

* * *

يصيح بالناس البوار البوار
من بعد ما كانوا كورد البهار
فيها عن الرشد من الأزورار
وما علا الا خفيف العيار
الى العلا عادت خطاه قصار
فجار فيها الوغد والحر حار
وأول الأحرار يبدو الشرار
الا اذا جرد بيض الشفار

قد نعق البوم على جذرها
والكرخ قد أقفر من أهله
ما سميت زوراء الا لما
قد حط فيها كل طود علا
وكل من كان بها واثبا
قد خلع الناس عذار الحيا
والكل فيها قادح زنده
لا يشتفى غيظ أخى نخوة

ثم يخاطب الالوسى بمثل ما سبق

قد هجم النذل علينا وغار
من أسره لا يستطيع الفرار
قد علمت مثلك خوض الغمار
من بعده ما قد جرى في الديار
بالذل قد قاد الصغار الكبار^(٥٠)

أيأ شهاب الدين يا سيدى
بغدادكم أختى عليها الذى
قد بليت بالفمرات التى
يا نازحا عنا وما قد درى
برمة من مسد رئة

ان تاريخ هذه القصيدة ينص على أنها أرسلت الى الالوسى فى أثناء
رحلته الى الاسفانة ورحلته قد بدأت فى جمادى الاولى سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م

(٥٠) راجع (مجموعة الاخرس) ص ١٢٣ - ١٢٤ و (غرائب
الاغتراب) ص ٢١١ - ٢١٢

وانتهت في ربيع الاول سنة ١٢٦٩هـ^(٥١) المصادف لنهاية ١٨٥٢ وبداية ١٨٥٣م وفي هذه الفترة تعاقب على ولاية بغداد ثلاثة من الولاة كان ثالثهم (محمد نامق) في سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥٢م واذا استعرضنا ما كتبه الالوسي نفسه في وصف بغداد خلال هذه الفترة وبخاصة زمن ولاية محمد نامق^(٥٢) أدركنا فداحة الخطب وتفاقم الظلم في بغداد ، واذا عرفنا ذلك أكبرنا لعد الغنى الجميل هذه الثورة العنيفة التي تدل على ما للشاعر من حس عربي وشعور وطني .

ويسمنا عبدالقاي العمري صوتا من أصوات التذمر والاستياء مع كونه موظفا كبيرا في بغداد ولكنه لم يستطع أن يكتف ما يحس به من المضايقات ولم يستطع أن يتجاهل فساد السياسة وحالة العراق آنذاك فقال

| | |
|-------------------------|--|
| قد استحال العراق مفسدة | ليس سوى ضرب السيف يصلحها |
| وأهله كالأغنام عاث بها | أذوبة والكلاب تنحها |
| هذا بساطور الشر يسلخها | وذا بسكين القهر يذبجها |
| وكم تيوس على العراق نزت | من أين لى ذو القرنين ينطحها |
| جاشت خلال ديارهم فته | أحسنها فى الخلال أقحها |
| فى كل يوم من شر طائفة | تطوف من حولها يصحها |
| صدورها كالأعجاز خاوية | على عروش قد ساء مطرحها |
| أعيانها كالعون باكة | آماقها للدموع تنزحها |
| تجير الشاعر الفطين بها | يمدحها تارة ويقدها |
| أبواب خير غدت مقفلة | عنها عسى رب الفتح يفتحها ^(٥٣) |

وهذا شاعر آخر من شعراء النجف اسوطن بغداد وجاور مقر الحكم فيها وهو السيد صالح القزوينى المتوفى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٣م ان هذا الشاعر ثار على الترك لانهم غدروا بزعم خراعة (مطلق بن كرىدى) وكان هذا قد ثار على الحكومة ثم سلم نفسه بعد أن أعطى الموائيق والعهود

(٥١) غرائب الاغتراب ص ٢ و ٤٤١

(٥٢) راجع ص ٦٦

(٥٣) «الترياق الفاروقى ص ٢٨٨ - ٢٨٩ مطبعة طبعة الحروف بمصر

بألا يمس بسوء ولكن الحكومة سجنته في بغداد مع أصحابه ثم نفى الى الخارج وقتل في منفاه وكان ذلك في أيام ولاية محمد نامق الثانية (١٢٨٤هـ ١٨٦٧م) وفي أثناء قيام شبلى العريان الدرزي على ادارة لواء الحلة^(٥٤) ، وقد أثار هذه الحادثة بغددها وبطشها عاطفة السيد القزويني فنظم فيها المقطوعة الآتية

| | |
|--------------------------------|---|
| وكم للملك الترك هتك حرمة | لاهل النهى والغدر من شيم الترك |
| وما خلت حتى سرت في الفلك أننى | أرى الفلك الاعلى يسير في الفلك |
| ولما نظمت الملك بعد بداده | بحد المواضى نظمك الدر في السلك |
| سعوا سعى موتور بواتره وقد | حذوا حذو همدان يصغين فى عك |
| وانك لم تجنح الى السلم خفية | كما جتحوا للسلم خوفا من الفتك |
| ووافيتهم لما دعوك وما وفوا | بمهدك قدما والمواثيق فى الصك |
| ولا عجب من غدرهم بعد أمنهم | وكم مضحك قولاً ومن فعله مبكى |
| يلوح لعينى شمس سعد خراعة | بوجهك مثل الشمس لكن بلا ذلك |
| فلا تخش من سجن فانك مطلق | بعون اله الناس منهم بلا شك |
| وان العلا والمجد والحلم والندى | بسجنك قد وافى على جرف الهلك ^(٥٥) |

ولكن السجين لم يطلق وانما غدر به بعد تلك المواثيق^(٥٦) .
ويسمنا أحمد الشاوى المتوفى سنة ١٣١٩هـ صرخة تبعت من أعماق قلبه في حين أنه كان موظفا في دوائر الدولة ولكن وظيفته هذه لم تحد من شعوره العربى وهو بهذا الشعور وبما يراه من الظلم الذى اشتد في أواخر القرن التاسع عشر والعنجهية المتعصبة التى تحاول أن تجعل العرب تركا قد اندفع الى ما هو أشد وأعنف مما قاله الشعراء فقال
ألا ليت شعرى والأمانى ضلّة

وعمر الفتى - ان عاش ما عاش - للهلك

(٥٤) راجع (تاريخ الديوانية قديما وحديثا) ص ٤٩ و ٥٠
(٥٥) ديوان السيد صالح القزوينى الورقتان ١١١ و ١١٢ من مخطوطات مكتبة الآثار - بغداد .
(٥٦) من المفارقات المضحكة ان السيد جعفر الخرسان استبشر بسجن مطلق راجع (شعراء الغرى) ص ٢٠ ج ٢

أَمْخَرَمِي رِيبَ الْمُنُونِ وَلَمْ أَكُنْ
لَأَدْرِكَ لِلْإِسْلَامِ ثَأْرًا مِنَ الشَّرِكِ
وَأَبْرَدَ مِنْ صَهْبِ الْعَنَانِ غَلْتِي

وَاشْفَى وَاسْتَشْفَى بِسِيفِي مِنَ التَّرِكِ (٥٧)
إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثَةَ تَنْطَوِي عَلَى رَأْيٍ فَهُ عَنَفٌ وَشِدَّةٌ وَهُوَ اتِّهَامُ
التَّرِكِ بِالْمُرُوقِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَلَعَلَّ هَذَا الشَّاعِرَ قَدْ قَالَ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي لَحْظَةٍ
حَادَةٍ أَنْسَتْهُ صَلَاتُهُ بِالدَّوْلَةِ وَمَدَحُهُ بَعْضَ سُلَاطِينِهَا وَوَلَاتِهَا (٥٨) وَلَيْسَ لِهَذِهِ
الشَّدَّةُ مِنْ تَفْسِيرٍ سِوَى طُمُوحِ الشَّاعِرِ وَكَوْنِهِ مِنْ أَسْرَةٍ عَرَبِيَّةٍ ذَاتِ نَفُوزٍ
وَزَعَامَةٍ فِي بَغْدَادِ الَّتِي هَيَمَنَ عَلَيْهَا التَّرِكُ وَأَذَلُّوا أَهْلَهَا أَيْمًا أَذْلالاً •
وَبِلَهْجَةٍ أَخْفَ يَنْدَفِعُ السَّيِّدُ رَاضِي الْقَزْوِينِي إِلَى ذَمِّ التَّرِكِ فِي (تَبْرِيزِ)
وَيُؤَثِّرُ النَّزْعَةُ الْعُنْصَرِيَّةُ عَلَى النَّزْعَةِ الدِّينِيَّةِ وَكَانَ إِذْ ذَاكَ عَابِرَ سَبِيلٍ فَيَقُولُ
مَتَشَوِّقًا إِلَى وَطَنِهِ

أَحْبَبْتُا بِزُورَاءِ الْعِرَاقِ لَقَدْ طَالَ النَّوَى فَمَتَى التَّلَاقِ
وَمَا تَبْرِيزُ لِلْفَصْحَاءِ مَأْوَى * * * وَأَيْنَ التَّرِكُ مِنْ عَرَبِ الْعِرَاقِ (٥٩)
وَيُخَسِّسُ السَّيِّدُ رَاضِي الْقَزْوِينِي بَيْنَ لَعْدِ الْغَنَى الْجَمِيلِ قَالَهُمَا فِي
ذَمِّ بَغْدَادٍ وَفِي وَصْفِ الذِّلِّ الَّذِي لَحِقَ الْأَحْرَارَ فِيهَا فَيَقُولُ
أَفَى الزُّورَاءِ ذُو الْهَمِّ الْعَوَالِي يَنَالُ مِنَ الْعَلَا أَقْصَى الْمَنَالِ
فِيَا مَتَكَلَّفَا طَلِبَ الْمَحَالِ (دَعِ الزُّورَاءَ إِنْ رَمَتْ الْمَعَالِي
وَسِرْ عَنْهَا تَجِدْ عَنْهَا بَدِيلًا)
وَقُمْ مَتَبَدَّلَا رَفْعًا بِخَفْضٍ بِحَكْمِ الْمَجْدِ مِنْ نَدَبٍ وَفَرَضِ
وَلَا (تَرْضَى) بَعْضُ دُونَ بَعْضٍ (فَانِ الْحَرَّ لَا يَرْضَى بِأَرْضِ
يَرَى فِيهَا مَهَانًا أَوْ ذِلَالًا) (٦٠)

(٥٧) المدخل - لمحمد بهجة الاثرى ص ١٧٢ وورقة بخطه ارسلها

الى

(٥٨) سيأتي هذا في بحث الشعر الممالي للدولة

(٥٩) راجع ديوان السيد صالح القزويني الورقة ١٧٩

(٦٠) المصدر السابق الورقة ١٣٧

وفى أخريات القرن التاسع عشر قدر لشاعر عراقي أن يخرج من القفص الضيق وأن يزور مصر ثم يسافر الى الاستانة ويطلع على بعض ما فيها من السياسة والاحوال العامة ثم ينتهى به المطاف الى وثبة من وثبات النفس . أما الشاعر فهو جميل صدقي الزهاوى وقد كان سفره فى سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٦م وفى ذلك الظرف قربه السلطان عبدالحميد وعينه واعطا لليس فسافر ثم رجع بعد سنة وعندما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية واليونان سنة ١٨٩٧م نظم الزهاوى قصيدة يمدح بها السلطان ويؤيد الدولة فى حربها^(٦١) هذه غير أنه تأثر ببعض أدياء الانراك فشعر بالفجوة البعيدة بين الحكم والاصلاح فنظم قصيدة فى حدود سنة ١٨٩٨م وهو فى الاستانة^(٦٢) وكانت أول قصيدة ناثرة تحمل عنوانا قل أن يكون ذلك للشعر العراقى ، أما القصيدة فعنوانها (حتام تغفل) وفيها يقول

ألا فاته للامر حتام تغفل أما علمتك الحال ما كنت تجهل
أغت بلدا منها نشأت فقد غدت عليها عواد للدمار تعجل

ومنها

وكم وعدوا أن يصلحوا قبل هذه فما بالهم زادوا فسادا وأوغلوا
لك الله كم ترجوا حياة لدولة ترى كل يوم أمرها يتعرقل
توالت عليها النائبات فكلما ترحل عنها مشكل حل مشكل

ويصف فيها الظلم الذى تعانه الاقطار العربية آنذاك فيقول

لهم أثر للجور فى كل بلدة يمثل من أفعالهم ما يمثل
إذا نزلوا أرضا تفاقم خطبها كأنهم فيها البلاء الموكل
فمدت الى سورية يد عسفهم تحملها من ظلمهم ما تحمل
وبغداد دار العلم قد أصبحت بهم يهددها داء من الجهل معضل

(٦١) سيأتى ذلك فى مكانه الخاص

(٦٢) هكذا يستنتج من حياته التى كتبها بقلمه وأملأها على الصحف

ومن ديوان (الكلم المنظوم) ص ٦

وسل عنهم القطر اليماني انه يث بما يجرى عليه وينزل
بلاد بها الاموال من يد أهلها تنزع غصبا والنفوس تقتل
ويقول عن السلطان عبدالحميد

وذى سلطة لا يرتضى رأى ناصح اذا قال قولا فهو لا يتبدل
أيأمر ظل الله في أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل
ففقر ذا مال وينفى مبرا ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل
ويهدده فيقول

تمهل قليلا لا تفض أمة اذا تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيدك ان طالت فلا تغتر بها فان يد الايام منهن أطول (٦٣)

هذه الصور والنماذج التي عرضناها في هذا الفصل تمثل النزعة
الساخطة على الحكم وعلى الاوضاع السياسية وهي فيما صورته من أمور
وأوضاع لست على نسق واحد وفي اتجاه معين فقد كان بعضها شاكيا
ساخطا على الحاة ونكدها وبعضها كان يمثل جانب الحماسة العربية أو
الروح العلوى الناقم وبعضها صريح جريء يدعو الى الثورة والانتقام •
ولس في تقسيم هذه الصور والنماذج الى الاقسام التي احتواها هذا
الفصل تحديد تام لاغراضها واتجاهاتها فقد يكون في هذا القسم ما يصلح
للقسم الآخر بالنظر لتكرار المعاني وتشابه الصور غير أنى أردت بهذا
التقسيم أن أحدد جهد الطاقة ما يمكن أن يصور اتجاهها أو يعبر عن غاية
وهدف واذا لم يكن هذا التقسيم تاما واضحا في كل هذه الصور والنماذج
فانه في الكثير منها قد جاء سلسا معبرا عن الاتجاه الذى سبق له والغاية التي
ذكر من أجلها •

(٦٣) راجع (الكلم المنظوم) ص ٦ - ٩

الفصل الثالث

ثورة الشعر

في ظل العقيدة

مر في بحث الحالة الاجتماعية توضيح للديانات والمذاهب التي تسيطر على سكان العراق وتقسّمهم فيما بينها وأهم هذه الديانات الديانة الاسلامية فان أغلبية سكان العراق من أتباعها غير أن هؤلاء الانواع قد انقسموا فيما بينهم الى سنة وشيعة وكان القصد من هذا الايضاح - مضافا الى كونه جزءا مهما من وصف الحالة الاجتماعية - أن أقدم به دراسة لون من ألوان الشعر السياسي يتصل بالعقيدة ويستوحىها وهو خاص بشعراء الشيعة ، ومن الواضح أن شيعة العراق امامية اثنا عشرية امامهم الاول علي بن أبي طالب وامامهم الثاني عشر محمد المهدي المنتظر وان اعتقادهم بالخلافة الاسلامية منذ البداية يختلف عن غيرهم فهم يرون أنها نص في الأئمة الاثنى عشر وقد جر هذا الاعتقاد عليهم مصاعب جمة في مختلف العصور ومنها العصر العثماني فقد كانت الدولة العثمانية ترى في هذا الاعتقاد ما يسبب لها المتاعب من عدم الخضوع للسلطان والولاء ولاسيما أن الشيعة لا يقرون بالامامة الحاضرة لغير المهدي الذي يتظرونه لينقذ الناس من هذه الحكومات المستبدة الظالمة فهو عندهم امام العصر وولي الامر وصاحب الزمان لذلك بقيت الدولة العثمانية نافرة من الشيعة وان كانوا معها في حروبها مع الدول

الاجنبية أو فيما يتصل بخدمة الامة الاسلامية ولكنها ميزتهم عن غيرهم بكثير من المقاومة والمناوأة^(١) ودعت الى وقف دعاوتهم ونفوذ رجال الدين منهم وتسرب عقائدهم في البوادي والارياف السية^(٢) ، وحث بعض رجال الدين لكتبوا ويؤلفوا ضدهم وكان بعض رجال الدين من الشيعة أيضا يقابلون هؤلاء بالمثل ولم يكن كل ذلك سوى أكوام من الحطب تلقى في النار المتأججة^(٣) ، واذا كان احترام آل البيت وتقديسهم لس من مميزات الشيعة وحدهم^(٤) فان الاعتقاد بالخلافة والامامة وما يترتب على هذا الاعتقاد هو السبب المباشر في جر المتاعب على الشيعة من جانب الدولة العثمانية وان كانوا شركاء في معظم هذه المتاعب مع غيرهم من بقية السكان الذين لم يكونوا بأحسن حالا منهم الا أن توجيه النقد والتجريح الى عقائدهم كان أشد عليهم من تلك الحوادث الكثيرة التي وقعت في مواطنهم واستنزفت دماء كثيرة منهم ، وقد فصلت في بحث الحالة الساسية كثيرا من تلك الحوادث التي كانت تتكرر دائما فتش الرعب بين السكان وتمخض عن عدم الاستقرار والامن ، ان هذه العوامل وغيرها وكون العصر عصر توسل وتضرع بالاولياء والصالحين كل ذلك قد ترك لنا شعرا يمثل جانبا من جوانب الثورة على الظلم لعله أعنف الجوانب وأفضلها اثارة للشعر الساسي المناوئ للدولة ، واذا كانت مراثي الامام الحسين في القرن التاسع عشر تحتوي على كثير من هذا الاتجاه الساسي فان صورا اخرى من شعر العقيدة كانت تشارك في رسم هذا الاتجاه وقد اسوحى معظم هذه الصور عقيدة الشيعة بالامام المهدي فانه في اعتقادهم قد غاب خوفا من العباسيين واختفى لسقى حيا يرزق حتى

(١) بلغ من مناوأة الدولة العثمانية للشيعة أنها حالت بينهم وبين دخول المجلس النيابي الاول الذي افتتح في ١٩ مايس من سنة ١٨٧٧م في حين أن اليهود - وهم أقلية - مثلهم نائب وهو (مناحيم)

(٢) راجع (الزوراء) العدد ٥٥٦ من السنة السابعة ١٢٩٢هـ

(٣) لا يزال كثير من هذه الكتب مخطوطا في بغداد وغيرها

(٤) في ديوان عبد الباقي العمري وغيره مدائح كثيرة لآل البيت

يأذن الله له بالخروج^(٥) فيملأ الارض قسما وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا
لذلك كان شعراء الشيعة يتخذون من المهدي مثابة لهم كلما حزبت حازبة
أو وقعت حادثة أو اشتد ظلم فيفزعون اليه ويتوجهون الى الله ليأذن له
بالظهور فينقذ الناس من الظلم ويعيد الدين الاسلامي الى مكانته الاولى من
القوة والعمل والتطبيق . ان هذا الاعتقاد قد ظهر أثره واضحا في كثير من
القصائد التي مزجت بين الدين والسياسة وتناولت الحوادث العامة والخاصة
وفي معظم هذه القصائد ما يمس الخلافة العثمانية التي وسمها الشعراء
- بطريق التلميح - بالمرق والزيف ، وما يمس السلطان الذي احتل مكان
غيره ، وكانت المناسبات التي تحفز الشعراء وتستثيرهم مناسبات مختلفة أهمها
مقتل الامام الحسين فيقدمون الكثير من قصائد الرثاء بمثل هذه الاتجاهات
التي تستوحى العقدة وتستنهض الامام المهدي ، وقد تكون المناسبة احتفالا
بمولد المهدي نفسه ، أو استجابة للحوادث والثورات التي كانت تحدث
بين حين وآخر فستعمل فيها السلاح من جانب الدولة الى غير ذلك من
المناسبات الكثيرة التي شغلت العراق في القرن التاسع عشر

وأخلة الشعراء وانفعالاتهم في هذا المجال تختلف قوة وضعفا نعا
للاستعداد الذهني والفني وتبا لطاقة الشاعر وقدرته ولكنهم لا يختلفون في
انتظار المهدي وقيام دولته وعودة الحكم الى آل الس وهم لا يختلفون أيضا
في الاحساس بالظلم الذي عم العراق والفساد الذي شاع وانتشر في كل
مكان من الدنيا وكل هذا لا ينتهي ولا يقضى عليه الا بظهور المهدي
وقام دولته .

وقد شاع هذا اللون من الشعر في القرن التاسع عشر مع ما شاع من

(٥) قال أبو الثناء الآلوسي في (غرائب الاغتراب) ص ١١٣
« وانكار مجيء المهدي أشبه شيء بانكار المتواتر نعم لا بأس بانكار ظهوره
على الوجه الذي يزعمه الشيعة » وقال في (نشوة المدام) ص ٧٨
« ولاخفاء في ظهوره بعد حين عندي وقد ذهب بعض علماء الشافعية
الى كفر من انكر ظهور الامام المنتظر »

مدائح آل البيت ومراثيهم^(٦) وتناوله معظم شعراء الشيعة واذا كان من عوامل انتشاره التأثير بمأساة الامام الحسين فانه لا يعدم عاملا هاما آخر وهو اشتداد القسوة والظلم والفرق البارز بين سلوك الحاكم وطبيعة المحكوم الى جانب الاعمال التي يلاحظ فيها مناوأة الشيعة ومضايقتهم في عيشتهم وعقائدهم •

ولما كان هذا اللون من الشعر متشابها في الهدف والفكرة فان الاجتزاء ببعضه كفيلا بتوضيح الدراسة ، والكشف عن الجانب السياسي المهم فيه •

قال الحاج هاشم الكعبي^(٧) في مقدمة قصيدة يرثي بها الامام الحسين ويستنهض المهدي للاخذ بثأر الحسين ، والقضاء على الظلم

فيا آخذ الثأر المرجى لأجله
على فترة أفديك من آخذ ثارا

أمتظري طال انتظاري لطلعة
ملأت لها عيني قذى والحشا نار

أما آن للسيف الذي أنت ربه
بيد رقابا فاجرات وفجارا ؟

فقم - سيدى - فالسيل قد بلغ الزبى
وقد عمت البلوى سهولا وأوعارا

(٦) ان مدح آل البيت وراثتهم كثير في الشعر القديم وفي شعر الفترة المظلمة ولم يقتصر هذا على العراق وحده أما التبشير بالامام المهدي فقد ورد أيضا في شعر القدماء ومنهم الشريف الرضى فانه ذكر الائمة الاثنى عشر باسمائهم في قصيدة طويلة (ص ٣٥) من ديوانه - طبعة بيروت • وقبله دعبل الخزاعي فقد قال

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد تقطع قلبى اثرهم حسرات
خروج امام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

راجع (روضات الجنات) ص ٢٧٨ - ٢٨٠

(٧) راجع فصل (الشعر والحوادث الوهابية) فى أول قصيدة منه •

علانا - عداك - العار والثأر سيدى

خذ الثأر يا ابن المصطفى واكشف العارا^(٨)

امام منتظر ، وشاعر ينتظر بعين قذية وقلب ملتهب نارا ، وبلوى قد عمت جوانب الارض ، وعار وثار ، !! انها كلمات شديدة توحى بأن حشدها فى هذا المقطع دليل النعمة من جانب ، واشتداد الظلم من جانب آخر .

وتؤثر حادثة كربلاء ايام الوالى محمد نجيب بالشاعر الشيخ صالح الكواز^(٩) ، تأثيرا شديدا ، ويستاء لها استياء مرا لانها كانت فى مدينة مقدسة تضم أجداد الشهداء من الحسين وأنصاره ، ولانها وقعت فى عيد الاضحى ، ووجهت فيها المدافع الى السكان^(١٠) ، فوصفها الكواز وصفا مؤثرا وندد بالسياسة التركية وبالعامل الذى قام به الوالى من غير رحمة ولا شفقة . وقد صبح الشاعر هذه الصورة الحزينة بصغة العقيدة فوجه خطابه الى الامام المهدي طالبا منه النهوض لتدارك الدين الذى أوشك أن يتلف ، ودفع الظلم الذى حاق بالناس ، واسترداد الخلافة المفضوبة . فقال

وشعواء فيها الدهر يرعد خيفة

وينسد منها الافق ، والارض ترجف

تزاحم برج (الحوت) حتى يعومها

وتدنو من (الكف الخضيب) فتغرف^(١١)

ثم يخاطب المهدي

أبا القاسم المهدي لا عز أو ترى لك الكتب تتلى والكتائب ترحف^(١٢)

(٨) ديوان الكعبى ص ٧٣

(٩) ولد سنة ١٢٣٣هـ وتوفى سنة ١٢٩٠هـ وكان يتعاطى بيع الكيزان والجرار لذلك لقب بالكواز راجع (البابليات) للشيخ محمدعلى اليعقوبى ص ٨٧ - ٨٩ من الجزء الثانى

(١٠) وقعت هذه الحادثة سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م وقد مر تفصيلها فى القسم الثانى من الفصل السياسى

(١١) الحوت والكف الخضيب نجمان معروفان وفى البيت تورية

(١٢) أبو القاسم كنية النبى ص ثم اطلقت على كل من اسمه محمد

فقم طالبا حق الخلافة معلما
أصدر ورادا لكم عن ركبها
وتوحش هاتيك المناير منكم
وهذا لواء المسلمين بزعمهم
فها هي في أيدي العدى تتلطف
محللة ، والقوم منهم تنزف
وتنزو عليهن القروود وتشرف ؟
على رأس أشقى العالمين يرفرف

من الواضح في هذه الايات أن السلطان العثماني أشقى الناس في
نظر الشاعر وانه يقيمص وظيفة لست له ، ويرقى منبرا لم يكن لامثاله •
ويسمر الشاعر قائلا

دعوتك للتوحيد قد غال أهله
دعوتك للقرآن راح مثالا
دعوتك للمظلوم ضاعت حقوقه
أترضى - وأنت المستجار - بأننا
اناس على الاوثان تحضو وتعكف
بأيدي أناس غيروه وحرفوا (١٣)
ولس له من عصبة الجور منصف
بأيدي العدى من أرضنا تتخطف ؟
ثم يصور هروب السكان من
كربلاء موجهها خطابه الى المهدي

وأيسر ما يشجيك أن مجاورى
بعيدون قيد الرمح عنه مسافة
ومن لم تطق حمل الرداء متونه
فكيف أبئك السط من أرضه نفوا
فكيف بهم والبعد وعرف ونفث
فكيف بحمل الراسات يكلف ؟

★ ★ ★
فآه لارض الطف في كل برهة
وان نساء المسلمين ذواعر
يلاحظها رجس ويقذف عرضها
لئن ضرب الامثال في فقد يوسف
فها نحن في جيل به كل والد
يجدد فيها حادث لا يكف
تراع كما ريع القطاحين يغدف
غبي بأصناف اللعائن يقذف
وما نال من يعقوب فه التأسف
من الناس يعقوب ينائه يوسف

ثم يلمس الشاعر الناحة القومية فيتألم للعرب أشد التألم لان الذى
يملك زمام أمرهم لم يكن منهم ، فلا بد لهم من حريغار عليهم
أيملك أمر العرب من لا أبأله ولم ينمه منهم نزار وخندف ؟

(١٣) يقصد بالتغيير والتحريف عدم تطبيق نصوص القرآن كما

يجب

لئيم فما للصفح عند اقتداره محل ولا للحلم - ان هاج - موقف
أحب الورى من لس يخنو عليهم لديه ، واعداهم له المتلطف !!
وما لنى الاحرار الا ابن حرة يغار عليهم - أن يضاموا - ويأنف
ولكن الشاعر لم يكن يائسا بل كان لديه شئ من الامل وان ضاق
به الرحب

اقول لنفسى - عدما ضاق رجبها وكادت على سدل المهالك تشرف :-
رويدا كأتى بالأمانى صدقتى بانحاز وعد للهدى ليس يخلف^(١٤)

ويعمد السيد صالح القزوينى الغدادى الى نظم ديوان خاص بال
الست ويسميه (الدرر الغروية فى العترة المصطفوية)^(١٥) ، ولا تكاد
قصيدة من فصائد هذا الديوان تخلو من استنهاض للإمام المهدي ، وتصوير
للظلم والجور ، وعدم وجود حكم عادل تطبق فيه الشريعة الاسلامية كما
يجب أن تطبق ، وكان الشاعر صريحا فى آرائه ، وهذه احدى قصائده
التي يمدح المهدي وينتظره ويعاتيه فيقول

ملك يرغم الملوك وتنقا د أعزأوها له اذلالا
أصد من بنى النبی ترى فى وجهه نور جده يتلالا
عاقدا راية الهدى ناشرا للأمن واليمن فى الورى سربالا

وينادى جبريل فى الافق بشرا * * * كم فقد أظهر الجلل ثمالا
أقبلت دولة الرشاد وعنكم * * * أذنت دولة الفساد زوالا^(١٦)

وصراحة الشاعر واضحة فى وصف الدولة العثمانية بأنها دولة

(١٤) أرسل الى هذه القصيدة الشيخ محمدعلى اليعقوبى معتمد
جمعية الرابطة الادبية فى النجف نقلا عن ديوان الشيخ صالح الكواز
المخطوط فى مكتبة اليعقوبى نفسه

(١٥) هذا الديوان مخطوط فى مكتبة الآثار ببغداد برقم ٢٠٩٨ وهو
غير ديوانه الكبير المخطوط أيضا

(١٦) من الطريف ان الطحاوى ألف رسالة فى بقاء دولة آل عثمان
بعد انقراض دولة صاحب الزمان راجع (نشوة المدام) ص ٧٨

فساد ، ثم يخاطبه قائلا

يا امام الهدى أطلت المدى فظهر وفك القيود والاغلا
ما ترانا اليك فى كل يوم نشكى منهم الأذى والنكالا ؟
كم على بعدك احتملنا رزايا من أعاديك لا تطاق احتمالا^(١٧)
ويقول فى قصيدة اخرى

يا ابن الهداة متى تجرد للمدى سيفا تفل به الضلال وتقمع ؟
ومتى نرى أنوار جددك أحمد وأبيك حيدر من جبينك تسطع ؟
والعدل يزهو مورقا والدين يز هر مشرقا والدهر غص ممرع^(١٨)
ويقول فى قصيدة اخرى وهو يستقبل الحوادث قبل أن تقع

ملك يطبق أقطار البلاد له عدل يسيم به شاء وسرحانا
مؤيد بجنود ما لهم قبل بها له نزلت مثنى ووحدانا
تعم دعوته الدينيا مطبقة جميع أقطارها سهلا وأحزانا^(١٩)
يشفى به الله من أكبادنا قرحا وتنطفى حرق قرحن أجفانا
ويستفهم بلهفة

منى ينادى المنادى فى السماء ألا بشراكم ظهر المهدي اعلانا
قد أظهر الله سلطانا لعزته تنعو السلاطين ارغاما واذعانا

ثم يخاطبه ويشكو اله الجور والظلم
يا غائبا لم تغب عنا رعايته ولا يزال بعين اللطف يرعانا
ألا ترانا وأعدانا تعاهدنا بالظلم مصبحنا فيه وممسانا ؟
الك تشكو ويشكو الدين جورهم فاسمع لنا يا امام العصر شكوانا^(٢٠)
ويخاطب المهدي فى قصيدة اخرى فيقول

متى تطلق الأسرى وتستأسر العدا وتنطفى لظى البلوى بفيض المراحم ؟
ويرقد من أشياعكم كل ساهر ويسهر من أعدائكم كل نائم ؟

(١٧) الدرر الغروية - الورقة ١٥

(١٨) الدرر الغروية - الورقتان ٢٤ و ٢٥

(١٩) الاشهر جمع (حزن) على حزون

(٢٠) الدرر الغروية - الورقة ٥١ - ٥٣

أتفضى جفونا عن مواليك والعدا تسومهم جرما بغير جرائم^(٢١)

ويشتد في قصدة اخرى فيصف الولاة وأتباعهم بأنهم وحوش
مفترسة ، وإن الشدائد تقع كل يوم فتشعل القلوب نارا

امام الهدى أدرك بطلعتك الهدى فقد طمست أعلامه والمدارس
نساء ولم يشهد لك الطرف مشهدا يسر الى أن تحتوينا المراسم !
قد افترسونا فالعمارس منهم ضوار غواش والضواري عمارس
نمارس منهم كل يوم شدائدا لها بين أحناء الضلوع مقابس^(٢٢)

وبمثل هذه الصرخة يخاطبه أيضا فقول

طال انتظار الوعد منك لآمل ما آن أن تقضى له الموعودا ؟
أدرك عاد الله منك بطلعة تبرى السقيم وتنعش المجهودا
وتلاف شمل العدل والتوحيد من قوم أبادوا العدل والتوحدا
تفضى وتظفر فثكم متقسما وعسدم للملحدين عسا ؟^(٢٣)

وأظن ان هذا الشاعر لم يطل في استهزاء المهدي ويستصرخه ،
ويصف الحكم بأسوأ ما يوصف به لو لم يشعر بالجو الذي كان يخقه بظلمه
وطغيانه ، وإذا عرفنا أن الشاعر قد عمر فأدرك معظم القرن التاسع عشر أدركنا
مبلغ تأثره بالحوادث وشعوره بفداحة الظلم ، بل أدركنا بوضوح مقدار ما
وصل اليه الظلم في القرن التاسع عشر

أما الشيخ حسن قفطان المتوفى سنة ١٢٧٩ هـ فإنه يستفهم عن اليوم
الذي يرى نفسه فيه متهجأ بدولة الامام المهدي الذي تعود الدنيا به شابة
بعدا شاخت ، فيقول

مى امتطى نهد الجزيرة فارها بدولة سلطان الورى مدرك النار ؟
تعود به الدنيا شابا نعيمها لها زهو أزهار ويانع أثمار

(٢١) المصدر السابق - الورقة ٦٥

(٢٢) المصدر نفسه - الورقة ٦٩

(٢٣) المصدر السابق الورقة ٧٧

ويملؤها بالعدل من بعد جورها ويكلؤها من موبقات وأخطار
وتخضب أقطار البلاد بنائل لها من نداه لا بوابل أمطار
وبعد هذا التخيل والتصور المبني على الروايات والكتب يخاطبه قائلا

أمولاي يا ابن المسكرى الى متى على الدين من أعداك اسمال أطمار ؟
اعزاء فيا نرتضيهم ، واننا أذلاء فيهم ، تلك قسمة اجبار !!
دعوا حرنا رقنا لهم فمتى نرى عليهم سمات الذل رقنا لأحرار !
فأسيفنا صدأى ، وظمأى رماحنا وأيماننا غرئى الى جزر جزار
سجا ليلنا جورا ولم يعترض به من العدل فجر مستند باسفار^(٢٤)

أرقاء وأحرار وليل لا فجر له !! ، ذلك ما يقوله الشاعر عن الحاكمين
والمحكومين وعن العصر الذى شاهده وعاش فيه ، ولا شك أنه لم يقل هذا
عنا وجزافا لو لم يكن يشعر بهذا كله ، ولو لم يكن يحس بالذل والخضوع
لدولة جائرة ظالمة لا ترعى حقوق الناس ، ولا تقيم للدين وزنا فيما تجرى
من الاحكام والنظم .

وكان أقدر الشعراء تعبيرا وأشدهم عاطفة السيد حيدر الحلى فان
انعكاس الحياة فى نفسه انعكاسا داكنا قاتما وجهه توجيها حزينا ظهر أثره
فى مراثيه للإمام الحسين ، وكان نسبه الى الامام الحسين من عوامل هذا
التوجه أيضا ، غير أن ثورته على الحياة لا تخلو من شعوره القوى بالظلم
الذى كان يراه فى الحلة وغير الحلة من مدن الفرات ، وما كان يسمع به
من ذلك فى جهات العراق عامة ، وقد دعاه كل ذلك الى التقاط صور غير
يسيرة من صور الحكم الهزيل فى عرف الدول ، والقاسى الشديد القسوة
فى نظر الشاعر ، وفى ظل العقيدة هذه كان السيد حيدر يوجه عدسته
للاتقاط والتصوير ، فيصف الظلم فى قصائد كثيرة ويوجه خطابه الى
المهدى فى مقدمات بعض القصائد التى رثى بها الامام الحسين وقد يقصر
الموضوع على الامام المهدى وحده . ومن الاول قوله فى قصيدة يرثى
بها الحسين

(٢٤) شعراء الفرى - ص ١٧ - ١٩ ج ٣

الله يا حامى الشريعة أنقر وهى كذا مروه
بك تستغيث وقلبهـا لك عن جوى يشكو صدوعه
ويقول فيها

مات الصبر بانتظارك أيها المحيى الشريعه
فانهض فما أبقي الحمل غير أحشاء جزوعه

كم ذا القعود ودينكم هدمت قواعده الرفيعه
فيه تحكم من اباح اليوم حرمة المنيعة^(٢٥)
ويستنهضه في قصدة اخرى فقول^(٢٦)

من حامل لولى الله مألكة
يا ابن الألى يقعدون الموت ان نهضت
الخيـل عندك ملتها مرابطها
لا تظهر الارض من رجس العدا أبدا
تطوى على نفثات كلها ضرم
بهم لدى الروح فى وجه الطبى الهمم
والبيض منها عرا اعمادها السأم
ما لم يسـل فوقها سيل الدم العرم

جرائم آذنتكم ان تعاجلهم * * * بالانتقام فهلا أنت منتقم ؟ (٢٧)

وبمثل هذه العاطفة يخاطب المهدي في قصيدة اخرى فقول

ان ضاع وترك يا ابن حامى الدين
عجبا لسيفك كيف يألف غمده
لله قلبك وهو أغضب للهدى
ففتى أراك وأنت فى أعقابها
فتمهد الدنيا بامرة عادل
لا قال سيفك للمنايا كوني
وشباه كافل وتره المضمون
ما كان أصبره لهتك الدين !
بالرمح تطعن صلب كل ركين ؟
وينهى علام وقسط أمين^(٢٨)

ولا شك ان الحلّ حين يستنهض المهدي للاخذ بشار الحسين يعرف
أن قاتليه قد استحالوا ترابا ، ولكنه يعتقد بأن الحكم متشابه وأن الدولة

(٢٥) راجع (الدر اليتيم) ص ٢٥٨ - ٢٥٩
 (٢٦) مر من هذه القصيدة مقطع في الفصل الثاني
 (٢٧) الدر اليتيم - ص ٣٦٦ .
 (٢٨) الدر اليتيم - ص ٣٩٤

القائمة آنذاك لا تخرج عن كونها غاصة لحكم ليس لها • وبمثل هذا التعليل والتوجيه يمكن أن يقال عن كل ما نظم في رثاء الامام الحسين مصدرا باستنهاض المهدي •

غير أن السيد حدرا لا يكتفى بذلك بل يستوحى الحوادث التي عاصرها وشهدها وينطلق معها في ثورة نفسية تتخذ من العقيدة مجالا للانتفاض فيصرخ ويحتدم ويشتد غضبه ويحيل الدنيا كلها الى غضب وثورة ، ولكنه لا يعدو الواقع فيما يصور من الظلم والعسف اللذين اشتدا مع السكان ، حتى صاروا كأنهم الانعام بأبدى الجزارين •

وهذه احدى قصائده وقد قصرها على استنهاض الامام المهدي وصور فيها الظلم الذي كان يلاقه السكان فقال

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أقائم بيت الهدى الطاهر | كم الصبر ؟ فئت حشا الصابر |
| يمد يدا تشتكى ضعفها | لطبك في نبضها الفاتر |
| يرى منك ناصره غائبا | وشرك العدا حاضر الناصر |
| نهزك لا مؤثرا للعود | على وثبة الأسد الخادر |
| ونوقظ عزمك لا باثنا | بمقلة من ليس بالساهر |
| ونعلم أنك عما تروم | لم يك باعك بالقاصر |
| ولم تخش من قاهر حشا | سوى الله فوقك من قاهر |
| ولا بد من أن نرى الظالمين | بسفك مقطوعة الدابر |
| يوم به ليس تبقى ظباك | على دارع الشرك والحاسر |
| ولو كنت تملك أمر النهوض | أخذت له أهبة النائر |

وهذا البيت الاخير انعكاس للعقيدة التي تنص على أن المهدي لا يخرج حتى يأذن الله له لذلك يعذره الشاعر اذا تأخر ولكنه يرجوه أن يسأل الله تعجيل الظهور لنفد الناس

| | |
|----------------------------|-----------------------|
| وانا - وان اضرستا الخطوب - | لنعطيك جهد رضا العاذر |
| ولكن نرى ليس عند الآله | أكبر من جاهك الوافر |
| فلو تسأل الله تعجيله | ظهورك في الزمن الحاضر |

لوافتك دعوته فى النهوض بأسرع من لمحة الناظر
فتقف عدلك من ديننا قنا أعجمتها يد الآطر
وسكن أمنك منا حشا غدت بين خافقتى طائر

ولكن الشاعر لم يكف بالتوسل وحده بل يشتد ويستنهض لقيام ثورة
يتزعمها المهدي ويستظل برايتها بنو هاشم ، فيقول

أما لعودك من آخر أثرها فديتك من نائر
وقدها تمت ضحى المشرقين بظلمة قسطلها المائر
يردن بمن لا بغير الحمام أو درك الوتر بالصادر

★ ★ ★
اولئك آل الوغى الملبسون عدوهم ذلة الصاغر
هم صفوة المجد من هاشم وخالصة الحسب الفاخر

وأحب أن أسير مع الشاعر فى هذه القصيدة فان فى كل بيت منها
صورة من صور الامل الذى يتخيله الشاعر ، وفى كل بيت منها حركة
تعبيرية صادقة تجسد ما كان يحس به الشاعر من ظلم وجور

ويا ابن الألى ورنوا كابرا حميد المائر عن كابر
تدارك سيفك وتر الهدى فقد أمكتك طلا الوائر
كفى أسفا أن يمر الزمان ولست بناء ولا آمر

ثم يسرع النبض عند الشاعر وتموج الصورة بالحركة القوية ،
وتطفى الثورة

علك امام الهدى عز ما غدا البر يلقي من الفاجر
لك الله حلمك غر البغاة فأنساهم بطشة الفادر
وطول انتظارك فت القلوب وأغضى الجفون على عائر
فكم ينحت الهمم أحشاءنا وكم تستطيل يد الجائر
وكم نحن فى لهوات الخطوب تناديك من فمها الفاجر
أصبرا على مثل حز المدى ولفحة جمر الغضا الساعر ؟

أصبرا وهذى تيوس الضلال قد أمنت شفرة الجازر
أصبرا وسرب العدى راتع يروح ويفدو بلا ذاعر ؟
ويعتقد الشاعر أن ظلم العثمانيين متسلسل من الظلم القديم وأن
السيف الذى حارب الشيعة فى العصور السالفة هو السيف نفسه الذى
يحمله الاتراك

نرى سيف أو لهم منتضى على هامنا بيد الآخر
به تERC اللحم منا وفيه تشظى العظام يد الكاسر
وفيه يسوموننا خطرة بها ليس يرضى سوى الكافر
فشكو اليهم ولا يعطفون كشكوى العقيمة للعافر
وحين التقت حلقات البطان ولم نرى للبغى من زاجر
عجبنا اليك من الظالمين عجيج الجمال من الناحر
وبتنا نود الردى كلنا لننقل عنهم الى قابر^(٢٩) !!

صيحة مدوية ، وصرخة هادرة وتساق بين الاسلوب وال عاطفة ، ونفثة
حارة مضطربة ، وخاتمة فيها يأس يود الشاعر معه الموت !! ولم هذا كله
والعراق قد تساوى سكانه فى كل ما يعمله الاتراك ؟ لا شك ان الحلّى كان
فى أدق ساعات الانفعال ، وان هذه القصيدة لا بد أن تكون فى حادثة قاسية
من الحوادث الكثيرة التى تقع بين حين وآخر وقد رآها الشاعر بعينه فهزته
هزا عنيفا والتجأ الى العقيدة يستوحىها ، الى الملاذ يستنهضه •

وهذه قصيدة اخرى تمثل ثورة السيد حيدر فى حادثة من الحوادث
الهامة التى وقعت على الفرات سنة ١٢٧٤هـ ١٨٥٧م ، وعلى أثر عمل استنفز
أهل العراق وأزعجهم فناروا وتمردوا وحاربوا وحوربوا وأوذوا ايذاء
شديدا ، وقد كانت هذه الحادثة أيام الوالى (عمر) حين أعلن عزمه على
تطبيق نظام التجنيد الا لزامى ففعل ذلك بكل عنف وشدة^(٣٠) وبطريقة مليئة
بالرعب والارهاب زيادة على كره العراقيين للجندية ، ونفورهم منها لاسباب

(٢٩) راجع هذه القصيدة فى (الدر اليتيم) ص ١٨٣ - ١٨٦
(٣٠) مر تفصيل هذه الحادثة فى القسم الثانى من الفصل السياسى

واضحة (٣١) . وقد أثارَت هذه الحادثة شاعرية السيد حيدر الحلي وكان عمره اذ ذاك ثمانية وعشرين عاما فأعلن ثورته وسخطه ، ولكنه لم يكن صريحا في مواجهة الحكم ولم يشر الى تلك الحادثة وانما تناول الصورة في مظهرها العام ورسمها لتتطبق على كل حادثة مماثلة لا يعرف تاريخها ولا مسببها ، وقد لاذ بالعقدة ليستمد منها الشعور ، وبالع في الوصف مبالغة شديدة فاعتقد أن الدين تغير وان الضلال قد ملأ الارض ، وأن هذه الشدة لا تضاهيها أية شدة في العظم والعنف ، ثم استصرخ المهدي ليحمل سيفه لان الشيعة قد أخذوا ، والهدى قد مات !! الى أمثال ذلك في صور التهويل والمبالغات ، قال

| | |
|---------------------------|------------------------|
| يا غمرة من لنا بمعبرها | موارد الموت دون مصدرها |
| يطفح موج البلا الخطير بها | يفرق العقل في تصورها |
| وشدة عندها انتهت عظما | شدائد الدهر مع تكثرها |
| ضاقت ولم يأتها مفرجها | فجاشت النفس في تحيرها |
| الآن رجس الضلالة استغرق | الارض فضجت الى مطهرها |
| وملة الله غيرت ففدت | تصرخ لله من مغيرها |

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| من مخبري ، والنفوس عاتبة | ماذا يؤدي لسان مخبرها ؟ |
| لم صاحب الأمر عن رعته | أغضى ففصت بجور اكفرها ؟ |
| ما عذره نصب عنه أخذت | شعته وهو بين أظهرها ؟ |

(٣١) كان من كره العراقيين للجندية أن بعض الاسر العربية في النجف وغيرها أثر الالتحاق بالدولة الايرانية وسجل تابعيته لها وكانت الدولة لا تقبل هذا الادعاء في كثير من قضايا الجندية لانها على علم بأن هذا العمل انما هو هروب من الجندية وللشيخ حسين الدجيلي المتوفى سنة ١٣٠٥هـ قصيدة تشير الى هذه الناحية وقد نظمها في مناسبة دعوة شاب للجندية ومنها

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| فقل من أنت فارتاعت فرائصه | وقد كسا الخد ثوب الحمرة الخجل |
| فقال للفرس أنمي فامتوا غضبا | فقال أشهد من شئتم فما قبلوا |

راجع هذه القصيدة في (شعراء الغرى) ص ٢٠٩ - ٢١١ ج ٣

والبيت الاخير يوضح جزءا هاما من العقيدة وهو الايمان بكون المهدي يرى هذه الاعمال بعينه ويطوف بين ظهراني شيعته • ولكن لم يهول الشاعر ؟ ولم يعتقد أن الشيعة قد أخذوا لان الوالى جند بعض شبانهم ؟ الجواب يكمن فى الرعب الذى بثه الوالى وفى الارهاب الذى أشاع بين السكان ، وفى نظرة الشاعر الخاصة وهى أن كل عمل مثير يوجه الى مناطق الشيعة لم يكن الا عملا عدائيا مذهبيا !!

ويستمر الشاعر فى مثل هذه الصرخة

| | |
|---------------------------|--|
| يا غيرة الله لا قرار على | ركوب فحشائها ومنكرها |
| سفك والضرب ان شيعتكم | قد بلغ السيف حز منحرها |
| مات الهدى سيدى فقم وأمت | شمس ضحاها بليل عثرها |
| واترك منايا العدا بأنفسهم | تكثر فى الروح من تعثرها |
| لم يشف من هذه الصدور سوى | كسرك صدر القنا بموغرها |
| وهذه الصحف محو سفك للأ | غماد منهم أمحى لاسطرها |
| فالله يا ابن النبی فی فة | ما ذخرت غيركم لمحشرها |
| ماذا لاعدائها تقول اذا | لم تنجها اليوم من مدمرها ؟ |
| أشقة البعد دونك اعترضت | ام ححت منك عين مصرها ؟ |
| فهاك قلب قلوبنا ترها | تفطرت فيك من تنظرها !! |
| كم سهرت أعين وليس سوى | انتظارها غوثكم بمسهرها |
| تغضى وأنت الأب الرحيم لها | ما هكذا الظن يا ابن أطرها !! |
| ان لم تغنها لجرم أكبرها | فارحم لها ضعف جرم أصغرها ^(٣٢) |
| كيف رقاب من الجحيم بكم | حررها الله فى تبصرها |
| ترضى بأن تسترقها عصب | لم تله عن نايها ومزهرها |

وبعد أن يستكرر الشاعر هذا الاسترقاق والخضوع لاقوام مشغولين باللهو يتمنى الموت لانه أفضل من الحياة

(٣٢) فى البيت جناس بين (جرم) بمعنى الذنب وبين (جرم) بالكسر بمعنى الجسم

أبعد بها خطة تراد بها لأقرب الله دار مؤثرها
الموت خير من الحياة بها لو تملك النفس من تخيرها

ثم يهدد أعداءه بغضب الله ، وإن هذا الغضب إذا لم ينزل لأن دعوة
الناس قد حجبت لسوء أفعالهم فإن دعوة الامهات اللاتي أخذ أولادهن منهن
سكون السبب في غضب الله

ما غر أعداءنا بربهم وهو ملئ بقصم أظهرها
مهلا فله في بريته عوائد جل قدر أيسرها
فدعوة الناس ان تكن حجت لأنها ساء فعل أكثرها
فرب حرى حشا لواحدنا شكت الى الله في تضورها
توشك أنفاسها وقد صعدت أن تحرق القوم في تسعرها (٣٣)

واذ أترك هذا الشاعر أود أن أشير الى أن قصائده هذه لا تمثل الا
اهتزاز النفس واضطراب الاعصاب وعدم الوقوف امام الحوادث بثبات وقوة ،
وان كانت هذه الحوادث في حد ذاتها مثيرة مزعجة ، ولكن الاتكال على
العقيدة وانتظار الفرج دون عمل وتنظيم كل ذلك جعل السكان عرضة
للإذلال والاستهتار بحقوقهم ، ولو كان ثمة وعى منظم لوجه السكان توجيهها
موحدا ولكانت قوة القائل الموزعة بين الثورات الارتجالية قوة واحدة لا
يستطيع أى وال أن ينال منها أو يزعرها •

ويستفهم السيد ابراهيم الطباطبائي عن اليوم الذى تشرق فيه الدنيا
بظهور المهدي فيطوى الغي وينشر الرشد بين الناس
متى تشرق الدنيا بيوم محمد تنادى به الأملاك قد ظهر المهدي ؟
ويطوى لواء الغي من بعد نشره وتشر في الآفاق ألوية الرشد (٣٤)

(٣٣) راجع هذه القصيدة في (الدر اليتيم) ص ١٨١ - ١٨٣
وراجع للكشف عن مناسبتها (جنة المأوى) للشيخ حسين النورى ص
٢٩٠ من بحار الانوار المجلد الثالث عشر و (البابليات) لليعقوبى ص ١٥٤

والبيت الثالث يحتاج الى ايضاح لان الشمس لا تطلع من الغرب وان ذكرت بعض الروايات ان من علامات الساعة طلوع الشمس من الغرب ، ولكن الذى يريده الشاعر أن المهدي يظهر في مكة المكرمة لأول لحظة من ظهوره ، ومكة تقع في الغرب من العراق •

أما السد جعفر الحلبي المتوفى سنة ١٣١٥هـ فإنه يستنهض صاحب الزمان بأسلوب رقيق ليرد الحق الى أهله فالحكم عارية عند غير آل البيت ولا بد أن يرد هذا المعار ، ولكنه لا ينسى أن يبين الاسباب التي دفعته الى هذا الاستنهاض فيقول

| | |
|-------------------------|-----------------------------|
| يا قمر التم الام السرار | ذاب مجبوك من الانتظار |
| لنا قلوب لك مشاقة | كالنبت اذ يشتاقي صوب القطار |
| دجا ظلام الغي فلتجله | يا مرشد الناس بذات الفقار |
| يستتصر الدين ولا ناصر | وليس الا بكم الانتصار |
| مى نرى يبضك مشحودة | كالماء صاف لونها وهي نار ؟ |
| متى نرى خيلك موسومة | بالنصر تعدو فتثير الغبار ؟ |
| متى نرى الأعلام منشورة | على كمامة لم تسمعها القفار |

ثم يشير الى الزعامة الدينية وأنها لآل البيت فيقول
رياسة الدين لنا فصلت ابرادها والناس عنها قصار
أن يلبسوها اليوم عارية ففي غد سوف يرد المعار (٣٥)

ولكن شاعرا كان من رجال الدين البارزين في الحلة ومن المقربين لدى الولاة والدولة العثمانية لا يكتم استيائه وتذمره من السياسة والظلم الذى استباح الوطن ، والجور الذى عم البلاد فيجئ الى العقيدة متخفيا وراءها ويوجه نداءه الى الامام المهدي • أما الشاعر فهو السيد محمد القزويني المتوفى سنة ١٣٣٥هـ (٣٦) • وقد شارك غيره من الشعراء في

(٣٥) سحر بابل - ص ٢١٣ - ٢١٤

(٣٦) راجع (البابليات) ص ٢٧ من الجزء الثالث - القسم الثانى

تصوير الظلم وكان موقفاً في رسم الصورة غير قليل الحظ من صدق العاطفة
والحس ومن الموسيقى المنسجمة المطاوعة ، قال

أحلمها وكادت تموت السنن طول انتظارك يا ابن الحسن
وأوشك دين أبيضك النبي يمحي ويرجع دين الوثن !
وهذي رعاياك تشكو اليك ما نالها من عظيم المحن

لا شك أن السلطان العثماني يفضب لو سمع مثل هذا القول وان
الناس - أو المسلمين - ليسوا رعايا إلا لصاحب الزمان • وعلى لسان هؤلاء
الرعايا يستمر الشاعر ويخاطب المهدي

تناديك معلنة بالنجيب اليك ومبديّة للشجن
وتذري لما نالها أدمعا جرّين فلم تحكمن الزن
ولم ترم طرفك في رافة اليها ولم تصنع منك الأذن
لقد غر امهالك المستطيل عداك فباتوا على مطمأن
فطبق ظلمهم الخافقين وعم على سهلها والحزن
ولم يفتدوا منك في رهبة كأنك يا ابن الهدي لم تكن
فمذ عنا الجور واستحكموا بأمواتنا واستباحوا الوطن
شخصنا اليك بأبصارنا شخوص الفريق لمر السفن^(٣٧)

وتلتقي العقيدة بالسياسة في مكان آخر دون أن يكون استنهاض
للامام المهدي أو التجاء اليه ، بل تأتي الصورة مقصورة على وصف
الحادثة وأثرها في نفوس الناس وكونها موجهة الى ايداء العقيدة أو مكان
من أمكنتها المقدسة • وقد اجتمعت في حادثة واحدة خطوط متعاكسة متضاربة
من أمكنتها المقدسة • وقد اجتمعت في حادثة واحدة خطوط متعاكسة متضاربة
ليست الا لونا من ألوان المفارقات في الشعر ، وتضارب وجهات النظر بسبب العقائد

والمذاهب فان حادثة كربلاء أيام الوالى محمد نجيب^(٣٨) قد دفعت بعض الشعراء فى بغداد الى تأييدها وامتداح الوالى فيها^(٣٩) بينما أثرت فى شعراء الحلة وغيرهم تأثيراً سيئاً^(٤٠) وآلنتهم ايلاًماً شديداً ومن هؤلاء السيد مهدي ابن السيد داود الحلى المتوفى سنة ١٢٨٩هـ ١٨٧٣م فانه رد على أحد الشعراء المؤيدين للوالى بمقطوعة تضمنت بعض الاشطر من أبيات ذلك الشاعر^(٤١) عاكسا المعنى الاصلى ومنمندا بعمل الوالى ومن هذه المقطوعة قوله

| | |
|-------------------------------|---|
| (أحسين دنس دار مرقذك الألى) | كفروا فحاشا منه يدنس مرقد |
| بمصابة الشيطان لم تدنس ولو | قد حل منهم فى ثراها الملحد |
| من حقه جلب الجنود لها كما | جاءت اليك جنودها تتجد |
| دارت على أشياكم فيها كما | دارت عليك غداة قل المسعد |
| قلت بمرقذك الشريف أماجدا | لاذوابه وبجنبه قد ألحدوا |
| رقدوا به ولكونهم والوكم | (سموا الروافض وهو نعم المرقد) |
| كم من دم سفكوا وكم من حرمة | هتكوا وكم لأماجد قد بددوا ^(٤٢) |

أما الشيخ سالم الطريحي المتوفى سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م فانه يقدم قصيدة فى رثاء الامام الحسين بأبيات لا تخفى ألم الشاعر من جنف الحكم فيقول

الام الثوى وعلينا العدى تجور ولم نستطع ردها ؟

(٣٨) مر ذكر هذه الحادثة فى الفصل السياسى

(٣٩) ممن مدحوا الوالى فى هذه الحادثة الاخرس البغدادى وسيأتى

ذكر ذلك

(٤٠) راجع قصيدة الكواز فى بداية هذا الفصل

(٤١) نظم هذا الشاعر المجهول أبياتاً جاء فيها

أحسين دنس دار مرقذك الألى
 سموا الروافض وهو نعم المرقد
 كم من وزير لم ينل تطهيرها
 منهم فطهرها النجيب محمد
 (البابليات) ص ٧٦ ج ٢

(٤٢) راجع المصدر السابق ص ٦٧ - ٧٧

تحميلنا ما لو أن الجبال تحمل عثيرة هدها
تباغت علينا وقد أدركت على رغم أنافنا فصدها^(٤٣)

وفي سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م كان سكان النجف يحتفلون - كعادتهم -
بيوم مقتل الامام الحسين فلم يكن من حاكم المدينة الا أن أمر بقتل بعض
الاشخاص فقتلوا في الصحن الشريف وقد اهتزت النجف وأعلنت سخطها
واتصلت بالاستانة فأرسلت الدولة من يحقق في شأن هذه الحادثة التي
أغضبت رجال الدين وغيرهم ومنهم الشاعر السيد ابراهيم الطباطبائي الذي
استجاب لعواطف الناس فنظم مقطوعة يسجل فيها هذه الحادثة ولكنه خلط
فيها بين مدح الوالي - وكان اذ ذاك سرى الكريدي - وبين العقيدة الثائرة
لانتهاك شهر المحرم على يد حاكم النجف ، ولكن شيئاً جديداً في هذه
القصيدة لم يشر اليه الشعراء ولم يتناولوه بشعرهم وهو وصف الرشوة التي
كانت منتشرة بين الموظفين ، فان الطباطبائي قد كان بارعاً حين لم يفته
ذكرها ، وهذه أبيات من القصيدة تشرح ما ذكرناه

والى الولاية اليك مظلمتى أشكو بعين الواحد الأحد
لروافق الشاكون قد عمدوا ورواق عدلك مشرع العمد
بلد به يرثى علانية والمرثى هو حاكم البلد
كد ولا فرعون كاد به موسى بنفث السحر فى العقد

★ ★ ★

لله شهر محرم فلقد فيه استحلوا حرمة الصمد
واست بعاشر يومه نفر شهداء يوم الطف أو أحد
فلقد أباح به حرام دم هدرا بلا عقل ولا قود^(٤٤)

هذا ما استطعت أن أضعه من الشعر فى مجال السياسة الثائرة فى

(٤٣) شعراء الفرى - ص ١١٩ ج ٤

(٤٤) راجع ديوان الطباطبائي - ص ١٠١

ظل العقيدة^(٤٥) ، وهو جزء من كل ولكنه جزء هام فيه تصوير للعقيدة حين لا يرضيها الحكم القائم فتمد شعراءها بالفكرة والعاطفة وتثيرهم على الظلم والطغيان ، وتوجههم حيث تريد من التوجيه ، وهذا الشعر في كل ما مر من صوره ليس مجرد تفكير ديني أو سباح في الاخيلة ، وهيام وراء الآمال البعيدة ، بل هو مظهر من مظاهر التعبير عن الظلم وعدم الاستقرار •

^(٤٥)مر في فصل (الشعر والحوادث الوهابية) نماذج للكعبي والازرى من هذا اللون

الفصل الرابع

الشعر في ركاب الدولة

قبل البدء :

فى كل من عصور الادب مفارقات وخطوط يقاطع بعضها بعضا ويصطدم بعضها ببعض وقد تحدث هذه المفارقات لشاعر واحد كما تحدث لشعراء متعددين يختلف بعضهم عن بعض فى الاتجاه والغاية ، وليس من تعليل لذلك غير قسوة الحياة وتفاوت النفسيات قوة وضعفا وغير الحاجة التى ترسم للشاعر طريقته فى تناول الاغراض الشعرية وكونه يعيش فى بيئة ليس لشعرائها الا هذا المسلك الذى وجهوا اليه •

ولقد كان شعراء القرن التاسع عشر فى العراق - ومعظمهم ممن ذكروا فى معرض الحماسة والقومة والثورة فى ظل العقيدة - قد سلّكوا فى شعرهم مسلك أى شاعر لا يرى بأسا من جعل الشعر وسيلة للتقرب والزلفى عند السلاطين والولاة أو أى موظف من موظفى الدولة •

وقد يخيل لمن يكتفى بتصوير الحالة السياسية والاجتماعية فى العراق - كما سبق فى مكانه الخاص - أن الشعراء لابد أن يكونوا فى صفوف الناقمين من المواطنين ولكن الحقيقة غير ذلك فقد سار الشعراء فى خطوط ملتوية تتناسب مع عصرهم وبيئتهم وحياتهم ولا يغطى على هذا السير كونهم قد ثاروا فى بعض المناسبات وأظهروا استاءهم فى بعض اللحظات التى

لا يفسر معظمها بغير تأثير العقيدة أو ضيق منابع العيش أو الاقصاء عن وظيفة قد يكون الشاعر راضيا بها وان كانت تافهة بالنسبة لغيره من موظفي الاتراك أو مقريهم مع أن الموظفين من الشعراء كانوا قلة لا شأن لهم في الحساب •

ومن ثم لابد لنا أن نستعين بما مر في الفصل السياسي من عرض لأهم الحروب والحوادث التي رافقت تاريخ الدولة عامة والعراق خاصة خلال القرن التاسع عشر ، وما مر من ذكر لأعمال السلاطين والولاة في بناء مسجد أو تكية أو شق نهر لا يكاد يمر عليه عام حتى يندثر ، أو غير ذلك من الاعمال التي يراد بها التمويه على السكان واجتذاب عواطفهم ونفوسهم • ان تلك الاعمال والحروب والحوادث كانت ميدانا فسيحا يتسابق فيه الشعراء أصيلهم وهجينهم ، قويمهم وضعيفهم ، فهم مع الدولة في حروبها الخارجية باسم الاسلام ، والداخلية باسم المصلحة ، ومع السلطان في جلوسه وملاده وفيما يعمل من ترميم مسجد أو انشاء تكية ، أو ارسال كسوة الى ضريح أو مرقد ، وهم مع الولاة في حروبهم مع القبائل ، أو مع جيران العراق ، وفي أعمالهم الصغيرة من تعمير مسجد أو شق نهر صغير ، أو حفر بئر يشرب منها العابرون ، وفي كل عيد وختان ، بل في كل مناسبة وغير مناسبة ، وفي استقبال من يأتي وتوديع من يذهب •

وقد يكون من الهين على تاريخ الادب أن يسجل كل هذه الالوان من الشعر دون أن يضيق بها ، وأن يضمها الى أمثالها مما أنتجته العصور القديمة ، وقد يكون من الهين علينا الى حد ما أن نقبل ما قيل في مدح السلاطين وفي حروبهم مع الدول الأوروبية أو غيرها ممن يتمردون من الاتباع والمحكومين في ولايات البلقان والمناطق الأوروبية ، وقد يكون من الهين أيضا أن نقل ما مدح به الولاة في اصلاح مسجد أو شق نهر أو ختان أو عد •

ولكن الذي يجعل شعراء العراق عرضة للوم والتقريع ، والنقد الشديد اسرافهم في مدح الولاة خلال الثورات القبلية والاتفاضات الداخلية

التي لا تفسر الا بأنها رد فعل لفساد الحكم وسوء النظام ، فقد كان الشعراء
حيال هذه الحوادث والثورات متبرعين في شتم القبائل والتأثرين منها
خاصة ، وكانوا لا يكتمون استبشارهم عندما يجمع الوالى أية ثورة أو
حادثة ، ولا يخلون بتمجيد انتصاره على اخوانهم من المواطنين كأن الثورة
لم تكن على وال تركي ظالم ، أو دولة لا تربطها بالعراق رابطة جنس أو
لغة !! وكأن الثائرين لم يكونوا طلاب حق أو مدمرين من ظلم واضطهاد !!
وقد يكون من الثورات والحوادث ما لا صلة له بالسياسة ، وانما للشغب
والفوضى حسب ، ولكن أكثر الثورات كان نتيجة لغرسة الولاة وسوء
أعمالهم ، وحتى في هذه الحالة كان شعراء العراق ينتظرون النتيجة
ويسعدون لاستقبال الوالى عندما يعود منتصرا ظافرا تاركا وراءه الاشلاء
والدماء وخراب البيوت !!

ولس من تفسير لهذا السلوك المضطرب من الشعراء الا أنهم يعيشون
دائما في ضيق من الحاة وفي حاجة الى هبات الوالى وعطاياه ، وأن أكثرهم
أو بعضهم كان في جوار الوالى أو مستخدما لديه في وظيفة من الوظائف
الصغيرة .

وأكثر هذا الشعر لا يخرج عن الملل والطمع ، وعن التقليد
والمحاكاة ، ولا يعبر عن عاطفة صادقة يتجاوب معها المواطنون .

ولما كان هذا الشعر من أكثر الموضوعات^(١) التي تناولها الشعراء فان
استقصاءه كله ليس من وظيفة هذا البحث بل من وظيفة تاريخ الادب
وحده ، لذلك ساكفى منه بالقدر المناسب لتوضيح مسلك الشعراء ، أو بتعبير
أدق لتوضيح هذا اللون من الشعر في ظل الساسة والاحداث ، وساكفى
من هذا اللون أيضا بما يتصل بالسلطين وكار رجال الدولة والولاة .

(١) اذا استثنينا موضوع الرثاء في آل البيت

فى موكب السلاطين :

ان الشعر فى موكب السلاطين لا يخرج عن كونه شعرا تقليديا تمليه
العاطفة الاسلامية وخاصة فى حروب الدولة مع الدول الاوروبية •
وقد تساوى فى هذا اللون شعراء السنة والشيعية ، فقد كان هؤلاء
- ولاسما الفريق الثانى منهم - ينسون الجراح والآلام حين تعلن الدولة
حربا على خصم من خصومها ، أو حين يعلن أحد الخصوم حربا على الدولة ،
وكانوا بدافع من الشعور الاسلامى لا يدخرون وسعا فى الاشادة بالدولة
والسلطان وجنده ، ولا يكتمون فرحهم واستبشارهم بالنصر والظفر ، أما
السلطان فهو أمير المؤمنين وامام المسلمين وحامى حوزة الدين من أعدائه
الكفار ، وخصومه المعاندين المارقين ، وجيوشه المظفرة المنصورة انما تحارب
لاعلاء كلمة المسلمين والمحافظة على الثغور الاسلامية من الاعداء •
فاذا لم تكن حروب ولا حوادث تدفع الى نظم الشعر فان مدح
السلطان لا بد منه فى عيد جلوسه أو ميلاده ، أو حين يبعث كسوة الى مكة
أو المدينة أو الى مرقد أحد الائمة والاولياء فى العراق ، وعندما يأمر بترميم
مسجد أو تكية ، أو شق نهر أو غير ذلك •

وأود فى هذه الدراسة أن أسير مع السلاطين المدوحين وأسجل ما
قل من الشعر فى كل واحد منهم وان جاء متأخرا عن المناسبة ، أو نظم بعد
حدوثها بسنين غير قليلة •

محمود الثانى

كان لهذا السلطان شأن فى السياسة العثمانية وقد وقعت فى أيامه
حوادث وحروب غير قليلة مر ذكر الكثير منها فى الفصل السياسى وكان
لحوادثه وحروبه أثر فى الشعر العراقى كما كان لاعماله الاخرى بل كان
مدحه يأتى لمجرد المدح ومن ذلك ما قاله عثمان بن سند حين ذكر تولية هذا
السلطان سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م فقد نظم على لسانه قائلا

وما أنا الا من أناس وليدهم لبعث سرايا والجيوش المرشح

ولا عيب فيهم غير أنهم الألى اذا ملكوا أمر البرية أصلحوا
سلاطين من تقوى أساطين للهدى رهايين مهما عسس الليل سبجوا^(٢)

وقال في مدحه أيضا

سلطان عصر لم يزل يجرى على سنن الاول
متبلا متخشعا متدريا درع الوجمل
سل عنه دمعا سافحا والليل مسدول الكلل^(٣)

وفي الحق أن محمود الثاني لم يكن كما وصفه الشاعر هذا الوصف
المبالغ فيه^(٤) .

أما حرب (المورة) سنة ١٨٢٦م - وكانت بين الدولة واليونان^(٥) -
فانها أثارت عاطفة هذا الشاعر فقال فيها من قصيدة

لله من هزوا القنا فتهصرا وسقوا سيوفهم النجيع الاحمرا^(٦)
سلوا السيوف لنصر دين محمد ولكسر من نصروا سفاها قيصرا
قافين (محمود) النقية ما غزا الا بصلمه الفوارس فطرا
من آل عثمان الكرام ومن هم نصروا الهدى بسيوفهم فتأزرا

ثم يختتمها بقوله مخاطبا السلطان

مد النصارى من سفاهة رأيهم ومحا فاقض بما نضوت مكسرا
وتوهموا أن العظمم مانع آساد جندك أن تعوم وتعبرا
فتحصنوا فى (مورة) ففزوتهم بأسود حرب لا تهاب الأبحرا
ففللت جمعهم وأبت بسبيهم وغمرت ذابل عودهم فتكسرا^(٧)

(٢) مطالع السعود - الورقة ٩٥

(٣) المصدر السابق - الورقة ٩٧

(٤) راجع ص ٢٣

(٥) راجع ص ٢٨

(٦) مر قسم من هذه القصيدة فى الفصل الاول من هذا الباب

ص ١٣٤

(٧) مطالع السعود - الورقتان ١٥١ - ١٥٢

ولكن الشاعر فاتته الحقيقة لان الدولة لم تنتصر فى هذه المعركة ولم يكتب لها الظفر •

وقد بالغ عبد الباقي العمرى فى مدح السلطان محمود ، ففي سنة ١٢٥٤هـ بعث هذا السلطان بكسوة الى مكة والمدينة وأهدى قطعاً ثلاثاً من النسيج الى أضرحة الأئمة فى العراق وبهذه المناسبة نظم العمرى قصيدة جاء فيها

ويا لأُمير المؤمنين مرة
بها من أبى الزهراء قد أحرز الفخرا
بخدمة بيت الله قد أحرز المنى
وخدمة قر المصطفى فاز بالبشرى
حمت بيضة الاسلام أحضان رفعة
فلم تخش - ما دامت بأحضانه - كسرا^(٨)

عبد المجيد الاول :

وفى أيام هذا السلطان جلت جيوش محمد على والى مصر عن سوريا^(٩) ووقعت حرب (القرم) بين الدولة وروسيا^(١٠) ومدت أسلاك البرق الى بغداد ، وقد كان لهذه الحوادث وغيرها تأثير فى شعراء العراق فقد نظم السيد عبدالجليل الطباطبائي قصيدة بمناسبة جلاء الجيوش المصرية عن سوريا سنة ١٢٥٦هـ ١٨٤٠م ورأى فى هذا الجلاء مناسبة جميلة لمدح السلطان عبد المجيد الذى أشاع الفرح فى قلب كل موحد بانتصاره على محمد على وقد جاء فى هذه القصيدة الركيكة قوله

بشرى بغز قد أضاء مغلد شملت به الافراح كل موحد
سلطاننا عبد المجيد ومن له ال بأس الشديد وكل مجد أتلد

(٨) الترياق الفاروقى - ص ١٩٢ - ١٩٤

(٩) راجع ص ٢٩

(١٠) راجع ص ٢٧

ويشير الى وقوف الدول الاوروبية بجانب هذا السلطان لرد محمد على
ولحربه قاذ القياصرة الألى ألفوا الوغى بقرار كل مهند
أجرى اليه السفن كالاعلام قد قدت له متن الخضم المزبد^(١١)
ومما يدل على أن الشاعر كان يمدح قصدا للمنفعة الفردية ما جاء له
فى ختام هذه القصيدة من التماس يطلب فيه من السلطان أن يعفى أملاكه
فى البصرة من الضرائب فيقول بأسلوب ركيك قريب من الشعر الملحون
جد لى وأطلق أسر نخلى من أذى (الـ حيرى) معافى لم يزل كمؤبد

وفى حرب القرم سنة ١٢٧١هـ ١٨٥٥م وقف عبدالباقى العمري
يشيد بالدول التى ناصرت الدولة العثمانية ضد روسيا ولكنه لم يذكر
السلطان عبدالمجيد وقد كانت هذه الحرب فى أيامه ، ومما جاء له بهذه
المناسبة قوله

أقول للدول المنصور عسكرها لا زال عسكرها بالله منصورا
لما اتفقتم على صدق المحبة فى ما بينكم واتحدثم صرتم سورا
بسطوة (دعت) الاطواد راجفة دمتم محصنات الروس تدميرا

* * *

مدافع غطت الدنيا غماثها فغادرت صبح يوم الحرب ديجورا
وينهى هذه القصيدة بيت يؤرخ به هذه الحادثة وفتح حصن
« سواستبول فيقول

سواستبول التى أعيت معاقلها سخرتم حصنها أرخت « تسخيرا
ويؤرخ هذه الحادثة بأبيات ثلاثة اخرى فيقول

يا ملك المسقو سقاك الردى كأسا لها فى كل عضو ديب
وحزت كسرا ما له جابر وفزت من خرى باوفى نصيب
جاهك قد أسقط^(١٢) اذ أرخوا نصر من الله وفتح قريب^(١٣)

(١١) راجع القصيدة فى (روض الخل والخليل) ص ١٣٥ - ١٤٠

طبعة مصر

(١٢) فى التأريخ تعمية لطيفة وهى اسقاط كلمة (جاهك) من
التأريخ اى اسقاط حساب حروفها من الشطر الثانى

(١٣) الترياق الفاروقى ص ٠ - ٣٨٥ - ٣٨٦

وفي سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م صدر أمر السلطان عبدالمجيد بمد خط « التلغراف » الى بغداد فنظم عبدالباقى ارجوزة ضمنها أشطرا من ألفية ابن مالك وقد وصف بها هذا المخترع الجديد وأثنى على السلطان وقد جاء في هذه الارجوزة قوله

نظمتها في نعت من أمدنا بما به كل بعيد قد دنا
من مدد مسلسل الامداد يلوح مرفوعا على أعواد
تهتف فوقها هواتف الثنا على أمير المؤمنين علنا
من بعض تسهيلات الجزئه وهي لعمر جده كليه
صدور أمره الشريف العالى للخطه الزورا بلا امهال
في مد خط (التلغراف) المستوى على قواعد باحكام قوى
ثم يستمر في وصف الاسلاك بأبيات غير قليلة^(١٤) .

ولعبدالباقى العمري قصيدة اخرى في مدح هذا السلطان وهي في عيد جلوسه وليس فيها غير المبالغات والبديعيات المتكلفة^(١٥) . ولا يبي الثناء الألوسى أبيات قليلة في مدح هذا السلطان ومنها قوله في الاستانة فيها لقد حلّ الملك المجتبى عبدالمجيد أجل أملاك الورى^(١٦)

عبدالعزیز

وللسلطان عبدالعزيز نصيب غير قليل من الشعر العراقي ففي أيامه جاء الوالى مدحة الى بغداد وانشأ بعض المرافق وفي أيامه قضى على السعوديين في الاحساء^(١٧) ، وممن مدحه من الشعراء عبدالغفار الاخرس

(١٤) راجع المصدر السابق - ص :- ٣٥٢ - ٣٥٦

(١٥) راجع الترياق الفاروقى - ص ٣٥٧

(١٦) لقد أخذ الألوسى أبياتا من قصيدة لا . . . الشاعر الدمشقى وأضاف اليها أبياتا من عنده ولم يشر الى ذلك . . . غرائب الاغتراب ص ١١٦ - ١١٧ وديوان ابن عنيى ص ٣ - ٨ بعد المقدمة . طبع دمشق سنة ١٩٤٦م

(١٧) مر فى فصل الشعر والحوادث الوهابية « شعر غير قليل فى مدح عبدالعزيز

فانه لم يكتف بجعله خليفة بل فضله على جميع الملوك بأسا وكرما وجعل
منه حاكما عادلا فى النهار وجبرا متبلا فى الليل ، ومن ذلك قصيدة
نظمها أيام الوالى محمد نامق وقد جاء فيها قوله

خليفة الله فى الاقطار محترم ان العزيز عزيز حيشا كانا
فلا كنماق وال للعراق ولا كمثل عبدالعزيز اليوم سلطانا
فلو وزنت ملوك الارض قاطبة لزادهم فى الندى والبأس رجحانا

يقضى النهار بأحكام يدبرها * * *
رأيا ويتلو بجنح الليل قرآنا !!

فأجمعت أمم الافرنج واتفقت * * *
على محبته شيئا وشباناً^(١٨)

ان من المؤكد أن الاخرس - كغيره من بقية الشعراء - كان مخدوعا
لا يعرف شيئا عن هذا السلطان ولم تصله أنباء فسقه واسرافه وما كان
عليه من أعمال استحق أن يسمى بسببها السلطان المتهتك^(١٩) .

ولقد بالغ أيضا فى مدح هذا السلطان شاعر بغدادى آخر هو السيد
راضى القزوينى فقد شبه جلوسه على السرير بظهور النبى (ص) فى حين
أن هذا الشاعر من الذين لا يؤمنون بالخلافة العثمانية ومن ذلك قوله

زهت الملوك وأزهرت تيجانها مذ قر فى تخت العلا سلطانها
وتهلك غرر الممالك بهجة بملكها وتأودت عيدانها
فكأنما هى جنة وكأنما عبدالعزيز بملكها رضوانها
وكان يوم جلوسه بسريره يوم النبوة قد بدا برهانها
سجدت له أملاكها لما استوى وسما بعرش سيره خاقانها
ثم يخاطب المدوح نفسه

مشكاة نور العدل أنت سراجها وقناة دين الله أب سنانها

(١٨) الطراز الانفس ص ٤٢٤ - ٤٢٥

(١٩) سلاطين بنى عثمان الخمسة للدكتورة مارى ملز باتريك

ص ٣٤ من الترجمة العربية

بك ملة الاسلام راق نظامها وزها بعدلك عصرها وزمانها^(٢٠)
وفى سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م أمر هذا السلطان بفتح باب جديدة لمرقد
الامام علي فى النجف فنظم الشيخ عباس بن الشيخ حسن آل كاشف الغطاء
أبياتا بهذه المناسبة كتبت على الباب ومنها
عبدالعزیز أعز الله جانبه والدين حصن فيه أى تحصين
والى الرقاب امام الخلق كلهم خليفة الله فى فرض ومسنون
رأى على البعد ضيق الداخلين الى موى الامام ابى الغر الميامين
فجاد فى فتح باب أورث سعة لزائرى قبر باب العلم والدين
ففق خاضعا واسمع مؤرخها جلت علت باب سلطان السلاطين^(٢١)
ويلاحظ من هذه المقطوعة أن فتح باب للمرقد العلوى كاف لان
يجعل من عبدالعزيز اماما للخلق كلهم !! وليس بغريب أن يصدر هذا
من شاعر بعيد عن عاصمة السلطنة لا يعرف ما يجرى فيها وفى قصور
السلاطين منها ولا يدري أن الناس كانوا يودون سقوط هذا السلطان
وخلعه^(٢٢) • ولعبدالباقي العمري أبيات يؤرخ فيها جلوس هذا السلطان
سنة ١٢٧٧هـ^(٢٣) •

عبدالحميد الثانى

لقد كان نصيب السلطان عبدالحميد الثانى من الشعر العراقى أوفر
من غيره مع أن الفترة التى حكم فيها سماها المؤرخون فترة الاستبداد ،
غير أن هذا الاستبداد لم يعرف عنه شعراء العراق ما كان يعرفه سواهم
من الاتراك أو أنهم لم يدركوا المفهوم الذى أدركه سواهم من المطلعين
على التيارات السياسية فقد كان للجامعة الاسلامية التى احتضنها هذا
السلطان لتوطيد مركزه أثر كبير عند رجال الدين والشعراء فى العراق اذ

(٢٠) ديوان السيد صالح القزوينى الورقة ١٧٧

(٢١) ماضى النجف وحاضرها ص ٤٧ ج ١

(٢٢) راجع (مذكرات مدحة) ص ١٣ و ١٤

(٢٣) راجع الترياق الفاروقى ص ٤٣٦

كان دعاة هذه الجامعة ومؤيدوها لا يألون جهداً في ترسيخها في نفوس العراقيين ، وكانت تبدو الى جانب هذا بعض الاعمال التي يعدها العراقيون من الحسنات وهي في الواقع أعمال يمكن أن يقوم بها أى موظف يحسن تصريف الامور ولكن كل شيء من هذه الاعمال كان يعزى الى السلطان والى رغبته ، واذا كان لهذا السلطان شأن كبير في نفوس الشعراء يوم صار سلطاناً نافذ الكلمة فان هذا الشأن قد بدأ يوم مولده سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٣م وقد ظهر أثر ذلك على لسان الشاعر عبدالغفار الاخرس فانه نظم قصيدة يهنئ بها السلطان عبدالمجيد ويصف الفرح الذي عم الناس بيوم مولد ابنه عبدالحميد ومنها قوله

ولد قد أشرق الكون به من علا سلطاننا عبدالمجيد

* * *

فرزت بغداد حتى أنها قابلت أيام هرون الرشيد

* * *

واذا الكون أضاً أرخته فضياء الكون من عبدالحميد^(٢٤)

وحين صار سلطاناً أراد أن يبرهن على احترامه رجال الدين وطلبة المدارس الدينية ليجعل من هؤلاء رصيدا يعتمد عليه فأمر بأن لا يشملهم نظام التجنيد الالزامي ، وقد سجل حسن البزاز الموصلي هذه المناسبة بأبيات ركيكة جاء فيها قوله

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| لذاك أترعت من صهبائه جامي | العلم أشرف ما يسمو به السامي |
| سلطاننا عز سلطاننا لنا حامى | والله شرف أهليه فميزهم |
| منه البسطة في عدل وانعام | كهف الخليفة ظل الله من ملث |

* * *

| | |
|--------------------------|-------------------------------|
| حرباً وداع له تقسيم علام | وقسم الأمر فينا بين منتظر |
| لا بد من علماء فيه أعلام | وقد عفا عن أهيل العلم حين رأى |

(٢٤) راجع الطراز الانفس ص ٩٥ و ٩٦

لا يستطيعون حرباً غير أنهم إلى المحاربين فيه كل مقدم (٢٥)،
وفي الحق أن طلب العلم لا يمنع من التدريب على أعمال الجندية
إلى حد كبير ولكن الجندية في العصر العثماني كانت أشد على رعايا الدولة
من وباء الطاعون وقد مرت الإشارة إلى موقف العراقيين منها في أكثر من
مكان واحد •

وفي سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٧ م تعرضت مدينة النجف - كعادتها -
للعطش بسبب ارتفاعها وعدم وصول الماء إليها فأمر السلطان عبد الحميد
بشق نهر صغير من الفرات يصل إلى غربي المدينة حيث تنخفض الأرض
هناك إلى مستوى نهر الفرات وقد استبشر سكان النجف حين وصل الماء
إليهم وأقاموا مهرجاناً بهذه المناسبة أُلقيت فيه الخطب والقصائد التي أُنظمت
في مدح السلطان والوالي (مصطفى عاصم) وحاكم النجف وقد سُمي
هذا النهر (نهر الحميدية) باسم السلطان كما سُمي أيضاً (نهر عبدالغني)
باسم حاكم النجف • أما الشعراء الذين نظموا بهذه المناسبة فمنهم الشيخ
طاهر الدجيلي وقد جاء في قصيدته قوله

حي الملوك وقل لها بشرى أجرى الحميد لحيدر نهرا
ومنها في مدح والي وحاكم النجف

كالعاصم الحامي له خضعت أهل العراق فلم يحق مكرا
وكذلك عبدالغني فكهم قد شد في طلب العلا أوزار (٢٦)

وكان المبدع بهذه المناسبة السيد جعفر الحلبي فقد قال يمدح
عبد الحميد

دول الممالك طأطأت لك هامها قدما فقد ألفت اليك زمامها
نظرت مداك فقصرت من خطوها ورأت لوائك فنكست أعلامها
فاهناً رئيس المسلمين برتبة شرف الملوك إذا مشوا خدامها
ويمدح والي عاصما خلال القصيدة ثم يعود إلى مدح السلطان

(٢٥) ديوان البزاز الموصل ص ٩٠ - ٩١ طبع مصر

(٢٦) راجع (مباحث عراقية) ص ٦٦ ج ٢ •

وصف حالة مدينة النجف وما كانت تعانيه من العطش فيقول
واسمع رئيس المسلمين رسالة بضاعة عزت على من سامها
فدى يمينك قد مقي أهل الحمى^(٢٧) عذبا يبل من الصدور أوامها
كان الغرى وأهله فى حالة تشكو عن الماء القراح صامها
وعلى البعاد أغتتهم وأتتهم بالماء يعلو سهلها وأكامها^(٢٨)
وقد أهمل هذا الجدول الصغير بعد مدة قليلة فترسبت فيه الرمال
وانقطع الماء عن النجف سنة ١٣٠٨هـ فأمر السلطان عبدالحميد بحفر نهر
آخر يحاذى الاول وسمى « نهر الحميدة » و « نهر الحيدرية » وقد
روى فى الاول اسم السلطان ، وفى الثانى اسم (حيدر) وهو من أسماء
الامام علي ، فكان لهذا النهر من الفرح ما كان للاول ، وقد أقيم له احتفال
حكومى فى النجف وألقيت القصائد المناسبة ، ومنها قصيدة للسيد جعفر
الحلى وقد جاء فيها

جرى ماؤنا من لطف سلطاننا عذبا فلذ لنا طعما ولد لنا شربا
حبا امام العصر من صدقاته مراحم فيها ازداد من ربه قربا
امام الورى عبدالحميد الذى جرت أياديه حتى عمت الشرق والغربا !!
ثم يمدح الوالى فيها فيقول
وقد علمت بغداد أن وزيرها غدا لأمام العصر أسرع من لبي^(٢٩)

ويختم القصيدة بيت يؤرخ فيه هذه المناسبة فيقول

لقد صدقت أبيتها وهي عذبة
إذا الناس فى تاريخها شربوا العذبا^(٣٠)

ويصادف هذا التاريخ سنة ١٣١١هـ .

(٢٧) الحمى من أسماء النجف
(٢٨) سحر بابل - ص ٣٧٨ - ٣٨٠
(٢٩) راجع - البابليات - ص ٢٥ ج ٣ القسم الثانى للششيخ
محمد على اليعقوبى .
(٣٠) سحر بابل ص ٧٩

وللسيد جعفر الحلبي مقطوعة اخرى بهذه المناسبة أيضا^(٣١) . ومن الشعراء الذين نظموا فيها السيد محمد القزويني فقد أرسل الى السلطان أبياتا بطريق البرق يشكره فيها على هذه المبرة ومنها
شكرا امام المسلمين على صنائعك السنية
أجريت نهرا في الغرى به منتت على الرعية^(٣٢)

وفي حرب الدولة العثمانية مع اليونان سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٧م^(٣٣) نظم شعراء العراق قصائد انتصروا فيها للدولة ووقفوا الى جانبها ومنهم السيد جعفر الحلبي فقد قال يمدح السلطان عبدالحميد ويصف هذه الحرب
لك طأطأت دول الضلال رقابها قدما فسيك قد أذل صابها
ومنها

أرسلت من جند الآله عساكرا يستعذبون من النية صابها
أما أعداء الدولة فانهم خافوا
وتحصنوا في قلعة قد أحكمت
أسا وأعلاها يفوق سحابها
وتخللوا فيها النجاة وما دروا
أن النية أنشت أنيابها
حتى اذا فتح المظفر (أدهم)^(٣٤) ورأت جيوش الشرك ما قد نابها
حلف النصاري بالمسيح وأقسمت
تلك البطارق أن تغير دابها^(٣٥)

والقصيدة كلها من هذا النسق الذي لا يعدو هذه الفكرة وهي أن النصاري ثاروا على المسلمين فحاربهم السلطان .

وكان لابد أن يعلن في الاقطار التابعة للدولة العثمانية ان السلطان قد انتصر لثلاثي الرعية ظنها بالدولة ، وباعتقاد الانتصار نظم الشيخ يعقوب

(٣١) راجع المصدر السابق ص ٢٣١

(٣٢) راجع (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر) ص

٢٧٤ و (البابليات) ص ٢٦ ج ٣ القسم الثاني

(٣٣) راجع ص ٢٨

(٣٤) هو القائد المعروف أدهم باشا

(٣٥) راجع سحر بابل - ص ٥٢ - ٥٤

ابن الحاج جعفر^(٣٦) أبياتا يؤرخ بها هذه الحادثة فقال
سلطاننا عبدالحميد الذي صان حمى الاسلام والمسلمين
أعز دين الله في موقف أذل فيه الشرك والمشركين
حرب بها اليونان قد شاهدت عاقبة الطغيان عين اليقين
فيها أعان الله أجاده على العدا والله نعم المعين
أوحى له الذكر بتاريخها انا فتحنا لك فتحا مبين^(٣٧)

ويلاحظ في هذه الابيات أن الشاعر لا ينظر الى هذه الحروب الا من
الزاوية الدينية وهو كالسيد جعفر الحلبي في هذه النظرة ، اذ لم يكن
للشعراء علم بالسياسة ولم يكونوا يعرفون ان العامل الديني كان أضعف من
غيره في إثارة هذه الحروب .

ويشارك جميل صدقي الزهاوي في مدح السلطان وجيوشه في هذه
الحرب وكان اذ ذاك في الاستانة فيقول

هو الفتح ألقى في قلوب العدا هولا وأثبت ان الحق يعلو ولا يعلى

أضاع بنو اليونان في الحرب رشدهم * * *
فضلوا ، وقد خابت آماني من ضلا

نصحناهم ألا يعافوا ولأنا * * *
فلم يقبلوا الا العداوة والقتلا
الى أن ردونا كيدهم في نحورهم * * *
بنصر به قد خشنا الملك الأعلى

ويشير فيها الى طلب الصلح من قبل اليونان

ولما سعى الساعون أن نهجر الوغى ونمنح للمغلوب من فضلنا مهلا
عقدنا مع اليونان للحرب هدنة على طلب منهم فكانوا اليد السفلى
ويمدح السلطان فيقول

لسلطاننا عبدالحميد سياسة طريقتها في المضلات هي المثلى^(٣٨)

(٣٦) هو والد الشاعر المعاصر الشيخ محمد علي اليعقوبي معتمد
الرابطة الادبية في النجف . وقد توفي سنة ١٣٢٩ هـ .

(٣٧) راجع (البابليات) ص ١٤٤ - ١٤٧ ج ٣ القسم الاول

(٣٨) راجع (الكلم المنظوم) للزهاوي ص ٣ و ٤

ولهؤلاء الشعراء وغيرهم قصائد أخرى في مدح هذا السلطان بمناسبة عيد ميلاده وجلوسه وبعض أعماله ، ومنها قصيدة للسيد جعفر الحلبي نظمها بمناسبة عيد ولادة عبد الحميد سنة ١٣١٥هـ ، وقد جاء في أولها
ميلاد سلطان البرية عيد وبه سعود للهدى وصعود
بوركت يا دين النبي بليلة فيها خليفة عصرنا مولود
وعدد أبيات هذه القصيدة ثمانية وثلاثون خص بقسم منها الى بغداد
اذ ذاك وهو عطاء الله الكواكبي^(٣٩) ، وقد بالغ في مدحه كما بالغ في
مدح السلطان^(٤٠) .

الصدور العظام والوزراء :

لم يقتصر الشعر الذي كان يوجه الى استانبول على السلطان وحده سواء سجع هذا الشعر أم لم يسمع ، وسواء وصل أم لم يصل ، بل كان للصدور العظام والوزراء نصيب منه ولكنه نصيب قليل لبعد الشعراء عن العاصمة ولان شهرة هؤلاء الموظفين لم تكن قد بلغت درجة كافية بحيث تملأ أسماع الشعراء كما ملأت أسماعهم شهرة السلطان أو الوالي الذي يقيم بين أظهرهم .

ولذلك لم يكن الشعر الذي قيل في هؤلاء شيئا يذكر فقد كان لا يتجاوز المقطوعات القصار والابيات القليلة التي كانت تنظم بمناسبة تعيين صدر أعظم أو تقال للزلفى والتقرب لدى صدر أعظم أو وزير .
ومن أمثلة ذلك قول عبد الباقي العمري عندما صار مصطفى رشيد صدرا أعظم للمرة الثالثة سنة ١٢٦٩هـ

رجع الرشيد الىصداره فلنا الهنا ولك البشارة
والمخاطب بالبيت أبو الثناء آلوسي حين كان في الاستانة^(٤١) .

(٣٩) ولي بغداد سنة ١٨٩٦م وكان طاعنا في السن
(٤٠) راجع القصيدة في (سحر بابل) ص ١٥٦ - ١٥٨
(٤١) راجع (غرائب الاغتراب) ص ١٢١

ويجمع العمرى بين هذا الصدر وبين مستشاره فؤاد على والسلطان
عبدالمجيد أيضا فيقول

فؤاد لصدر الملك لا زال لائقا وهل لائق للصدر غير فؤاده
فذاك وذا جسم وروح تلازما لخدمة ظل الله بين عباده^(٤٢)

وقد جمع الآلوسى أيضا بين هذا الصدر ومستشاره بأبيات ثلاثة فقال
ولما نظرت الى المستشار وشت عليه مدار الامور
هتفت أنادى بقول صحيح عليه يلوح من الصدر نور
يليق بذا الصدر هذا الفؤاد وهل غيره لائق للصدر^(٤٣)
ولا شك أن للاسماء أثرا فى هذا اللون من البديع الذى تلاعب فيه
العمرى والآلوسى •

ونرى الآلوسى فى رحلته يبين الاسباب التى الجأته الى ترك بغداد
والاتجاه الى الاساتنة فيخاطب هذا الصدر بيتين ضمنهما شطرا لابي فراس
الحمدانى فقال

قصدت من الزوراء صدرا معظما وقد سامنى ضر وقد ساءنى دهر
وقلت لنفسى - والرجاء موفر - (لنا الصدر دون العالمين أو القبر)^(٤٤)
وهو بهذا التضمين قد استخدم كلمة الصدر بمعنى آخر •

ثم يعود الى مدح المستشار فؤاد ، والصدر ، والسلطان بأبيات يرجو
بها قضاء حاجته ليعود الى أهله فيقول مخاطبا المستشار

أرى دولة الاسلام شخصا فرأسه ملاذ الورى السلطان والصدر صدره
وأنت بلا ريب فؤاد وجذا فؤاد حوى العرفان لله دره
فيا سيدى قد طال بالعد غربة فمنا عليه أن يحرر أمره
ليغدو الى أهليه بالخير داعيا ويبقى لكم ما عاش بالمدمح ذكره^(٤٥)

(٤٢) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٤٣) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٤٤) المصدر السابق ص ١٢٤

(٤٥) المصدر السابق ص ١٤١ و ١٤٢

وحين صار فؤاد على صدره أعظم سنة ١٢٧٨هـ نظم العمري أبياتا
يؤرخ بها هذه الصدارة فقال

صدارة كررت مرارا لواحد الدهر في الكمال
ما قطعت عنه وقتا الا وحت الى الوصال
ان رمت تاريخها ارتجالا كرر ثلاثا الصدر عال^(٤٦)
وليس في هذه الايات سوى الفن التاريخي فاذا كررنا كلمتي (الصدر
عال) ثلاث مرات وحسبنا حروفها على طريقة الجمل وجدناها توافق تاريخ
هذه الصدارة •

وقد أرخ الاخرس صدارة مدحة باشا الاولى سنة ١٢٨٩هـ وكانت
في أيام السلطان عبدالعزيز فقال
ان المالك في صدارة (مدحة) أضحت بطيب مسرة وهناء
ضحكت به دار السعادة بعدما أبكت عليه أعين الزوراء
للدولة العليا من سلطانها أرخ تصدر مدحة العليا^(٤٧)
ومما تجب الإشارة اليه أن مدحة عين صدره أعظم بعد أن غادر
العراق بمدة^(٤٨) •

وقد مدح عبد الباقي العمري بعض وزراء الدولة ومنهم حفطي باشا
فقد أرسل اليه مقطوعة مع القصيدة التي نظمها في الاستيلاء على حصن
(سواستبول) في حرب القرم وقد مر ذكرها في مدائح السلطان عبد المجيد
أما المقطوعة التي مدح بها حفطي فانه يشير فيها الى صداقة كانت بينه وبين

(٤٦) الترياق الفاروقي - ص ٤٣٦

(٤٧) مجموعة للاخرس لم تنشر الورقة ١٧ من نسختي المنقولة

عن نسخة يعقوب سركيس

(٤٨) في ديوان السيد حيدر الحلي قصيدة في مدح الصدر الاعظم
ولكن ليس في المقدمة أو في ثنايا القصيدة ما يشير الى اسم المدوح ويغلب
على الظن أنها في (مدحة) بعد ان عين صدره أعظم لان للشاعر فيه بعض
المدائح أيام كان واليا في العراق راجع هذه القصيدة الغفل في ديوان
السيد حيدر الحلي ص ٢٠٨ - ٢١٠ وفي العقد المفصل للشاعر نفسه
ص ٢٣ - ٢٤ ج ٢

هذا الوزير وأن هذه الصداقة هي التي حفزته لأن يرسل إليه قصيدة (سواستيول) • وقد جاء في مقطوعته التي يخاطب بها حفظي قوله
أيها المولى الذى باهت به دارة الملك شيوخ الوزراء
هذه منظومة قد قالها عبدك الداعي بصبح ومساء
ذاكرا فى ضمنها ما شاع من فتح حصن الروس من بعد الغزاء^(٤٩)
ولم يكن القصد من هذا الخضوع غير أن يتفضل الوزير بتسجيل
هذا الشاعر فى ثبت المخلصين للدولة •

وللعمرى أيبات أرسلها الى أحمد زيور ناظر الاوقاف السلطانية
بالاستانة وكان هذا قد طلب من الشاعر نسخة من ديوانه (البقيات
الصالحات) فى مدح النبی وآل البيت لطعها له وأول الايات
دعائى زيور الوكلاء أحمد لحضرته بظهر الغيب أحمد^(٥٠)

ولاية العراق

ان الشعر الذى قيل فى مدح الولاية وذكر مناسباتهم وحوادثهم
وحروبهم شعر كثير لا يمكن استيعابه فى دراسة لا تعرض الا الى النواحي
الهامة التى يمكن أن تكشف عن الخطوط والاتجاهات ، وتترك من الشعر
ما كان صورا مكررة أو معادة لا تضيف شيئا جديدا الى المطلوب من هذه
الدراسة ، كما أن فى مدح بعض الولاة ما لا حاجة لذكره فى هذا المجال
لانه مجرد مدح يراد به التماس عطف الوالى ورضاه •

ولما كانت صور المدح فى مناسبة هامة أو فى غير مناسبة صورا كثيرة
متشابهة فان الاقتصار على بعضها دون بعض أجمل من تناولها عامة ، لذلك
أرى من المفيد أن أتناول فى هذه الدراسة ما قيل فى أبرز الولاة ، وما صدر
من أشهر الشعراء خلال القرن كله ، وأن أتجنب الفضول والزوائد •
واذا كان تحديد الموضوعات مما يعين على فهمها ودراسة جوانبها أكثر مما

(٤٩) راجع :- الترياق الفاروقى ص ٣٩٥

(٥٠) المصدر السابق ص ٣٩٦

لو درست وهى غير محددة فان دراسة هذا الشعر فى كل ولاية على حدة أفضل فى تنظيم الخطوط التاريخية والسياسية والادبية ، وان تناول كل وال من الولاة وكل شاعر من الشعراء بانفراد مما يساعد على التصوير الواضح المفيد •

ولاية بغداد :

اذا كنت قد بدأت بغداد فلانها الولاية الكبرى ولان ما قيل فى ولاتها من الشعر أكثر وأغزر مما قيل فى الولاة الآخرين ، وسأتناول من ولاية بغداد من كان لهم أثر فى توجيه الشعراء وجهة حكومية طوعها الشعر فى مختلف الحوادث والمناسبات •

الوالى داود :

ان هذا الوالى المملوك الذى ختم به عصر المماليك كان أقرب الولاة الى شعراء عصره ، بل كان الشعراء أقرب طبقات المجتمع اليه ، وقد كان نصيبه من مدائحهم ودواوينهم أكثر من نصيب أى وال سبقه أو لحقه ، فقد رافقوه فى كل عمل وكل حادثة ومعركة وسجلوا له ذلك كما يجب ، وكما يشاء ، وارتفعوا به الى مصاف الملوك والأمراء بل منحه بعضهم صفة الخلافة وسماء خليفة العصر ، أما هو فقد كان يطرب لهذه المدائح والالقب ويثب عليها بمقدار ما يستحق أصحابها ، ومن أبرز الشعراء الذين مدحوه

الشاعر عثمان بن سند :

هذا الشاعر كان من المقرئين عند داود وقد ألف كتابه المعروف مطالع السمود^(٥١) ، وسجل فى هذا الكتاب ما يرضى هذا الوالى من تاريخه وتاريخ حروبه ومعاركه والثورات التى قضى عليها ، ومدحه بقصائد

(٥١) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا وتوجد منه نسخة فى مكتبة الاوقاف ببغداد برقم ٥٨٤٠ ونسخة ثانية فى مكتبة الآثار ببغداد ايضا اما التى اتخذتها مرجعا فى هذه الدراسة فهى نسخة الآثار برقم ٢٣٣

كثيرة كان فيها عوناً له وخصماً لكل نائر أو محارب ولو كان من القبائل
العراقية العربية ، ولعل من المستحسن أن أترك لشعره كل إيضاح وشرح
وألا أتسرع في الحكم والتعليق .

قال عثمان على لسان هذا الوالى مدعياً ان المعارف والتقوى كانت فى
أيامه وان أيام من سبقه كانت حافلة باللهو

وانى لفلال لكل كنية سريع الى ابطال سورتها عدوى
تفاخر أيامى وأيام من مضوا ببغداد ممن أملوا جهدهم شأوى
فكانت لأيامى المعارف والتقى وما افتخرت أيامهم بسوى اللهو^(٥٢)

واذا كان اللهو لا يحتاج الى دليل فان التقى من مبالغات الشاعر !!
وقال فيه حين أرخ انتصاره على الوالى السابق واسناد ولاية بغداد له
وقد تعرض لذكر الوالى السابق ودفاعه عن نفسه
بشراك بشرى بما تهوى قصى الزمن والجد منك على والرجا حسن

* * *

أردت حقن دماء المارقين ولكن العصاة أراقوه وما حقنوا
ظنوا الحصون عن الاقدار مائة أمانع من قضاء القاهر الحصن ؟
وما نفوا عن (سعيد)^(٥٣) ما تأففه اذ خال فيهم دفاعا رأيه الزمن
استودع الملك لا أهلا فساء به رجاء ، أذنب على الاغنام يؤتمن^(٥٤) ؟

ويخرج عثمان بن سند بن
فيندد بثورة عشائر الدليم على
هذه الثورة بقوة الانكشارية ، فمطر
هو القرم صلت فى الرؤوس مناصله
مناصل ما صلت على غير معتد
١٣ بتأثير الزلفى لهذا الوالى
١٣٥ وكان داود قد قضى على
سل مناوييه وثل مقاتله
غشوم يرى أن يدفع الحق باطله

(٥٢) مطالع السعود - الورقة ٣

(٥٣) هو سعيد بن سليمان . راجع الفصل السياسى فى

بحث الماليك

(٥٤) مطالع السعود - الد ١ ٢ ١١٤

غزا فرقة أموا الضلال فاذعنوا لدن ما صنعتهم أسده وقنابله (٥٥)

وزير به عاد الهدى سامى الذرى * * * وأبيض سفاح العطاء وشامله
رأى من (دليم) نفرة فغزتهم
- الى أن أجابوا عن صفار - جحافلهم (٥٦)

وماذا بقى لطلاب الحق بعد هذا الضلال والباطل والصفار الذى وسم
به الثائرون العرب ؟

وحين أُرُخ حرب داود مع الدولة الايرانية سنة ١٢٣٧-١٢٣٨ هـ
١٨٢١م وهى الحرب التى لم يعمل فيها جيش الدولة العثمانية شيئاً مثل ما
عمل بعض عشائر العراق (٥٧) ، رأى عثمان أن يسجل مع التاريخ قصيدة
يشير بها الى هذه الحرب فتجاوز الواقع حين نسب الانتصار الى داود ،
وتناول الايرانيين من زاوية العقيدة لا من زاوية الخلاف السياسى القائم بين
الدولتين ، فقال

تاج العلا داود والصدر الذى بسعوده صدر الوزارة أعظم
من كنه فى المارقين كتائب منها كتائب كل باغ تهزم

قل للروافض كيف ذقم طعنهم * * * أمجاج نحل طعمه أم علقم ؟
ما أن زجرتم شاهكم عن بفيه بل صلتم لم تعرفوا من أئتم
وزحقتكم بخميسكم كى تملكوا بغداد فانقلب البوار عليكم (٥٨)

ولكنه رأى من غير المناسب ألا يذكر يد العشائر فى دحر القوات
الايرانية فقال موجه خطابه الى (صفوق بن فارس) رئيس شمر
يا شمرياً رأينا من مواهبه ما ليس يحصره طرس ولا قلم
انى مدحت لسمعى عنك ما قصرت عن أن تجاريه فى سحه الديم

(٥٥) ماصع بمعنى قاتل وجالد .

(٥٦) مطالع السعود الورقتان ١١٦ و ١١٧

(٥٧) راجع ص ٥٤

(٥٨) مطالع السعود الورقة ١٣٤ - ١٣٦

وحتى في هذه الابيات لا ينسى داود ، ولا يرى لصفوق ما يمدح عليه
غير نصرته هذا الوالى

لكننى رجل أهوى الكرام ومن كانوا لخير وزير فى الورى خدموا
اذ كنت افرغت وسعا فى نصيخته وكنت قاضيه لما بغى العجم^(٥٩)
وفى الثورة القبلية التى بدأت فى الحلة سنة ١٢٤٠هـ وانتقلت الى
(عفاك) سنة ١٢٤٢هـ وانتهت بانتصار داود^(٦٠) يسبشر عثمان باندحار
الثائرين ويمدح الوالى المنتصر فيقول

يريد النصر باكرنا فهنا وزيرا هز للعلياء فنا
أبار من الروافض كل هام بأسياف يرين القتل سنا
دعاهم للهوادة فاشمازوا فشن عليهم الغارات سنا
فادوا مثلما بادت ثمود ولكن بالسيوف ضحكن سنا
فيا أعلى وزير طال مجدا وأعطته اللىالى ما تمنى
تهنأ بالذى أعطاك مولى حاك بنصره فنعمت منا^(٦١)

وقد بالغ الشاعر هنا مبالغه عاطفة ضيقة الشعور لان هذه الثورة كان
من زعمائها قاسم الشاوى ومحمد الكتخدا نفسه وليس كل المحرضين أو
الثائرين من الشيعة كما أوحى اليه عاطفته ، ولكن اندفاعه الى هذا الحد
ناشئ من أن الثورة كانت فى مناطق شعبة مضافا الى ذلك كونه متعصبا تعصبا
شديدا ينسبه فى أكثر المواقف أن هؤلاء عرب وانهم طلاب حق •

ولا أريد أن أطيل الوقوف مع الشيخ عثمان بن سند فان شعره فى
داود أكثر مما ذكرته ، وان الذى اخترته أهم ما فيه من الناحية الموضوعية •
وممن أكثروا من مدح داود

الشاعر الشيخ صالح التيمى

فقد كان التيمى^(٦٢) يعد الشاعر الخاص لداود وكان رئيس ديوان

(٥٩) المصدر السابق - الورقة ١٣٧

(٦٠) راجع ص ٦١ و ٦٢

(٦١) مطالع السعود - الورقة ١٥٧

(٦٢) ولد التيمى سنة ١١٩٠هـ وتوفى سنة ١٢٦١هـ ١٨٤٥م

وكانت دراسته الاولى فى النجف

الانشاء العربي في حكومة هذا الوالى ، وقد تصدى لتسجيل أعماله وحروبه مع ايران . ومع القبائل والمدن العراقية ، وكان داود نفسه لا يعتمد على غير هذا الشاعر^(٦٣) في المناسبات التى تحدث من ترميم مسجد أو بناء جامع فيطلب منه أن يؤرخ تلك الاعمال^(٦٤) ، ولقد كان التميمي كثيره من الشعراء مالغا مسرفا فى مدح داود بل كان موقفه من الثورات القبلية موقفا لا يدل على شيء سوى الذوبان فى موقد الحكم ، وعلى ما فى شعره من قوة وسلاسة كان فى طليعة الشعراء الذين ساروا فى ركاب الولاة واندفعوا مع التيار فأكثر من مدح داود فى حروبه ومعاركه وأسرف فى تمجيد مواقفه من قمع الحركات والثورات الداخلية وندد بالقبائل التى كانت تتمرد وتثور على الوالى ونظر اليها كما ينظر الخصم الى خصمه . ولقد كان شعره فى حروب داود ووقائعه مع الفرس أو القبائل العراقية يصطبغ بالدماء ويتلون ببريق السيوف ويزخر بالكلمات المججلة الصاخبة كأنها غارات وكتائب^(٦٥) . ومن ذلك قصيدة نظمها فى الحوادث التى وقعت بين العراق وايران فى سنتي ١٢٣٧-١٢٣٨ هـ ٢٢-١٨٢٣ م وهى قصيدة عامرة الاسلوب وقد تناول فيها الفرس من زاوية الجنس وعابهم بالديانة المجوسية القديمة ووازن بينهم وبين الترك فى الشجاعة والحروب ففضل الترك عليهم ، وفيها يقول

يطلعك الزوراء أشرق نورها فأعيادها أيامها وشهورها
لمرك ما زاعت عن الرشد أمة اذا كان عن داود تتلى زبورها
حمى جانبها والعراق بسطوة يمينا الى طهران وافى نذيرها

(٦٣) كان داود يسميه (سيد شعراء عصره) راجع المسك الاذفر - لمحمود شكرى الآلوسى ص ١٤٩
(٦٤) فى (تأريخ مساجد بغداد وآثارها) لمحمود شكرى الآلوسى - نماذج من هذا الشعر .
(٦٥) مدح التميمي داود قبل أن يكون واليا وذلك عندما ذهب الى خزاة وأخضعها سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٥ م راجع (ديوان التميمي) ص ٣١

إذا ما سرت للفرس منها كئاب سرت قبلها عقبانها ونسورها
 مجوس لنار الحرب ظلت رؤوسهم سجودا ، كذا دين المجوس سعيها
 عنت فاصطلت نار المواضي وبعدها الى النار فى يوم الجزاء مصيرها
 وردت على الاذنان لا ذو وقاية يقبها ولا حصن حصين يجبرها
 هى الترك ان صالت فلا يزدجردها يرد مواضيها ولا ازديدها
 وفى الحق أن الايرانيين لم يردهم داود ولا كئدها المنهزم ، ولا
 ضباطه الممالك ولا جيش الترك ، وانما ردهم العرب ، ولو أن الشاعر جرد
 هذه القصيدة من مدح داود والترك لكانت من خيرة الشعر القومى ولكنه
 جمع فيها هذا الخليط المتباين وأفرغها فى قالب المدح وحده وقد استمر فيها
 مادحا داود وأعماله الحربية وبالع وأسرف فى المبالغة (٦٦) .

ونظم قصيدة اخرى مشيرا الى الصلح الذى عقد بين الدولة وایران
 فى هذه الحوادث وكان قد توسطه رجال الدين سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢١م قبل
 المعركة الثانية فقال يخاطب داود

ملكك الورى مستمسكا بعد همة بجبل من الله المهيمن موثق
 سل الفرس مذ جرت اليك كتابا متى وطئها الشمس بالنقع تفرق
 ملاحم وافت من خراسان أثرها ملاحم ترى فيلق بعد فيلق
 لقد جمعت من كل قطر وانها لتسعى على أعقاب شمل مفرق
 فباكرتهم فى حيهم بكئية فلم تبق فيهم غادة لم تطلق
 ومذ جنحوا للسلم والصلح طاعة منتت بصلح صادر عن ترفق (٦٧)

ونرى التحريض واضحا فى شعر التيمى اذ يطلب من داود أن يجعل
 سيفه بين يديه فى معالجة الامور وألا ينسى بذل المال والتأني أيضا
 لا يبلغ الملك المتوج قصده الا اذا جعل الخزائن معبرا
 فاسلل سيوفك انها آيات ما أدركت من شرف به فقت الورى
 واذا رأيت البنى رافع رأسه فادمغه بالعضب المهند واكسرا

(٦٦) ديوان التيمى - ص ٤٠ - ٤٢

(٦٧) ديوان التيمى ص ٨٨

هذا العراق وأنت فيه مفرد فانظر امورك بالتأني تقدر^(٦٨)
 والى هذا الحد قد يهون الامر في تفسير مدائح التميمي في داود ولكن
 قصائده في الثورات القبلية ليست ذات اتجاه مقبول شأنه في ذلك شأن
 معاصريه من الشعراء الذين لم يكن هدفهم غير التقرب والزلفى وأخذ
 الجوائز وان كانت يسيرة ، ومن شعر التميمي في هذه الحوادث ما قاله في
 المعارك التي وقعت بين قبائل عنزة وشمر سنة ١٢٣٩هـ - ١٨٢٣م وكان داود
 في هذه المعارك بجانب شمر لانهم آزره في محاربة الفرس^(٦٩) . ولما
 كانت قبائل عنزة^(٧٠) من بكر بن وائل فان الشاعر استهل قصيدته
 بالاستخفاف والاستهانة ببكر بن وائل كلها فقال

| | |
|-------------------------------|--|
| سلوا حي بكر أين قوض وائله | وفي أى أقطار تولت قبائله ؟ |
| تصابت الى ماء العراق وما درت | موارده حثف ، ذعاف مناهله |
| وما كل مفتون بليلي ومغرم | اذا رامها في جنح ليل تواصله |
| تجافت عن القيصوم شوقاً لباسق | من النخل طعم النحل حينا يشاكله |
| تؤمل من دار السلام سلامة | وللرأى زيف يشبه الحق باطله |
| فعارضها من أفق بغداد عارض | أبى الله الا أن تبيد زلازله |
| ثلاثون شهرا قاتل الفرس لم تطش | مرامه عن أكاد قوم تقاتله ^(٧١) |

ان هذا الاسلوب الرائع الجميل يضع في فكرة غير مقبولة ،
 اذ يرى الشاعر أن قبائل عنزة لا يجوز لها أن ترد ماء العراق ، بل تبقى
 في باديتها بين الشيع والقيصوم ، وانها لا يحق لها أن تسكن في أى مكان
 من العراق الذى استباحته سيول من الترك والماليك والفرس !!
 ولقد كان التميمي وفا لداود حتى بعد أن انطوى حكمه من العراق

(٦٨) المصدر السابق ص ٤٢ و ٤٣

(٦٩) راجع (مطالع السعود) الورقتان ١٤٠ و ١٥١

(٧٠) قبائل عنزة منتشرة في العراق من البصرة الى الشمال على
 سقى الفرات الغربى وقد تفرعت الى أفخاذ كثيرة يقيم بعضها داخل
 العراق ومنها أفخاذ في نجد وسوريا
 (٧١) ديوان التميمي ص ١١٤

وسفر الى الاستانة ، ومثال ذلك جوابه على القصيدة « الخالية »^(٧٢) ، التي أرسلها داود الى شعراء العراق ليباروها فباراها بعضهم وأبى التميمي أن يسج على منوالها ولكنه أرسل الى داود قصيدة يعتذر فيها عن هذه المجارة ويتمنى عودة داود الى العراق ، وقد جاء فيها

عهدناك تعفو عن مسيء تعذرا ألا فاعفنا عن رد شعر تنصرا
ثم يشرح أسباب اعتذاره بأسلوب فني يدل على ذوق ومملكة أصيلة^(٧٣) ويقول بعد ذلك

فدع ذا ولكن اسأل الله بالذي دنا فتدلى ثم بالوحي أخبرا
بشيرا يوافي باللقاء ، وطالما يوافي رسول بعد يأس مبشرا^(٧٤)
وهذه الايات تدل على ما لداود من أثر في نفس التميمي وعلى ما له من صلة بالشعر والادب حتى في منفاه •
ومن الشعراء الذين مدحوا داود

الشاعر عبد الباقي العمري :

ولكن العمري لم يكن من شعراء داود لانه كان آنذاك في الموصل ولم ينتقل الى بغداد مقما فيها الا في ولاية على رضا الذي جاء لانهاء حكم المماليك ، لذلك كان شعر العمري في مدح داود لم يتجاوز قصيدة واحدة وبضعة أبيات في بعض المناسبات ، ومن هذه الايات قوله متشفعا لدى داود لساعد على تعيين يحيى الجليلي واليا على الموصل

يا ملك البلاد أمنيّ حاشاك مثلي يعود منك كسيرا

(٧٢) هذه القصيدة نظمها الشاعر اللبناني بطرس كرامة وقدمها الى داود في الاستانة ، وأولها
أمن خدّها الوردي افتتك الخال فسح من الاجفان مدمعك الخال
وسميت الخالية لان كل قوافيها جاءت على كلمة الخال مختلفة المعاني
(٧٣) ستأتى هذه الايات في الفصل الخامس
(٧٤) راجع هذه القصيدة في ديوان روض الخل والخليل ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي ص ١٧٢ طبعة مصر و ٢٥٣ و ٢٥٤ طبعة الهند وفي ديوان التميمي ص ٥٦ - ٥٧

أنت هارون وقته ورجائي أن أرى في حماك يحيى وزيراً^(٧٤)
ولا شيء في هذين البيتين غير الرجاء ، وتشبيه داود بهارون الرشيد ،
والتورية بين يحيى الجليلي ويحيى البرمكي •

وأما القصيدة فهي التي نظمها مجارياً بها القصيدة « الخالية » التي
مرت الإشارة إليها ، وقد جاء في قصيدة العمري قوله

الى الروم أصبوا كلما أومض الخال فاسكب دمعا دون تسكابه الخال
وعن مدح داود وطيب ثنائيه فلا القد يثنى ولا الخد والخال
ويشير في هذه القصيدة المتكلفة الى أيام داود في العراق

عفا الله عنه قد عفت بعد بعده من اللذة الزورا المعالم والخال
وهيهات ما دار الرصافة بعده ولا الكرخ الا السبب الفقر والحال
ولكن العمري يخطأ ويستدرك لان حكمه هذا مما يفضب الوالى
الموجود آنذاك وهو محمد نجيب فيقول

ولكن بهذا العصر أمت كجنة بها تنهى ربوة الشام والخال
ورضوانها اليوم النجيب مشيرها يحافظها مولى عليها هو الخال^(٧٥)
والقصيدة هذه تتألف من ستة وعشرين بيتاً^(٧٦) •

ومن الشعراء الذين مدحوا داود

الشاعر عبدالغفار الاخرس :

وقد كان الاخرس شاباً صغيراً عند تولية داود الحكم ، وكان عمره
حوالى السابعة والعشرين حين انفصل داود عن الولاية ، ومثل هذه السن
لا تتيح للشاعر أن يشق طريقه بين شيوخ الشعراء لينال من هذا الوالى

(٧٥) تراجم مشاهير الشرق - ص ٢٥٠ ج ٢ - ط ٣ و (الترياق
الفاروقى) ص ٤٤٩

(٧٦) الخال الاولى البرق والثانية السحاب والثالثة
الشامة والرابعة الاثر والخامسة المكان الموحش • والسادسة
مكان بالشام • والسابعة القائم

(٧٧) راجع - (الترياق الفاروقى) ص ٢٤٣ - ٢٤٤

الخطر مكانة تثير شاعريته للمدح والاطراء غير أنه ركض مع الراكضين وصفق مع المصفقين فسجل في ديوانه صورة من المدح^(٧٨) بحث بها الى هذا الوالى بعد أن سافر الى الاستانة وقد جاءت هذه الصورة فى قصيدة طويلة بدأها بمقدمة بدوية النسيج والخيال وأولها

بوادى الغضا للمالكية أربع سقتها الحيا منا جفون وأدمع

وتستمر هذه المقدمة فى أربعة وعشرين بيتا تعقبها صورة ناثرة على

الحياة والاقدار كشأنه فى معظم قصائده ومنها

أرانى مقيما بالعراق على ظما ولا منهل للظامئين ومرتع
وكيف بورد الماء والماء آجن يبل به هذا الغليل وينقع ؟

ويصف نفسه متخلصا الى مدح داود

كأننى صفاة زادها الدهر قسوة من الصم لا تبلى ولا تتصدع
فسلمت حرب النابتات فلم تزل تقود زمامى حيث شاءت فاتبع
وكنت اذا طاشت سهام قسيها وقتى الردى من صنع (داود) أدرع

وقد تمنى الاخرس فى هذه القصيدة عودة داود الى العراق أو أنه

نفسه يذهب الى أرض الروم فيلم أقدامه !!

أبا حسن هل أوبة بعد غيبة فللدر فى الدنيا مغيب ومطلع
وانى على خصب الزمان وجدبه الك وان شط المزار لأهرع
ولو أتنى وفقت للخير أصبحت نياقى بأرض الروم تحدى وتسرع
الى مالك ما عن مكارمه غنى وغير ندى كفيه لا أتوقع
فألثم أقدام الوزير التى لها الى غاية الغايات ممشى ومهيع^(٧٩)

(٧٨) للاخرس أبيات طلب فيها من داود أن يتسبب فى معالجة

لسانه ومنها

هذا لسانى يعوقه ثقل وذاك عندى من أعظم النوب
فلو تسببت فى معالجتى لنلت أجرا بذلك السبب
وقد أرسله داود الى الهند ولكن الطبيب حذره من المعالجة لانه قد يشفى
وقد يموت ، فقال لا أبيع كل ببعضى . راجع (المسك الاذفر) ص ١١٧
(٧٩) راجع هذه القصيدة فى (الطراز الانفس) ص ٢٤٩ - ٢٥١

ولا أدري فلعل داود كان ملء النفوس فى ذلك الوقت والا فكيف
يتنزل شاعر نائر علوى النسب الى لثم أقدام هذا الوالى المملوك ؟ على اننا
لا نستبعد مثل هذا من شعراء ذلك العصر مهما كان فخرهم بأنفسهم •

شعراء متفرقون :

وقد مدح داود شعراء كثيرون فى بغداد والحلة والتجف ، ومنهم
السيد حسين بن سليمان الحكيم الحلى فقد استوحى ثورة القبائل فى (عفك)
سنة ١٢٤٢هـ ونظم قصيدة فيها شماتة بالمغلوبين وثناء على الوالى الغالب وقد
جاء فيها قوله

خليفة هذا العصر داود من غدت شكيمة هذا الدهر فى يده اليمنى^(٨٠)
ثم يقول له

وأضحكت سن الدهر من شيخ حمير وباهلة من بعد ما ملثوا حزنا^(٨١)

ومن الواضح أن الشاعر أسبغ على داود لقب الخليفة دون أن يلتفت
الى أن الخليفة فى الاستانة وهو سيد داود وأمثاله •

ومنهم الحاج مسعود الازرى وقد جاء فى قصدة له
تذلل لداود الملوك جلاله وتلثم منه موطىء النمل بالفم^(٨٢)

ومنهم الشيخ ابراهيم قفطان التجفى ، وفى قصيدته اشارة الى صلة
داود بعلماء التجف^(٨٣) •

(٨٠) راجع هذه القصيدة فى (شعراء الحلة) ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ج ٢
(٨١) يريد بشيخ حمير (قاسم الشاوى) وباهلة من عشائر
عفك ومن الطريف ان عبدالنبي البغدادى جمع بعض زعماء الثائرين فى
بيت ركيك فقال
نادى محمد رستم يا صالح يا قاسم الشاوى جميعا نشرد !!
والمقصود محمد الكتخدا ورستم أغا وصالح اخو شوكة حاكم الحلة
المؤقت (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) الورقة ١٠ من نسخة
يعقوب سرقيس

(٨٢) مجموعة الشيخ محمد رضا الشيبى

(٨٣) راجع (شعراء القرى) ص ٥٥ ج ١

ومنهم السيد عبدالجليل الطباطبائي البصري وليس في شعره ما يستحق الذكر (٨٤) .

الوالى على رضا

وهذا الوالى كان نصيبه من الشعر كثيرا ، وكان موقف الشعراء منه كموقفهم من داود فهم معه فى كل حادثة وثورة ، وهم الى جانبه فى كل عمل ، ان غرب نحو الاكراد هملوا له وكبروا ، وان شرق نحو القبائل العربية زمروا وطلبوا !! وهم فى كل ما نظموه كانوا حربا على بلادهم واخوانهم وبوقا صاخا لهذا الوالى الذى كان يخدعهم بالبسمة الساخرة ، ويقربهم بأساليبه المختلفة وان كانوا لا يحتاجون الى تقريب !! ومنهم

الشاعر الشيخ صالح التميمي :

الذى أكثر من مدائح على رضا ورافق أيامه وحوادثه كما رافق أيام داود ، ولم تقف به كهولته موقف التبصر والتريث فى الحوادث القبلية والتورات التى اريقت فيها الدماء جزافا ، بل اندفع الى اطراء هذا الوالى والاشادة بحروبه الى حد بعيد ، ولعل أول قصيدة يمكن أن تجعل بداية الاتصال بين الشاعر وهذا الوالى قصيدته التى استعرض فيها ظفريه بداود ، وقد دلت على وفاء التميمي لممدوحه الاول وعلى ضخامة الاثر الذى تركه داود فى نفوس الشعراء ، قال

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| ظفرت بداود الوزير وللردى | قوارع خطب لا يفك اصطلامها |
| ولو ظفرت فيه نزار ويعرب | يوم هياج ، والذمام ذمامها |
| فخطبها مستعجلا عن حياته | لعاجله قبل الخطاب حمامها |
| على أنه ما مد كف مسالم | وترتكب الامر العظيم عظامها |

(٨٤) راجع روض الغل والخليل ص ٥١ - ٥٣ و ١٦٨ - ١٦٩ طبع مصر

واعلم حقا اننى ان ختمتها بذكر على قيل مسك ختامها^(٨٥)

وقد جمع الشاعر بين التهويل فى خطر داود على الدولة ، وخطر
الوالى الجديد فى سمو نفسه حين عفا وصفح عن داود •

وعندما هوجمت اماره راوندوز فى الشمال سنة ١٢٥٢هـ ١٨٣٦م^(٨٦)
واكتسح على رضا قلعة أربيل الواقعة فى الشمال أيضا رأى التيمى أن
يسجل هذه الحادثة فنظم قصيدة يهنئ بها الوالى ويمجد قوته ، وقد وصف
قلعة أربيل وصفا بارعا وشبهها بعمورية التى فتحها جيوش المعتصم
العباسى فقال

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| لا ترو عن فتح عمورية خبرا | ففتح أربيل ما أبقى لها أثرا |
| لو أن معتصما تعدوه صارخة | بقطر أربيل عن ادراكها قصرا |
| دع ما سمعت وحدث بالذى نظرت | عيناك فالصدق مقرون بمن نظرا |
| ما فوق فتحك الا فتح من نزلت | عليه سورة نصر الله فاتصرا |

أما قلعة أربيل فهى

| | |
|--------------------------------|--|
| صماء سامية الاعلام غاصبها | قد كاد يبلغ حد الكفر أو كفرا |
| غمامة لا يدانيها الغمام علا | ولامع البرق مع ارجائها استرا |
| ما صافح الريح من أركانها حجر | الا ويقدح من حافاتها شررا |
| ما فى جوانبها ماء لذى ظمأ | وليس فى أرضها ما ينبت الشجرا |
| مذ كانت الارض ما فيها جرى نهر | لكن سيفك أجرى بالدما نهرا |
| كانت هى «الهبل» الاعلى وكم صنم | سما «على» له بالكسر فانكسرا |
| وان من خالف السلطان ما ربح | يوما تجارته بل انما خسرا |
| لو طار سهمك فى اربيل عن هدف | فالصدر تالله بالكردى ما صدرا ^(٨٧) |

واذا تركنا المبالغات التى حشدها التيمى فى أول القصيدة فان ما بقى

(٨٥) ديوان التيمى - ص ١٢٩

(٨٦) راجع ص ٦٣

(٨٧) ديوان التيمى - ص ٥٢ و ٥٣

فيها صورة واقعية لقلعة أربيل في كونها قائمة على قمة جبل قليل الماء ، أما ان سكانها غاصبون لها وانهم قد بلغوا حد الكفر أو كفروا لتمردهم على الوالى فذلك من رأى الشاعر ومن يشاكلة !! وقد شبه هذه القلعة بهبل وهو الصنم المشهور فى مكة ، واستعان بالتورية بين الوالى على رضا الذى احتل هذه القلعة وبين الامام على الذى شارك النبى (ص) فى تحطيم الاصنام •

وكانت حادثة (المحمرة) سنة ١٢٥٣هـ ١٨٣٧م واحتلالها من قل على رضا وجيوشه وأتباعه من العشائر العراقية^(٨٨) ذات أثر فى شاعرية التيمى فقد أشاد بانتصار هذا الوالى على قائل (كعب) فى جنوبى البصرة وطرده زعيمهم من مشيخة المحمرة نفسها ، وقد أثر عن التيمى البيت الآتى

دع التفاصيل واسألني عن الجمل

هذا علي وهذي وقفة الجمل^(٨٩)

ويظهر من هذا البيت انه مطلع قصيدة لم تكمل أو انها كملت ولكن ضاعت فيما ضاع لهذا الشاعر ، غير أنه أفرغ طاقته الشعرية فى قصيدة تناول فيها هذه الحادثة تناولاً يرضى هذا الوالى ومن سار فى ركابه ، وقد جاء فيها قوله

وكم قلعة بالمرهفات حصينة كما حصنوا بالخدر عذراء كاعا
جلبت لها من شاسع الدار شاحط كائب للهيجاء تزجى كائبها
ويشير الى جيش على رضا الذى جاء به من الشام واستعان به على أخذ المحمرة فيقول معبراً عن كائبه

تجافت عن (العاصى) وعن عذب مائه

وشوقاً بـ (كارون) استسأغت مشارباً^(٩٠)

(٨٨) راجع ص ٦٣

(٨٩) مجموعة الشيخ محمد رضا الشيبى

(٩٠) العاصى نهر معروف فى سوريا وكارون نهر فى عربستان

يصب فى شط العرب

لقد طعت شرق البلاد وغربها وصالت فما أبقت عدوا محاربا
 فما يوم (ذى قار) وان زمعت به ربيعة يوم الفخر نافس حاجبا
 بأعظم من يوم (المحمرة) التي بها نشرت بيض الخدود ذوائبا
 رمى شرقها الاقصى بأعظم وقعة لها بالردى خطب يهول المغاربا
 وأصمى بكعب الرمح (كعبا) فأصبحت منازلهم بعد الأنيس سباسبا^(٩١)
 ويهئته بانتصاره على قبيلة (خزاعة) في الفرات الاوسط بأكثر من
 قصدة واحدة ومن ذلك قوله

أقمت بأكناف الخورنق موسما بأشلاء أهل الغي قد صار موسما
 قائل لم تجنح الى السلم عادة فألحقها طسما وعادا وجرهما
 على انها ما زارها ذو وزارة لعمرك قبل اليوم الا توهما^(٩٢)

وهذا اعتراف صريح من الشاعر بأن هذه القبائل كانت لا تخشى بأس
 الحكومة ولا ترهب الولاة ، وقد يكون التيمى أراد تعظيم الوالى وتمجيد
 قوته التى استطاعت أن تخضع شوكة هذه القبائل القوية ، وهذا النوع من
 التصوير مألوف فى الشعر القديم ، وهو التهويل بالعدو وتضخيم قوته ثم
 القضاء عليه ، لئلا يقال أن المدوح انتصر على خصم ضعيف •

وفى حادثة الاستيلاء على العمادية فى الشمال وسجن حاكمها الكردي
 اسماعيل البهديناني فى بغداد^(٩٣) - وكانت هذه بعد الاستيلاء على امارة
 راوندوز واحتلال أربيل والمحمرة - وجد التيمى مناسبة لمدح علي
 رضا فقال

على لوائك خط النصر والظفر جرى القضاء بما قد خط والقدر
 فاسعد بفتح قضت فيه السعود له يوم أغر من الايام مشتهر

(٩١) ديوان التيمى - ص ١٩ و ٢٠

(٩٢) المصدر السابق - ص ١٣٠

(٩٣) راجع (خلاصة تأريخ الكرد وكردستان) ص ٢٤٨ من

الترجمة العربية •

قد يقبل العذر لكن ما عملت بما وإلى العمادية المخذول يعتذر^(٩٤)
 كم في (المحمرة) العبرى له عبر ان لم تفده ففى (اربيل) يعتبر
 لكنه (جابر) الثانى طفى وبغى * * *
 وجابر هو أمير المحمرة المغلوب ، ولا شك أن ذكر المحمرة فى هذه
 القصيدة يعين على معرفة تسلسل هذه الحوادث التى كادت أن تغمض
 فى ثنايا التاريخ .

وفد كرر التيمى وصف هذه الحوادث التى انتصر بها علي رضا فى
 هذه المناطق ومدحه بهذه المناسبات فى قصائد متعددة^(٩٦) .
 وقد سجل فى قصيدة اخرى حركة قائل (غزوة) حول بغداد للرد
 على سياسة هذا الوالى وسوء تدبيره فقال
 فان سمعت أذنك عن نسب العلا لغير على فالعلا غير لائق
 ضربت على صحن العراق سرادقا غدت جنة اكرم بها من سرادق
 رغمت بها آناف بكر بن وائل فلم يبق منهم ذو شظاظ ومابقى^(٩٧)
 واذا كان الوالى قد شئت هذه القسلة وأبعدها عن بغداد فان العراق
 لم يكن جنة فى أيامه ولا فى أيام غيره .

وبعد انتقال علي رضا من بغداد الى الشام سنة ١٢٥٨هـ - ١٨٤٢ - ١٨٤٣م
 بعث اليه التيمى بقصيدة فيها شوق له وذم لمن جاء بعده ، ومنها
 أيام غبك قد أكدى بها أملى عسى بأيامك الاقدار تسمح لى
 * * *
 لم يبق بعدك فى الزوراء ذو كرم يرجى ولا لنى الآداب من أمل^(٩٨)
 ومن الذين مدحو علي رضا

(٩٤) هكذا ورد البيت وفيه شيء من غموض التعبير

(٩٥) ديوان التيمى - ص ٥١

(٩٦) راجع المصدر السابق - ص ٤٧ و ٤٨ و ٧١ و ٧٢ و ١١٠ و ١١١

(٩٧) المصدر السابق - ص ٩١

(٩٨) راجع المصدر السابق - ص ١٠١ و ١٠٢

الشاعر عبدالباقى العمرى :

فقد كان عبدالباقى ذا صلة وثيقة بالوالى علي رضا وقد توطدت مكاتته السياسية فى أيامه ، وقد نافق كغيره من الشعراء ومالاً السياسة فى قصائد غير يسيرة ، وكانت أهمها قصيدته التى نظمها عند الاستيلاء على (المحمرة) لانه رافق الوالى فى هذه الحملة الصارمة وشاهد عن كتب تلك المعركة التى أسفرت عن انتصار الوالى وهزيمة قبيلة (كعب) وأتباعها • وقد حشر العمرى فى هذه القصيدة بعض العوامل الدينية فنظر الى الثائرين من زاوية التشيع ، ونسى أنهم عرب وأن ثورتهم أو تمردهم انما كان بدافع قلبى كالذى حدث من غيرهم فى العراق ، ونسى أيضا ان الوالى الذى مدحه كان يتشيع لعلي وأولاده ومن المشجعين على مدحهم وراثتهم ، أما القصيدة فهى طويلة وقد جاء فيها

| | |
|-----------------------------|---------------------------------|
| فتحنا بحمد الله حصن المحمرة | فأضحت بتسخير الآله مدمره |
| بسيف على ذى الفقار الذى لنا | لقد أخلصت صفلا يد الله جوهره |
| وجابر أورثناه كسرا بكعبه | وليس لعظم قد كسرناه مجبره |
| غدا هاربا يبغي النجاة بنفسه | وخلى قناطير التراث المنقطره |
| على ساقها قامت لكعب قيامة | فزلت بهم أقدامهم متعثره |
| فلم تنف عنهم مانعات حصونهم | من الله شيئا فى القضايا المقدره |

غدوا طعمة للسيف الا أقلمهم * * * قد اتخذوا من شط (كارون) مقبره

سقى (الرفض) ساقى الحوض كأس منية * * *

غداة وردنا بالمسرات كوثره

وأمت (بنو النصار) والرفض دينها

على ما دهاها من على مفكره

وخبر ما فى هذه القصيدة انها سجلت أسماء المحاربين من الجيوش والقبائل العربية التى آزرت الوالى ومنهم (الارناؤد) الذين جاؤا معه ،

وقبائل زبيد ، والشاوي ، وعقيل ، وطى ، والمتفق • ولقد كان هذا النصر
بكرامة الشيخ عبدالقادر الكيلاني لا بالقوة والمدافع والقبائل !!
وطار بسر (الباز)^(٩٩) صيت عقابنا

لهم فقدت شيراز منهم مطيره
أما الوالى فى الختام
فلا زال منصور الجيوش مؤيدا وأحزابه فى كل حرب مظفـره^(١٠٠)
ومن الشعراء الذين مدحوا هذا الوالى

الشاعر الاخرس

وتدل القلة الموجودة فى شعر الاخرس على أن صلته بالوالى علي رضا
لم تكن ذات شأن ولعل تردده المستمر على البصرة وبعده عن بغداد فى
معظم الاحيان قد يكون سببا فى قلة ما نظم فى مدح هذا الوالى •
وقد يكون له فيه مدائح ولكنها لم تدون اذا كان ديوانه المطبوع
بعض ما نظم^(١٠١) ، غير أن المطبوع لم يخل من مدح هذا الوالى عرضا
وفى سياق مناسبات لا تخصه بالذات ، كالقصيدة التى نظمها الاخرس فى
مدح أبى التناء الآلوسى عندما ولى منصب الافتاء سنة ١٢٥٠هـ برغبة من
علي رضا وقد جاء فيها قوله

لله ما هذا الوزير انه (على) المولى جاك • بالرضا^(١٠٢)
معمر بغداد فى احسانه من بعدما أبادها ريب الوباء^(١٠٣)
وراض أهل البغى بالقتل فلن تسمع فى ديارهم الا الوعى^(١٠٤)
وقد كرر هذا المعنى فى قصيدة اخرى موجهة الى الآلوسى
أيضا ، ومنها

(٩٩) يريد به (الباز الاشهب) وهو من ألقاب الشيخ عبدالقادر

(١٠٠) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٢٣٩ - ٢٤٢ •

(١٠١) المسك الاذفر - ص ١١٩

(١٠٢) مرت من هذه المقصودة أبيات فى الفصل الثانى

(١٠٣) يشير الى الطاعون الذى دمر العراق سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م

(١٠٤) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٦ - ٣٤

ملك فأما حلمه فموقر ضافٍ وأما بطشه فشديد^(١٠٥)
غير أن قصيدة واحدة وجدت في غير الديوان وقد خُصن بها هذا
الوالى وقد صدرها بمقطع نأثر على الحياة وعلى العراق فقال

اعل نفسى بئيل المنى وما لى الى نيلهما مقتحم
ومن لى بعزم الجرىء الأبي فلا ينشئ عزمه ان عزم
فما لى أقمت بأرض العراق ولو لا خمولى بها لم أقم
وكنت ترحلت عن موطن اذا كنت فى غيره لم اضم

ولكن الى أين يريد الشاعر أن يتجه ويترك العراق ؟

الى قائد عسكر المسلمين ومقدامهم فى الحروب الدهم
على الرضا مشرفى القضا وغيث العطاء ، غياث الامم
أذل الطففة وأردى الكماة وساق الصناديد سوق الغنم !!
حسام لدولة عبدالمجيد ملك الملوك وسيف خذم^(١٠٦)

وقد مدحه السيد عبدالجليل الصرى الطباطبائي بقصيدة ركيكة
النسج وذكر أعماله مع المحمرة ، وقبيلة خزاغة ، ومعاركه مع
الاکراد^(١٠٧) ومدحه أيضا السيد صالح القزوينى وتطرق لتعيينه من
لدى السلطان محمود وإقراره من قبل عبدالمجيد فقال

وشاهد خاقان الملوك سداده فقلده أمر العراق وولاه
ولما قضى المحمود ذكرا أقره عليه ابنه عبدالمجيد وأبقاه^(١٠٨)

(١٠٥) المصدر السابق ص ٩٢

(١٠٦) راجع هذه القصيدة فى مجلة المجمع العلمى العراقى ج ١

م ٣ سنة ١٩٥٤م

(١٠٧) راجع (روض الخل والخليل) ص ١٠٠ - ١٠٣ طبعة مصر ،

و ١٤٧ - ١٥١ طبعة الهند

(١٠٨) ديوان السيد صالح القزوينى - الورقة ٩٨

الوالى محمد نجيب :

ان هذا الوالى الذى جاء بعد علي رضا سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م قد التف حوله الشعراء على الرغم من تعصبه التركى وغلظته الشديدة ، ونظمت فى مدحه قصائد كانت فى مناسبات ذات أهمية ، وبعضها كان فى أعمال ليست ذات شأن كبير ، وسأكتفى مما قيل فى مناسباته ببعض الصور التى جاءت للعمري والاخرس ، وهى كفيلة برسم الجانب السياسى فى أيامه ومقدار تأثير ذلك الجانب فى نفوس الشعراء .

الشاعر العمري

ومن الحوادث التى استغلها هذا الشاعر حادثة انتصار محمد نجيب على أحمد بابان حاكم الاكراد^(١٠٩) فى السليمانية فنظم قصيدة جمعت بين هجاء الاكراد ومدح الوالى ، واستخدم فيها الشاعر كلمات فيها كثير من الشدة والاستهانة بالاكرد فقال

رجفت لهيئة بأسك الأطواد وتفرقت بشعابها الأكراد
كروا ففروا كالحمير بأمرهم اذ همهمت بزئيرها الآساد
الزور حلّ (شهرزور) ولم يحد عنها ولا أهلوه عنها حادوا
كفروا بنعمة ربهم فقتالهم الله أكبر انه لجهاد !!

واذا كان أهل المحمرة روافض - كما سبق - فماذا يعتذر الشاعر حين كفر هؤلاء وعد قتالهم من قل الوالى جهادا ؟ ومهما يكن من شيء فان هذا العمل

فتح به قطر العراق قد امتلا فرحا وفه استبشرت بغداد^(١١)

ويؤرخ العمري هذه الحادثة بأبيات جاء فيها على سسل التورية

(١٠٩) راجع ص ٦٤
(١١٠) الترياق الفاروقى - ص ٢٤٤ و ٢٤٥

يأيها الملك الذى آثاره فوق الأنير محلها ومكانها

فتحت ولاية شهرزور فأرخوا * * * بسديد رأيك فتحت (بابانها) (١١١)
ومن المعلوم ان هذه الحادثة كانت سنة ١٢٦١هـ .

وكان هذا الوالى قد جاءه (المقرر الثانى) من السلطان بأبقائه واليا على
العراق . وقد جاء هذا المقرر سنة ١٢٦٠هـ فاستغل العمرى هذه المناسبة
لنظم قصيدة استعرض خلالها حادثة هذا الوالى فى كربلاء سنة
١٢٥٨هـ (١١٢) فقال

بك العراق أحرز الأمانيا لما تقررت عليه واليا
وقد تجاوز فيها حدود الواقع وكذب على التاريخ فقال

للمدل فى الزوراء رحى ناشرا مطارفا للجور فيها طاويا
ثم يشير الى قمع ثورة كربلاء

مهدت بالهندي يوم كربلا هندية فاندست مجاريا (١١٣)
وقد تركت الرفض فيها ضفدعا جفت سواقيه فمات صاديا
ويتنزل الشاعر مستخدما التورية

والسعد دام خادما ملازما لبايك العالى و (عبدا باقيا) (١١٤)
وليس هذا كل ما قاله العمرى فى هذا الوالى ففى ديوانه صور اخرى
من مدحه ، وقد نظمها فى مناسبات متفرقة .
ومن الشعراء الذين مدحوا هذا الوالى

الشاعر الاخرس

وقد استهل الاخرس مدح الوالى محمد نجيب فى أول سنة من
ولايته فنظم قصيدة استوحاها من حادثة كربلاء سنة ١٢٥٨هـ وذم الثائرين

(١١١) المصدر السابق ص ٢٤٥

(١١٢) راجع ص ٦٤

(١١٣) يشير الى المساعدة التى بذلها أهل الهندية على الفرات لسكان

كربلاء

(١١٤) الترياق الفاروقى - ص ٢٤٦ و ٢٤٧

وهنا الوالى بانتصاره عليهم فقال مشيرا الى اليوم الذى وقعت فيه الحادثة
وهو يوم عيد الاضحى

لقد خفقت فى النحر ألوية النصر وكان انمحاق الشر فى ذلك النحر
وفتح عظيم يعلم الله أنه ليستصغر الأخطار من نوب الدهر
محا النفى صمصام الوزير كما محا دجى الليل فى أضوائه مطلع الفجر
وكر البلاء فى كربلاء فأصبحت موافق للبلوى ووفقا على الضر
فدانت وما دانت لمن كان قبله من الوزراء السابقين أولى الفخر

رمتهم بشهب الموت منه مدافع لها شرر فى ظلمة الليل كالقصر

ويؤرخ هذه الحادثة فى ختام القصيدة فيقول

ولا زال فى عيد جديد مؤرخا

فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر^(١١٥)

واذا كان هذا العمل فتحا عظيما فأى شيء أذكره الشاعر ليقوله فى
المدح لو أنه فتح قطرا كبيرا أو حارب دولة من الدول فانتصر عليها ؟
الوالى محمد نامق وثلاثة شعراء :

كان هذا الوالى مشيرا للفيلق المرباط فى بغداد وقد حدث قبيل ولايته
عليها أن ثار أهالى (الهندية) من سكان الفرات الاوسط سنة ١٢٦٧هـ
١٨٥١م وكان الثائرون من عشائر (بنى حسن) فسار اليهم هذا المشير
بجيشه وحاصرهم فى مكان يسمى (العوينة)^(١١٦) واحتل قلاعهم ، وقد
أثر هذا الانتصار بالشاعر محمد أمين العمري واهتز له فرحا ف نظم قصيدة
شديدة اللهجة أراد بها أن تكون ثورة على الثورة لا مدحا للمشير فقط
ولم يخف شماته بالملغوبين الذين شردوا هم ونساؤهم وأطفالهم بعد أن
قتل منهم من قتل ، وقد جاء فى القصيدة قوله

(١١٥) الطراز :الانفس ص ١٦٨ و ١٦٩

(١١٦) لعله ماء يسمى بهذا الاسم

يأبها الملك المشير القصور
جاهدت أرباب الشقاق فأصبحوا
دارت عليهم للتحوس دوائر
جحودوا وما شكروا لنعمة ربهم
فبطشت فيهم بطشة كبرى بها
ظنوا القلاع تصونهم لكنهم
سخرتها قهرا بيوم واحد
فغدا (بنوحسن) لسوء فعالهم
واقعتهم بمدافع كصواعق
هذا الجهاد هو الجهاد الأكبر !!
طوع القياد لما تقول وتأمّر
فيها النكال مكور ومدور
وظنوا وفي طرق الضلال تجبروا
ذلوا وفي عين (العوينة) صغروا
لم يعرفوا ان الشقاء مدمر
ولك العسير كما تشاء ميسر
كانوا بها وكأنهم لم يذكروا
مثل الرواعد بالقنابر تهدر (١١٧)

وإذا كانت محاربة عشيرة من العشائر جهاداً أكبر - كما يقول في مطلع القصيدة - فأى جهاد بقى للدولة في حروبها مع الدول الكبرى ؟
ولعبدالباقي العمري قصيدة في مدح هذا الوالى قالها عند قدومه من الشام الى العراق وقد بالغ وأسرف في المدح (١١٨) .

وقد مدحه الاخرس بأكثر من قصيدة واحدة ومن هذه القصائد ما قاله عند نقله الى مشيرية المدفعية في الاسنانة سنة ١٢٦٩هـ - ١٨٥٣م وقد جاء في أول القصيدة

دعاك أمير المؤمنين وانما دعا مسرعا فما يروم مسابقا

ويختار هذه القافية ليأتى بكلمة (نامق) فقول في غير تحفظ
فحق لغداد الكء وكيف لا وقد فارقت فخر الوزارة نامقا
وهى طويلة لا شئ فيها غير الملق (١١٩) .

ومدحه بقصيدة اخرى في ولايته الثانية (١٢٧٨م - ١٨٦٢م) وأثنى على الدولة والسلطان عبدالعزيز لانه

أحبال العراق الى نامق ليصلح ما شان من شأنها

(١١٧) راجع (نشوة الشمول) لابی الالوسي ص ٤٨ و ٤٩

(١١٨) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٢٨٣ و ٢٨٤

(١١٩) راجع (الطراز الانفس) - ص ٢٦٥ - ٢٦٧

أباد الطغاة وأفنى العصاة ودمرها بعد عصيانها^(١٢٠) !!
وهنا في قصيدة بوسام ورد اليه من السلطان وأتني على
السلطان لانه

جعل العراق بنامق في جنة محفوفة بالروح والريحان^(١٢١) !!

الوالى أحمد مدحة وثلاثة شعراء :

كان أحمد مدحة أفضل الولاة الذين حكموا في العراق ولكنه جاء
حين كان التيمى وعد الباقي العمرى في ذمة التاريخ ، وكان الاخرس
يشرف على السعين من عمره ولم يبق في بغداد من الشعراء من يملأ مكان
اولئك . أما شعراء الحلة والنجف فقد كانوا على الاكثر بعيدين عن أعمال
الولاة ومناسباتهم وقد صدمهم مدحة بحادثة (الدغارة) التى شنع فيها
الزعماء من الفراتين لذلك كان الشعر الذى قيل فيه لا يرتقى الى مرتبة
الشعر الذى قيل في داود وعلي رضا ، على أن قصر المدة التى قضاهما في
العراق كان من الاسباب في قلة ما مدح به ، ومع ذلك كان ذا نصيب
غير قليل .

وقد مر في فصل (الشعر والحوادث الوهابية) بعض القصائد التى
تتعلق بأعماله بالاحساء ، أما في غير هذه الاعمال فقد مدحه الشيخ أحمد
قفطان النجفى المتوفى سنة ١٢٩٣هـ بأبيات قالها عندما فتح بابا لسور النجف
يؤدى الى النهر الصغير الواقع غربى المدينة . وكان هذا العمل سنة ١٢٨٨هـ
ومن هذه الابيات قوله

باب خير فتحوه رحمة لسقاة لقلوب ظالميات
أحمد مدحة باشا من سرى فضله فينا مسير النيرات
وقد مدح في هذه الابيات السلطان عبدالعزيز^(١٢٢) .

ومدحه السيد حيدر الحلى بقصيدة باردة العاطفة وقد جاء فيها

(١٢٠) المصدر السابق - ص ٣٩٧ - ٣٩٩

(١٢١) المصدر السابق - ص ٣٩٩ - ٤٠١

(١٢٢) راجع (شعراء الغربى) ص ١٧٥ من الجزء الاول

رواقت ذا لا بل وليجة خادر
لك العسكر الجرار والهيبة التي
ومدحه أيضا بقصيدة اخرى^(١٢٤) وقد قال فيها
أنتت عليك بأسرها الدول
وأعدت للإيام جدتها
ومنها

يا ابن الوزارة أنت واحدما لا راعها بفراقت الشكل^(١٢٥)

وفي ديوان الاخرس قصيدتان أهمل فيهما اسم المدوح ، ولم يهمل
اسم وال من الولاة الذين مدحهم الاخرس غير مدحة لان الديوان طبع في
الاستانة أيام السلطان عبدالحميد وكان هذا لا يرضى بأن يذكر مدحة في
كل ما ينشر أو يطبع من صحف وكتب ، لذلك يغلب على الظن أن القصيدتين
في مدح هذا الوالى ولاسيما أن احدهما تشير الى أن المدوح ذهب الى
البصرة لاختماد ثورة هناك ، والمعروف أن مدحة سافر الى البصرة في طريقه
الى الاحساء ، يضاف الى هذا أن الاخرس قال في مكان آخر مؤرخا قصرا
بناه نقيب البصرة لينزل فيه المشير ، وكان بيت التاريخ

فقلت لسيد النقباء أرخ مابنها يشرفها المشير^(١٢٦)

وهذا التاريخ يوافق سنة ١٢٨٦هـ ، وفي هذا الوقت كان الوالى في
بغداد مدحة . أما القصيدة الاولى فقد جاء فيها
شرف البصرة مولانا المشير^(١٢٧) وتوالى البشر منه والسرور

(١٢٣) راجع (الدر اليتيم) ص ٢١٠ - ٢١١ و (العقد المفصل)
ص ١٥٥ ج ٢

(١٢٤) نظم هاتين القصيدتين استجابة لرغبة صديقه التاجر البغدادى
الحاج مصطفى كبه

(١٢٥) راجع (الدر اليتيم) ص ٣٢٨ - ٣٣٠ و (العقد المفصل)
ص ١٥٦ و ١٥٧ ج ٢

(١٢٦) الطراز الانفس - ص ٢٤١

(١٢٧) كان مدحة يلقب بلقب (المشير) لانه كان رئيسا للفيلق المرباط

في بغداد

وقال فيها

انت ظل مده الله على أهل هذا القطر ان حان الهجير
تمحق الباعين عن آخرهم مثلما يمحو الدجى الصبح المنير
أصلحت بفضك ما قد أفسدوا وكما بالمفسد الجد الغور
عدت منصورا بجند ظافر وجناب الحق مولانا النصير^(١٢٨)
واذا صح ما ذهب اليه فان هذه العودة الظافرة كانت من الاحساء ،
ولولا الشك الذى يحوم حول اسم المدوح لكان من حق هذه القصيدة
أن تأخذ محلها فى الحوادث الوهابية •
أما الثانية فقد جاء فيها قوله

جئت بالخير علنا مقبلا وتنقلت مع السعد انتقلا
فأنا منك ما لم نره قبل أن جئت كمالا وجمالا^(١٢٩)

مصطفى عاصم وثلاثة شعراء :

وكان عاصم قد ولى بغداد سنة ١٣٠٣هـ - ١٨٨٧م وقد مدحه جميل
صدقى الزهاوى بأبيات - أو قصيدة - جاء فيها
بكيت ولكن لا بكاء الغنائم ونحت ولكن لا نواح الحمام
وهل ينفع الباكين شجوا بكأؤهم اذا لم يصادف فى الهوى قلب راحم
ثم يتخلص الى المدوح على الطريقة التقليدية فيقول
وكف أخاف الدهر أو أرهب الردى
وقد لذت من صرف الزمان بعاصم^(١٣٠)

ولا يخفى ما فى البيت من تورية •

ومدحه السيد جعفر الحلى والشيخ طاهر الدجيلي وقد مرت الاشارة
الى ذلك فى مدائح السلطان عبدالحميد^(١٣١) •

(١٢٨) راجع (الطراز الانفس) ص ١٧١ - ١٧٣

(١٢٩) راجع المصدر السابق ص ٤٥٢ و ٤٥٣

(١٣٠) الكلم المنظوم - ص ١

(١٣١) راجع مدح السلاطين فى هذا الفصل

سرى الكريدى وطائفة من الشعراء :

جاء سرى الكريدى واليا سنة ١٣٠٧هـ ١٨٩٠م وكانت الثورات القبلية قد خفت الى حد ما ، فانصرف هذا الوالى الى بعض الاعمال العمرانية ومنها انشاء منتزه فى ساحة الميدان ببغداد (١٣٢) ، وقد نظم أحمد الشاوى قصيدة بهذه المناسبة ، وقال فيها
ألم تر كيف الارض تشقى وتسعد وتصلح طورا بالولاء وتفسد
ومنها

وحسبك فى ميدان بغداد عبرة وشاهد عدل بالذى قلت يشهد
فيناه فى حال تسوؤك حاله اذا هو من بين الميادين يحسد
ولكن المناسبة التى انشأت موسما للشعر هى التى تم فيها بناء سد على فم نهر الهندية (١٣٣) ليجرى الماء فى نهر الحلة وكانت هذه المدينة معرضة للعطش الذى اشتد سنة ١٣٠٢هـ بسبب انقطاع المجرى ، وفى سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩١م تم انشاء السد على نهر الهندية ليأخذ نهر الحلة حقه من الماء ، وحين تم العمل احتفل الاهلون احتفالا مشهودا حضره الوالى (سرى) ووجهاء بغداد والحلة وسفراء الدول وألقيت الخطب والقصائد (١٣٤) ، ومن الشعراء الذين نوهوا بهذه المناسبة أحمد الشاوى فقد جاء فى قصيدته سالفة الذكر أبيات يمدح بها (سرى) ويشى على جهده المبذول فى اقامة السد ومنها قوله

(١٣٢) يقع هذا الميدان أمام باب القلعة القديمة وهى من مداخل وزارة الدفاع الآن

(١٣٣) انشأ هذا النهر المهراجا آصف الدولة الهندى سنة ١٢٠٨هـ ٩٣ - ١٧٩٤م لمنفعة النجف فأضر بالحلة وقد انهارت السدود التى اقيمت على مدخله ولم يبق ثابتا الا السد الذى تم بناؤه سنة ١٩١٣م (١٣٤) اخبار بغداد وما جاورها من البلاد - لمحمود شكرى الالوسى الورقة ٦١ ج ١ من نسخة يعقوب سرقيس و (الروض الازهر) ص ٢٠٣ ويشير هذا الكتاب الى ان الاحتفال كان فى ١١ ربيع الاول سنة ١٣٠٨هـ الموافق ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٩١م

وفى الحلة الفيحاء أبلغ حجة متى هي قامت منكر الحق يقعد
تصدى لها والى الولاية باذلا لجاشته ، والنافر الجأش يرعد
وناء الى سد الفرات بنية حميدة التوفيق للرشد ترشد (١٣٤)

ولا يخفى ما فى هذا البيت من مدح للسلطان عبدالحميد .
وللسيد محمود شكرى الآلوسى أبيات بهذه المناسبة ، ومنها - يخاطب

الوالى سرى -

بسديد الرأى قد أحكمت سدا وبه أنجزت للآمال وعدا
وفرات الماء قد عاد كما كان فى السابق يجرى مستبدا
وللشيخ محسن العذارى الحلّى مشاركة فى هذه المناسبة فقد مدح
السلطان والوالى لان الماء عاد الى الحلة بعد انقطاعه ، أما هذا السد فقد
فاق كل عمل

فلا السويس ولا حفر الخليج ولا سكور كسرى ، ولا الزباء فى القدم
وللشيخ عباس العذارى أيضا مشاركة شعرية ومنها

سد به سر العراق وأهله ففدا لهم مذ تم عيدا أعظما
وللشيخ علي بن حمزة الحلّى قصيدة ومنها فى مدح سرى

لولاك ما ارتوت العطاش ولا جرى وسط الفرات - وراحتك - الماء
ومثل هؤلاء الشيخ حسن العذارى فانه يصف عطش أهل الحلة

والرزايا التى حلت بهم حتى شاب لها الوليد

الى أن شكوا بالتلفرافات ضيمهم الى الملك المنصور ذى العدل والرفد
فسير للزورا وزيروا وواليا به الطالع المنحوس آل الى السعد

وللشيخ محمد سعيد بن محمود النجفى قصيدة بهذه المناسبة وأولها
شكرت مساعى خير والى قسور من يصنع المعروف فينا يشكر

وكذلك الشيخ عدالوهاب نائب قضاء بغداد ، والسيد محمد باقر

الطباطباتي (١٣٦)

(١٣٥) اخبار بغداد وما جاورها من البلاد - الورقة ١٦ ج ١

(١٣٦) راجع المصدر السابق الاوراق ١١٣ - ١٢٠

وللسيد ابراهيم الطباطبائي قصيدة بهذه المناسبة^(١٣٧)
 ولكن هذا العمل ليس وحده من بواعث الشعر الذي قيل في هذا
 الوالى فقد مدحه أحمد الشاوى بقصيدة اخرى غير تلك التى أسلفنا ذكرها
 وتطرق فيها الى مدح السلطان عبدالحميد أيضا ومنها قوله
 سلمت أمير المؤمنين ولم تنزل لك الراية العليا تخفق بالنصر

* * *

فأضحكت من قد كان بالأمس باكيا * ببغداد لا ينفعك مدمعه يجرى
 فلو طار انسان من الناس قبلهم
 لطاروا سرورا يعلم الله من (سرى)^(١٣٨)

ومدحه السيد ابراهيم الطباطبائي ومما قاله فيه
 قد حل فيك من العراق وثاق ولديك منه الأسر والاطلاق^(١٣٩)
 وحياء السيد جعفر الحلي بقصيدة عندما زار النجف وأولها
 مرنا فأمرك في العراق مطاع أنت الزعيم وكلنا أتباع^(١٤٠)
 ولكن هذه المدائح ليست دليلا على انتشار العدل في أيام هذا الوالى
 لان بقاءه في العراق لم يدم أكثر من سنة وستة أشهر وأيام ، وقد كانت
 المناصب في أيامه تناع بيع المتاع حتى كثر شاكوه الى السلطان وشغبوا عليه
 بعد أن أعذقوا عليه التحف والهدايا^(١٤١) غير أن أعماله تلك وما كان
 يدعيه من العلم والتألف^(١٤٢) كل ذلك قد دفع الشعراء الى مدحه .

ولاية آخرون

ليس للولاية الذين جاؤا بعد سرى شأن مرموق في دنيا الشعر فقد
 خلفه الحاج حسن رفيق سنة ١٨٩٢م وعطاءالله الكواكبي السورى العلوى

-
- (١٣٧) راجع - ديوان الطباطبائي - ص ٢٧٦
 (١٣٨) ارسل الى هذه القصيدة الاستاذ محمد بهجة الاثرى
 (١٣٩) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ١٨٩
 (١٤٠) سحر بابل - ص ٢٧٢ - ٢٧٤
 (١٤١) هذا تعليق الاثرى على قصيدة أحمد الشاوى
 (١٤٢) له كتاب (أحسن القصص) في تفسير سورة يوسف

سنة ١٨٩٦م وقد ورد بعض المدح لهذين الوالين في ديوان السيد جعفر
الحلي ومما قاله في الحاج حسن رفيق
بشرى العراق ففبك أشرق نورها هي جنة الدنيا وأنت وزيرها^(١٤٣)
أما الكواكبي فقد جاء ذكره عرضاً في قصيدة مدح بها السلطان
عبد الحميد ومنها
هو سيد وكواكبي نسبة وعلومه للعالمين تفيده^(١٤٤)
وانتهى القرن التاسع عشر بولاية نامق الصغير^(١٤٥) الذي
خلف الكواكبي .

ولاية الموصل :

لقد مر بنا في الفصل السياسي أن ولاية الموصل استقلت القرن التاسع
عشر وولاتها من الأسرة الجليلية ، ومر كذلك في بحث الحالة العلمية
والادبية شيء من أثر هذه الأسرة في تشجيع الادباء وطلاب العلم وكان لابد
لهذه الرعاية أن تجد صدى في نفوس الشعراء ، ولكن ما قيل في آل الجليلي
لا يضيف شيئاً جديداً الى ما قيل في ولاية بغداد سوى الاسماء والمناسبات
أما التعبير والاسلوب والمعاني فهي من لون ما كان في بغداد أن لم تكن أقل
وأدنى ، وكان من أبرز شعراء الجليليين آل العمري والغلامي .

ومن مناسبات هذا الشعر اسناد الوزارة الى أحمد بن سليمان الجليلي
سنة ١٢٢٩هـ ١٨١٤م ثم منحه وظيفة فراش الحضرة النبوية بمرسوم سلطاني سنة
١٢٣٠هـ ١٨١٥م فقد كان لهذه المناسبة تأثير في نفوس شعراء الموصل ومنهم
عدالله العمري ومن شعره قوله

بشير المعالي بالوزارة حياكا فشارك يا رب المكارم بشراكا
أهنتك في ملك وسعد مؤبد مدى الدهر للأحكام مولاك ولاكا

(١٤٣) سحر بابل ص ٢٤٢ - ٢٤٥

(١٤٤) المصدر السابق - ص ١٥٨

(١٤٥) لقب بالصغير تمييزاً له عن الوالي الاسبق محمد نامق

ويستخدم الناظم فى هذه القصيدة أسماء العلوم ومصطلحاتها فى المدح ، من الجزم بحفظ الجار الى رفع لواء العدل ، وان المدوح أصبح طويل المدح فيه قاصرا لانه بحر لا تحصى سجاياه ، ويختم القصيدة بيت تاريخ

أقول بختم القول فيك مؤرخا فيا أحمد تاج الامارة وافاكا(١٤٦)

وقد مدحه قاسم حمدى بن يحيى حين جدد سور الموصل سنة ١٢٣٦ (١٤٧) .

أما محمد الغلامى مفتى الشافعية بالموصل فانه نظم ديوانا فى هذا الوزير وضمنه تسعا وعشرين قصيدة كل قصيدة تحتوى على تسعة وعشرين بيتا مرتبة على حروف الهجاء وقد تكلف فى هذه القصائد فجعل أول البيت كآخره ، وسمى هذه المجموعة (الجمان المنضد فى مدح الوزير أحمد) ومن أمثلة هذا الشعر قوله

خليفة هذا العصر للعدل أحمد حميد السجايا أرفع المجد أشمخ
خير بتذليل الطفافة فلم تزل صوارمه للمارقين تدوخ (١٤٨)

وكان الوالى يحيى بن نعمان الجليلى مثابة للشعراء فقد ولى الموصل سنة ١٢٣٨هـ ١٨٢٢ وتكررت هذه الولاية سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٣م (١٤٩) ، وفى هاتين الولايتين برزت شخصيته ومنح رتبة كبير الوزراء ومدح بشعر غير قليل جمعه عبدالاقى العمرى وسمى المجموعة (نزهة الدنيا فيما ورد من المدائح على الوزير يحيى) (١٥٠) . وقد ألف هذه المجموعة سنة ١٢٤٠هـ وانتهى منها سنة ١٢٤١هـ أما الشعر الذى جمع فيها فانه كان متشابها فى

(١٤٦) الجمان المنضد ص ٨ و ٩ طبع الموصل سنة ١٩٤٠م

(١٤٧) المصدر السابق ص ١١ و ١٢

(١٤٨) المصدر السابق ص ١٣٠

(١٤٩) توفى يحيى فى القسطنطينية سنة ١٢٨٤هـ ١٨٦٧م

(١٥٠) توجد من هذه المجموعة نسخة خطية فى مكتبة الآثار ببغداد

وقد أخذت عن نسخة بخط يونس الوهبى الموصلى والمرجع هنا نسخة الآثار

الموضوع والاسلوب بل كان كالأى شعر نظم فى المدح ، وكان ابتهاج الشعراء فى انتصار هذا الوالى على خصومه فى الثورات التى يقمعها من مميزات هذا الشعر ، وان كان الانتصار بقتل النساء والاطفال والشيوخ ، وحرق البيوت ونهب القرى ، ومن أمثلة ذلك ما قاله محمد أسعد شقيق الوزير يحيى يهنئ أخاه بانتصاره على اليزيديين فى احدى ثوراتهم فى (الشيخان) وكان هذا العمل قبل أن يكون واليا

عسى ولعل أن يطفى لهيبى وأبلغ ما أومل من مراد
كما قد نال يحيى العز لما أطاعته الجبال من الوهاد

* * *

وأهرق من نجيع بنى يزيد دماء سال منها كل واد^(١٥١)
وتكررت مدائح لآخيه فى مختلف المناسبات^(١٥٢) .

وحين اسندت الوزارة ليحيى سنة ١٢٣٨هـ هنأ الشعراء بها واستعرضوا وقائعه مع اليزيديين فى (الشيخان) و (سنجار) من مقاطعات الشمال .
ومن هؤلاء الشعراء قاسم حمدى ، وقد قال فيه

تهن وخذ يحيى الكتاب بقوة لك الامر فافعل ما تروم وتقصد^(١٥٣)
والحاج محمد سعد الجوادى ومن شعره فى ولاية يحيى
وأنت الى يحيى أبى الفضل الذى أحت مكارمه بنى العباس^(١٥٤)
وله فيه وقد أشار الى وقائعه مع اليزيديين فقال
وقد أخذت ثار الحسين جيوشه بسنجار حتى أن أطاع خصيمها^(١٥٥)
ومدحه عبدالله العمري بهذه الوزارة^(١٥٦) .

أما محمد الفلامى فانه سجل النزاع الذى حدث بين الاسرة الجليلة على الحكم فى قصيدة يمدح بها هذا الوالى

(١٥١) نزهة الدنيا - الورقة ٩

(١٥٢) راجع المصدر السابق الورقتان ١٦ و ١٨

(١٥٣) المصدر السابق الورقة ٢٢

(١٥٤) المصدر نفسه الورقتان ٣٠ و ٣١

(١٥٥) المصدر السابق الورقتان ٤٦ و ٤٧

(١٥٦) المصدر السابق - الاوراق ٧٠ و ٧١ و ٧٣ و ٨٠

يا لها من سقيفة حل فيها آل عدالجليل لما تلاحوا
كلهم يطلب الرياسة لكن لفساد الامور فيها الصلاح
لفظ القوم قد علا فيه حتى قارب الأمر أن تسل الصفاح
وحين رأى يحيى أن الامر اشتد

سلّ من عزمه الشديد حساما خضع الكل عنده واستراحوا^(١٥٧)

ومدحه بقصيدة اخرى استعرض فيها انتصاره على اليزيديين فقال
قد اعتصمت فيه الجزيرة كلها وفي بعضها وافاه حكم ومنصب
وسنجار لما جار أولاه سطوة فأولاده والمال تسبي وتنبه^(١٥٨)

وقد سار الشاعر في البيت الاخير على طريقة اللف والنشر ولكنه
سجل حقيقة من حقائق التاريخ في أعمال يحيى مع اليزيديين •

ومدحه محمد الفهمي وذكر وقائعه مع اليزيديين أيضا^(١٥٩) •

ومدحه محمد أمين العمري بقصائد بالغ فيها^(١٦٠) •

أما عبد الباقي العمري فقد خلا ديوانه المطبوع من القصائد التي مدح
بها يحيى ولكنه أثبتها في (نزهة الدنيا) وقد سجل لنا في احدى هذه
القصائد تعيين يحيى من قبل داود والى بغداد واسناد الوزارة اليه سنة
١٢٣٨هـ وقرار السلطان لهذا التعيين ، وفي هذه القصيدة دليل على أن
والى الموصل لا يعين الا بموافقة والى بغداد في عصر المماليك ، وقد جاء في
هذه القصيدة قوله

ملك كانت الوزارة ترعا بعين مذ كان رهن المهود
يوم جاء البشير بالحكم فورا قلت شعرا يצוע أرخ يعود
ان يحيى بجده وأبييه نال فصل الخطاب من داود^(١٦١)

(١٥٧) المصدر السابق الورقة ٩٣

(١٥٨) المصدر السابق الورقة ١٠٠

(١٥٩) المصدر السابق الورقتان ١١٢ و ١١٣

(١٦٠) راجع المصدر السابق الورقتان ١٢٦ و ١٢٧ و (المسك

الاذفر) ص ١٥٨ و ١٥٩

(١٦١) نزهة الدنيا - الورقتان ١٣٢ و ١٣٣

ولاية البصرة وحكامها :

لقد حكم البصرة عدد غير قليل من الولاة والمتصرفين وكان شأنها في ذلك شأن بغداد والموصل ، وقد قيل فيمن حكمها شعر غير قليل ولكن تناول هذا الشعر بجميع صورته لا يأتي بشيء جديد في هذه الدراسة ، لذلك أرى من الأفضل أن أقصر على بعض صورته ، وأن أتناول هذه الصور بمثل ما فعلت في ولاية الموصل ، وأن أترك الكثير من هذا الشعر لتاريخ الأدب وحده ، وأكثر من ذلك اني سأتناول شاعرا واحدا لعله خير مرآة تعكس السياسة في البصرة ، وهذا الشاعر هو عبدالغفار الاخرس ، ولعل من المستغرب أن هذا الشاعر الذي ولد في الموصل ونشأ في بغداد كان كثير التردد على البصرة فلا يكاد يفارقها الا ليعود اليها .

وقد كان له فيها أصدقاء من ذوى اليسار والثروة ، وقد أتاح له تردده الى البصرة أن يتصل بالحكام والموظفين وأن يسمعهم قصائده ، ومن الحكام الذين مدحهم حسام الدين القدسي الحلبي وقد كان هذا بمنصب قائم مقام في البصرة سنة ١٢٧٦هـ (١٦٢) ، ومن مدائح الاخرس فيه قصيدة أولها غزل وتشيب ، أما المدح فمعه

قد بلونا الناس في أحوالها وعرفناهم كراما ولثاما
فمحال أن ترى عين امرئ كحسام الدين للدين حساما
ويظهر من القصيدة أن المدوح شريف النسب لانه

من كرام سادة لم يخلقوا بين أشرف الورى الا كراما

حاكم بالعدل علوى الثنا * * * عن (على) قام بالحكم مقاما (١٦٣)
ومدحه بقصيدة اخرى ليس فيها شيء سوى أن المدوح كان يعطف

على الشاعر

قارعت أيامي لممرك جاهدا حتى انتضيت لها حسام الدين
أعلى مقامى فى على مقامه فرأيت منزلة الكواكب دوني

(١٦٢) سالنامه البصرة - الدفعة الثانية سنة ١٣٠٩هـ

(١٦٣) راجع (الطراز الانفس) ص ٣٩٢ - ٣٩٤

فتكاثرت نعم على بفضلـه من فضله وأقلها يكفيني^(١٦٤)
وفى سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م كان حاكم البصرة القائم مقام محمد
منيب^(١٦٥)، وللأخـرس فيه قصيدة لا تدور حول المدح حسب بل تجاوزته
الى تصوير حادثة من الحوادث التى كانت تقع بكثرة . ويظهر من هذه
القصيدة أن هذا القائم مقام أحمد ثورة قبلية ولكن الشاعر لم يعين المكان
ولم يذكر اسم القبيلة النائرة غير أن سياق الشعر يدل على أن التمرد كان
من قبيلة تابعة لآيران ، وأول القصيدة

هت هت هت بالاقدام والظفر فاسلم ودم سالما بالعز وافخر
أنت المنيب الى الله العزيز به والمتقى منه فى أمن وفى خطر
ويبدو أن هذا الحاكم استعان ببعض القبائل النجدية لمحاربة الثائرين
لبتك أبناء نجد اذ دعوتهم فأقبلت زمرا تأوى الى زمر
ثم يصف الحرب وانها كانت تقوم على المدافع
وللمدافع اعداد وزمجرة ترمى جهنمها الطاغين بالشرر
أما الثائرون فانهم

فى كل عام لهم حرب ومعترك وموعـد للنـايا غير منتظر
ورأس الخط لمعرفة الثائرين أو المتمردين قوله
ورب أحق معروف لشهرته وافاك من قومه الأعجام فى نفر^(١٦٦)
وله فه قصدة اخرى يبدو منها أن الممدوح علوى النسب
فرع سادات المعالى والعلا علوى الاصل علوى المقام
من أناس خلقوا مذ خلقوا سادة الدنيا وأشراف الأنـام
ويعين وقت مجيئه الى الصرة
قوت الصرة عنا بالذى حل فى الصرة بالشهر الحرام^(١٦٧)

(١٦٤) المصدر السابق - ص ٣٩٥ - ٣٩٦

(١٦٥) سالنامه البصرة - الدفعة الثانية سنة ١٣٠٩هـ

(١٦٦) راجع - الطراز الانفس - ص ١٧٤ - ١٧٦

(١٦٧) مجموعة للأخـرس لم تنشر - الورقة السادسة من نسخة

يعقوب سر كيسى والسابعة من نسختى

أما ناصر السعدون فان للآخرس فيه مدائح كثيرة ولكنه مدحه ولما يدرك أيام ولايته على البصرة لانه عين واليا سنة ١٢٩١هـ وهى السنة التى توفى فيها الآخرس ، ووصل بغداد متوجها الى مقر ولايته فى الثالث عشر من رمضان سنة ١٢٩٢هـ^(١٦٨) الموافق للخامس عشر من تشرين الاول سنة ١٨٧٥م .

غير أن ناصرا كان من سيوف الدولة ومن المشاركين لها فى أعمالها قل أن يكون واليا وحين كان متصرفا للواء المتفق^(١٦٩) . وقد مر فى بحث الحالة السياسية شئ من أعماله فى محاربة السعوديين بجانب الوالى مدحة . ولهذا أرى ما قل فى ناصر السعدون لا يختلف عن موضوع الشعر الذى قل فى الولاة الآخرين ، غير أن شعر الآخرس فى هذا الوالى الزعم كان يجمع بين الصبغة الحكومية والصبغة العربية المستوحاة من شخصية الممدوح وأسرته وتقاليده . ومن هذا الشعر قصيدة كانت مناسبتها حدوث ثورة دموية فى البصرة وقد قضى ناصر على هذه الثورة ، ومما جاء فى هذه القصيدة قوله

| | |
|--------------------------|------------------------|
| محوت بسف سطوتك الفساد | بحكم قد أرحت به العباد |
| دخلت البصرة الفحاء صباحا | ونار الشر تقدر اتقادا |
| وقد عبت يد الاشرار فيها | وطال فسادهم فيها وزادا |
| لقد حكمت بها جهال قوم | يرون الغى يومئذ رشادا |

* * *

ولما ساءت الاحوال فيهم ولا نفع الحفاظ ولا أفادا

(١٦٨) الزوراء - العدد ٥٧٣ من السنة السابعة - ١٦ رمضان سنة

١٢٩٢هـ

(١٦٩) حاز ناصر السعدون رتبة أمير الامراء سنة ١٢٨٣هـ ١٨٦٧م وحين عين واليا للبصرة كان فى الاستانة ، ثم عاد بعد ذلك اليها وعين عضوا فى مجلس شورى الدولة وبقي فى الاستانة حتى توفى سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م ولقد كان ناصر أول عراقي يعين واليا للبصرة وكانت له يد فى رد هجوم الفرس على هذه المدينة راجع (ذكرى السعدون) للشيخ على الشرقى ص ٤٥ و (مباحث عراقية) ص ٥ ج ١ و ص ٢٥٧ ج ٢ .

وبات الناس في وجل عظيم يريح السمع منه والقوادا
دعيت لكشف هذا الضر عنها ولا يدعى سواك ولا ينادى (١٧٠)

وله فيه قصيدة اخرى جاء فيها

ولو علم السلطان اقدام ناصر لما استنصر السلطان الا بناصر
همام أباد المفسدين ودمرت صوارمه من كل باغ وفاجر (١٧١)
وقصيدة ثالثة منها

ومنزلة بين الفرات ودجلة اذا لم يكن فيها المشير فناصر

رحى الحرب ان دارت رحاها فانه * * *
هو القطب ما دارت عليه الدوائر (١٧٢)

وله فيه قصيدة اخرى ، منها

أبا فالج سدت الأمور بحكمة وأنت خير بالسياسة عالم

بطشت بمن يبنى عليك بكيدة * * *
وأبقيت دار المفسدين بلاقعا وأنت رؤف بالرعية راحم
خلا عالم منها وأقوت معالم (١٧٣)

وعند هذا الحد ينتهى البحث فى الشعر الذى سار فى ركاب الدولة
وولاتها ممثلا فيه معظم الشعراء من بغداد والموصل والنجف والحلة ، وقد
توخت فيه ابراز الخطوط العامة الموضحة لمسلك الشعراء حيال السياسة
ومواقفهم من أعمال الدولة والولاية ، وراعى فيه أهم النواحي ، وأهم
الولاية و أشهر الشعراء ، وتركت ما كان مدحا خالصا ليس فيه تسجيل
احداث أو مناسبة هامة فى تاريخ الدولة والعراق .

وعند هذا الحد أيضا ينتهى بحث الشعر السياسى فى كافة نواحيه من
ايجابى يرضى شعور الدولة والولاية ، وسلبى يمثل شعور الساخطين على
الدولة والحكم ، والناقمين على أعمال الولاية والموظفين .

(١٧٠) الطراز الانفس - ص ١٢٧ - ١٢٨

(١٧١) المصدر السابق - ص ١٧٨ - ١٨٠

(١٧٢) المصدر السابق - ص ١٧٦ - ١٧٨

(١٧٣) راجع - المصدر السابق - ص ٣٧٠ - ٣٧٢

الفصل الخامس

القيم الفنية والموضوعية

نظرة عامة فى شعر القرن التاسع عشر

أربعة فصول مرت هى خلاصة الشعر السياسى فى العراق ابان القرن التاسع عشر وهى أظهر ما فى هذا القرن من شعر يصور السياسة فى أساليبها ومراحلها ويرسم أحداثها الكبرى والصغرى فى العراق وما حوله بل هى أبرز ما فى الشعر السياسى من صور تمثل سخط الشعراء ورضاهم ، واندفاعهم فى ركاب الدولة وثورتهم عليها ، وانطلاقتهم فى رحابها والمهم منها ، وهى أبرز الصور أيضا لتأثير السياسة فى هؤلاء الشعراء سلبا وإيجابا ومقدار تصويرهم للحياة والاحداث من زاوية الدولة أو من زاوية الأمة المحكومة ، وهى أبرز الصور للموضوعية التى تناولها الشعراء فى ظل السياسة ، والفنية التى استجابت لتلك الموضوعية وطاوعتها وعبرت عنها واندفعت بها من عالم التجربة والشعور الى مجال الرسم والتسجيل ، غير أنه لابد من دراسة الموضوعية والفنية لهذا الشعر ولا بد من الكشف عن أهم القيم فيه وعن مدى الاداء اللفظى الذى استجاب له وقبل أن أدرس هذه الناحية لابد أن أشير الى أن دراسة الشعر فى عصر ما أو دراسة شاعر واحد فى أى عصر من العصور لا تتم الا بدراسة ذلك العصر الذى ولد فيه الشعر أو ظهر فيه الشاعر وهذه الدراسة قد مرت فى الباب الاول بما تضمنته من فصول ثلاثة فى السياسة والمجتمع والثقافة وقد أوضحت فى تلك الفصول

الثلاثة جوانب السياسة في أهم خطوطها واتجاهاتها والمجتمع العراقي في حياته ومعيشته وفي عناصره وتقاليده وعاداته وفي دياناته ومذاهبه ، والثقافة العامة في أهم ألوانها وأشكالها ولاسما الثقافة العربية التي كانت تنشق طريقها بين العواصف والامواج وتصارع العجمة الخائفة من الترك والفرس • وعلى ضوء هذه الدراسة العامة يمكن أن ترسم صورة معبرة كاشفة لحياة الشعراء وثقافتهم وسلوكهم وتناولهم الموضوعات العامة والخاصة ومنها موضوعات الشعر السياسي •

واذا كانت الفصول الثلاثة - وقبلها التمهيد - قد وضعت لتكون مدخل البحث وخط السير الموصل الى موضوع الشعر السياسي فان ربطها بهذا الموضوع وغيره من الموضوعات الاخرى وتأثيرها في اتجاه الشعراء أمر لا يقل عما سواه في الدراسة والتتبع ، ولا شك في أن ما استعرضته من الشعر في الفصول الاربعة الخاصة به كفيل بتوضيح هذه الجوانب كلها والكشف عن أثر السياسة والمجتمع والثقافة في الشعراء ففي هذا الشعر ما يكشف عن سلوكهم السياسي العام والخاص وفي هذا الشعر ما يوضح علاقتهم بالمجتمع وفي هذا الشعر ما يصور مدى قابلياتهم الفكرية واللغوية واذا كنت قد أشرت في بحث الحالة العلمية الى الموضوعات التي تناولها الشعراء مما يتصل بالحياة العامة فان ذلك التلميح كاف في معرفة الاثر الذي أحدثته ظواهر المجتمع في اولئك الشعراء فقد نظموا في معظم الاغراض العمودية من مدح ورثاء وهجاء ووصف وغزل وخمريات وأكثروا في الموضوعات الدينية فنظموا في مدح النبي وآل البيت ورثائهم ولاسيما الامام الحسين^(١) ونظموا في التصوف مدحا وذما^(٢) ووصف بعضهم الفقر الذي كان يعانيه الشعراء وهم جزء من المجتمع^(٣) وتناولوا مجالس اللهو

(١) ان معظم الدواوين والمجموعات ملء بهذا اللون ولاسيما ما كان منها في الحلة والنجف

(٢) راجع ديوان عبد الباقي العمري (الترياق الفاروقي) في كثير من صفحاته و (الطراز الانفس) ص ٣٧ وما بعدها وص ٢٤٢

(٣) مرت أمثلة من ذلك في بحث الحالة العلمية

والخمر^(٤)، وصور بعضهم ما كان يحدث من فتن داخلية لا شأن لها بالسياسة^(٥)، ولما كنت فى غنى عن الاطالة فى بحث هذا الاثر فى الشعر فان التوضيح فى دراسة الاثر الثقافى شىء لا بد منه فى معرفة القيم الموضوعية والفنية فى الشعر الساسى والوقوف على مدى التفكير والقابلية عند الشعراء وما رافق ذلك من أداء وتعبير لذلك أرى لزاما أن استعرض أثر الثقافة بصورة موجزة لانهى منه الى تقدير ما ذكرته فى الفصول الاربعة من شعر يتصل بالموضوعات الساسية ووضعه فى المكان الذى يستحقه بين الدراسات •

الشعراء فى مستواهم الثقافى

ان شعراء العراق فى القرن التاسع عشر يمكن أن يقسموا من حيث مسوى الثقافة الى طبقات فطقة منهم كانت موفورة الحظ من الاطلاع على اللغة والادب الى جانب الدراسة الدينية وما يتبعها من العلوم اللسانة • وطقة اخرى كانت على شىء لا بأس به من الاطلاع والدراسة والحفظ ولكنها دون سابقتها فى سعة الافق، ومنهم طبقة لم تكن معروفة بالدراسة المألوفة فما عدا السير من النحو وغيره والاطلاع القليل على مصادر الادب القديم ولكنها كانت تمارس الشعر بدافع من الذكاء وبما اتيج لها من مخالطة واسماع • غير أن هذا التقسيم لا يعنى أن الطبقة الاولى كانت أشعر من الثانية وأن الثانية كانت أشعر من الثالثة فقد يكون فى الاولى شعراء وقد يكون فيهم نظامون لس لهم حظ من الشعر الا جمع المفردات اللغوية وقد يكون فى الطبقة الثالثة شعراء لهم من صدق الحس والاداء ما يجعلهم فى الطليعة اذ ليست الميزة بالرصف وتخير الكلمات الدالة على كثرة الحفظ وانما الميزة أن يكون الشاعر قادرا على رسم التجربة بما يلائمها من الالفاظ الدالة الموححة، واذا كانت كثرة الحفظ قد تفيد فى تخير الكلمة المناسبة

(٤) الطراز الانفس ص ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٢٧٢ و ٢٧٣ وفى ديوان الحبوبى أمثلة كثيرة لذلك

(٥) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ٥٣

واللفظ الملائم فانها قد توقع الشاعر في حيرة واضطراب فتبرد التجربة ويضعف الخيال الناشط مع تلك التجربة أثناء البحث عن الكلمة المتخيرة واللفظ المناسب وقد يدفعه ذلك الى الاغراب في التعبير فكون لفظيا أكثر منه شاعرا ذا حس وانفعال وصدق ، وقد يدفعه ذلك الى التقليد والمحاكاة والى الخروج عن البيئة التي يعيش فيها الى بيئة ثانية بعيدة فيستعير منها الاسماء والاماكُن والصور • ولا شك ان الانثراء من اللغة ليس وحده طريق الشعر فقد يكون هذا الانثراء باعثا على الغموض والابهام ولقد قال النقاد في (شيلر) الشاعر الالماني ان الالفاظ التي استعملها في قصائده ورواياته الشعرية كانت قليلة ولكنه بهذا القليل استطاع أن يؤدي معناه أحسن أداء وأجمله ، بينما كان (غوته) معاصره وزميله مثريا من اللغة ولكن كثيرا من شعره لا يخلو من الغموض المتعب^(٦) .

وأنا - حين أضرب مثلا للغموض والوضوح - لا أريد أن أعقد موازنة بين شاعرين غربيين لهما حظ من الثقافة المتطورة والتفكير النامي وبين شعراء عاشوا في عصر التقليد والمحاكاة وانما أردت أن أقرر ما استهدفه النقاد من تقويم الشعر ووزنه بالميزان السليم ووضع كل شاعر حث يجب أن يوضع ، ولكن ضرب المثل بهذين الشاعرين لا يعنى عدم الاستعانة به في بعض الصور التي سجلها شعراء القرن التاسع عشر في العراق فقد يكون من هؤلاء من استحوذت عليه اللغة بمفرداتها الغريبة وكلماتها الخشنة فذابت شاعريته خلال تلك المفردات والكلمات ، وقد يكون منهم من آثر جانب الشاعرية المحضة على تلمس الغريب من المفردات فجرى على سجيته غير متكلف ولا متوعر ، غير أنه كان الى جانب هذين الفريقين فريق ثالث لا يمكن أن يوضع الا في عداد النظامين المتكلفين ولكنه تكلف من لا رصيد له من اللغة وسلامة الاداء ، ولعل من نوع (غوته) في الانثراء اللغوي وذوبان الشاعرية في وهج المفردات العاصضة عثمان بن سند المصري - اذا صحت المقارنة - فان هذا الشاعر قد أغرق في استعمال

(٦) من تقرير لابراهيم عبدالقادر المازني في مجلة (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة الجزء السابع ص ١٩٠

الغريب ، مع سعة اطلاعه على اللغة ، حتى فقد - أو كاد يفقد - عنصر
الاصالة بما استعمل من مفردات متوعدة لا تنسجم مع موسيقى الشعر
وأساليه الصحيحة ، ولا تتفق مع الذوق الذى يريد من الشعر الوضوح
والبساطة ، ومن أمثلة ذلك قوله فى قصيدة نظمها على لسان السلطان محمود
إذا ما بدا ناب النوائب خلتنى
أنا الرجل الضرب الهصور الصلنقج^(٧)

وقوله فى الوالى داود
سل الاكراد عنه غداة كروا فلاقوا منه مغوارا وقعب^(٨)
وقوله فيه أيضا من قصيدة
عجبت للقوم اذ راعوا مصاعك ما صحتهم باسود للقنا جحنوا
ومنها

مذ بلغ الملك المحمود همتك الـ عليا وأنتك من بغدادك الشفن
رتتك منه عيون العدل من أمم فحولتك بملك ما له حجن^(٩)
فان فى (الصلنقج) و (قعب) و (جحنوا) و (شفن) و (حجن)
اغرابا يحتاج الى شرح لغوى ، ونبوا عن طبيعة الشعر •

أما الخروج عن البيئة العراقية الى غيرها بدافع التقليد والمحاكاة فقد
ابتلى به كثير من كبار الشعراء آنذاك ومنهم السيد ابراهيم الطباطبائي فقد
كان هذا الشاعر كثير التبدي فى شعره بينما كان يعيش فى النجف ويتردد
على بغداد ، ومن صورهِ البدوية قوله

هديتم سراة الحى مسقطنا الضال أميلوا رقاب العيس فالركب ضلال
أملوا بهاعن عالج نحو لعلع فلى فى محاننى سفح لعلع آمال^(١٠)
ولكنه يقول فى مكان آخر
بعسى صرت قسيسا وعفت الضمر العيسا

(٧) مطالع السعود - الورقة ٩٥

(٨) المصدر السابق - الورقة ١٠٦

(٩) المصدر نفسه - الورقة ١١٣

(١٠) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي - ص ١٩٨

ويخاطب صاحبه قائلاً

تركننا لك مأكولا ومشروباً وملبوساً
ولو تصلح باريس لقلدنك باريساً^(١١)

فأين باريس من لعل والضال ؟

وفى شعر السد محمد سعيد الجبوي صور بدوية كثيرة مع أنه كان كالطاطائي يعيش في النجف ويتردد على بغداد وينزع الى التجديد وقد جاءت هذه الصور البدوية حتى في الرثاء^(١٢) ولعل للسد الجبوي العذر في ذلك فان بعض أسفاره الى نجد والحجاز قد ترك في خياله أثراً للبادية وقد انعكس هذا الأثر في شعره غير أن ذلك كله لا يمنع من الحكم بجودة فنه ورشاقه اسلوبه ، وقد ذكرت هؤلاء الشعراء - ولاسما عثمان بن سند والجبوي - لأضع مثلاً للشعراء الذين عرفوا بالدراسة والاطلاع غير أن الجبوي كان يتجنب الوعورة والتكلف في شعره وان لم يسلم من المحاكاة والتقليد •

أما بعض الشعراء - أو كثير منهم - ممن شملتهم هذه الدراسة فقد كان عرضة للوقوع في الأخطاء اللغوية والنحوية وغيرها وذلك لعدم توفر الدراسة والثقافة ولقلة النقد الموجهين ، وبسبب هذا كان التفاوت بين بعضهم وبعض كبيراً في الأداء اللفظي وفي سلامة الأسلوب من تلك الأخطاء ، وسلامة الوزن من الخلل والاضطراب ، وهذا يعني أن العصر الذي ندرسه لم يكن شعراؤه جميعاً قد توفرت لديهم أسباب الشعر وقواعده فان كثيراً منهم - وفي هذا الكثير شعراء بارزون - قد وقع فيما يجب ألا يقع فيه شاعر يحرص على الفن وقواعده ومن هؤلاء عبدالغفار الأخرس فان لهذا الشاعر

(١١) المصدر السابق - ص ١٤٤ - ١٤٥

(١٢) راجع قصيدته في رثاء السيد حيدر الخلي في ديوانه وفي

مقدمة ديوان السيد حيدر نفسه ومنها قوله

الى النزوان العيس تلوى أعنة وهيئات ليست تملك النزوانا
وليست تشيم البرق من أبرق الحمى بلى قد تشم الشيخ والعليجانا

الرقيق أكثر من سقطلة فى اللغة والنحو وفى الوزن والقافة والاسلوب ومن ذلك قوله فى مدح بعض الوجهاء

ان أيامك أعــاد المنى حث كانت للامانى موسما
نظم الشعر لكم داعيكم فتقل فيك ما قد نظمنا^(١٣)

ولعل من الواضح ان اسلوب البيتين أقرب ما يكون الى العامة منه الى الشعر الفصيح ولس فيه شيء من الدقة والمتانة ، فالتعليل بحيث - كما فى الست الاول - لم يرد فى المأثور عن العرب ، وكلمة (داعيكم) فى الست الثانى تعبير عامى ، ثم مخاطبة المفرد بضمير الجماعة لست من التعابير الشائعة الا فى ريك الشعر ، وفى مكان آخر يخاطب الوالى داود فيقول فديتك لا (ترجو) لنطقى تكلمنا فان يراعى عن لسانى يترجم^(١٤)

فقد أبقي فعل (ترجو) على حالته وهو مسبوق بحرف جازم واذا صححنا للشاعر هذا الخطأ وحذفنا حرف العلة فان (مفاعل) المكفوفة لم ترد فى وسط الشطر من عروض الطويل الا فى النادر الضعيف ، أما استعمال نطق بمعنى لسان فهو من ضعف اللغة . وفى مكان آخر خرج الاخرس على موسيقى الوزن فقال

أعد اللهو فان العود أحمد وأدراها فى لجين الكأس عسجد
واسقنها قهوة عادية أخبرت عما مضى فى ذلك العهد

ان هذه القصيدة من الرمل ومن العروض الاولى والضرب الصحيح أما القافة فهى مقعدة ساكنة ولكن الشاعر خرج فى الست الثانى عن الضرب وسنح التفعلة بزيادة حرف وكرر هذه ا لزيادة فى قوله

فى رياض لعبت فيها الصبا وأذاعت سر نشر الشيخ والرند
وأردف ذلك فى تسعة أبيات اخرى من هذه القصيدة^(١٥) فأفسد موسيقى الشعر . وفى شعر عبد الباقي العمري ما يدل على عدم الغربة

(١٣) الطراز الانفس - ص ٣٧٤

(١٤) المصدر السابق - ص ٣٩١

(١٥) المصدر السابق - ص ١٠٢ - ١٠٤

والتمحيص ومن ذلك قوله فى مدح الشيخ عبدالقادر الكيلانى
أتى من العلم فى مثل الذى أتيا موسى وعيسى بتوراة وانجيل
وقوله فى القصيدة نفسها

وقل الترب من أعتاب سُدَّتْه وابد الخضوع بدمع منك مسبول^(١٦)
فقد جمع الشاعر فى البيت الاول بين الظاهر والضمير فى جملة
(أتيا) ، ووصل فى البيت الثانى همزة القطع فى فعل الامر (أبد) وجاء
بكلمة (مسبول) مكان مسل . وقال فى قصيدة اخرى يمدح بها أبا خيفة
قد كلفوه للقضا فأبى ولم (يرضى) وطال بسجنه استمراره^(١٧)
وفى هذا البيت أبقى الفعل (يرضى) على حاله وهو مسبوق بحرف
جازم . ومن تساهله فى ضبط العروض ما جاء له فى قصيدة يمدح بها
الامام عليا وأولها

أنت العلى الذى فوق العلا رفعا بطن مكة وسط البيت اذ وضعنا
فقد قال فيها

وأنت أنت الذى لله ما فعلا وأنت أنت الذى لله ما صنعا
وأنت أنت الذى لله ما وصلا وأنت أنت الذى لله ما قطعنا^(١٨)

فقد صرع الشاعر فى هذين البيتين بغير حرف الروي الذى يجوز
التصریح فيه فى خلال القصيدة ، ولكن العمرى قد اعتذر عن أخطائه
واعترف بضعف لغته فى بيت من قصيدة أرسلها الى الوالى يحيى الجليلي
عندما كان هذا فى الاستانة اذ قال

فان لسانى لا كما تعهدونه فقد أعجمته بالتكلم رومه^(١٩)
وقد وقع السيد جعفر الحلى فى أخطاء مماثلة ومنها قوله
حشاشتان التقتا كل ترى أن ليس فى الآخر كالذى بها^(٢٠)

(١٦) الترياق الفاروقى ص ١٦٦ - ١٦٧

(١٧) المصدر السابق - ص ٢١٣

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ - ١٠٠

(١٩) نزهة الدنيا الورقة ١٤٦

(٢٠) سحر بابل ص ٧١

فجاء بكلمة (الآخر) بدل الاخرى • وقوله

هداكم ربكم يا ركب نجد وأرشدكم الى الطرق النهاج^(٢١)

ولم يرد في كتب اللغة جمع نهج على نهاج • وقوله

يهدي لمأدبة لها سعة السما ركبت بها عدد النجوم فداح^(٢٢)

يريد الاقداح جمع قدح - بفتح الدال - أما الجمع الذي استعمله

فهو لقدح بكسر القاف وسكون الدال وهو هنا غير مناسب ولا معنى

له • وقوله

هل يصلح الناس لعلياه بلى فصالح للمكرمات صالح^(٢٣)

والمعروف في النحو أن (بلى) حرف جواب يأتي بعد الكلام

المنفي فيثبته •

وهذه الامثلة التي ذكرتها ليست كل شيء مما وقع فيه الشعراء من

أخطاء وانما هي من أبرز ما وقع فيه المشاهير منهم وقد سقتها للاستدلال على

قلة التمحيص والغربة والنقد • ولكن هذا كله لا يعني أن الذوق الادبي

كان غير موجود وان التمييز بين الغث والسمين وبين القوى والضعيف كان

مفقودا فقد وجدنا بعض الشعراء يضع نفسه ميزانا للشعر ويحكم بين

الاسالب ويفضل شاعرا على آخر تفضيلا فيه سلامة الذوق وحسن التأتى

ومن ذلك قول السد ابراهيم الطباطبائي

فقل قول من يرضى الرضى فعلى

ودع قول من يصفى الصفى فيسفل^(٢٤)

فان الشاعر هنا يعترف للشريف الرضى بالقوة والاصالة ويحث على

اتناع اسلوبه بينما لا يرى في شعر صفى الدين الحلى غير التسفل • وينتقد

عثمان بن سند أبياتا للشيخ صالح التميمي من قصيدة قالها في مدح الوالى

داود عندما ختن ولده يوسف سنة ١٢٣٥هـ ومما نقده قوله

(٢١) المصدر السابق ص ١١٠

(٢٢) المصدر السابق ص ١٢٠

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٣٨

(٢٤) ديوان الطباطبائي ص ٢٠٢

تسريل حلما فوقه تاج قدرة تسريل منه الجهل قس وأخف
وفد عد عثمان هذا البيت ذما لان تاج القدرة قد ألبس قيسا والاحنف

جهلا فهو اذن تاج جاهل • وقوله في وصف سطوة المدوح
إذا وعدت حيا يكاد وعيدها إذا ما قضى أمراً له العفو يخلف
وفد نقده بقوله ان خبر (يكاد) جملة (يخلف) وهذا الفعل لم
يرفع ضمير اسم (يكاد) بل رفع ضمير العفو • وقوله

رأت طهره والطهر للرجس داحض بدار وبعض القوم بالطهر سوفوا
والطهر لم يأت في اللغة بمعنى الختان^(٢٥) ، وأضيف الى هذا النقد
بأن كلمة (الطهر) شاعت في عامة العراق بمعنى الختان • ومن هذا يستدل
على أن لعثمان بن سند ثقافة تؤهله لان يكون حكما في دراسة الشعر مع أن
التميمي كان أشعر منه بكثير • ومع أن للتميمي رأيا في الشعر ساقه في
قصيدة أرسلها الى الوالى داود بعد أن نفى الى الاسطانة ، وكانت هذه القصيدة
ردا على (خالية) بطرس كرامة^(٢٦) وقد جاء فيها للتميمي قوله

اما وعلوم ضمها صدرك الذى براه اله العرش للعلم اذ برا
لحم غير صير (الخال) قبله مكان القوافى بالقوافى مكررا
لعمرك ما كعب ولا الشيخ قبله زهير بتكرار الروى تصدرا
ولست أرى المصوع الا مؤمراً ولست أرى المطبوع الا مؤمراً
وما الشعر الا ما أبانت صدوره قوافه لا ما السمع فه تحيرا
وغنى به الساقى على الكأس آخذنا علمك وان لم تشرب الكأس أسكرا^(٢٧)
فالشيخ صالح التميمي يميز هنا بين الاصاله والتقليد وبين الطمع

(٢٥) راجع القصيدة والتعليق عليها في (مطالع السعود) الورقتان

١٢٣ و ١٢٤

(٢٦) بطرس كرامة شاعر لبناني وقد ارسل الى داود قصيدة قافيتها

كلمة (الخال) مكررة في كل الابيات فطلب داود من الشعراء مباراتها

راجع (روض الخل والخليل - ديوان السيد عبدالجليل) ص ١٦٧ - ١٧٢
طبع مصر

(٢٧) راجع ديوان التميمي المخطوط ص ٣٨ - ٣٩ والمطبوع ص

٥٦ - ٥٧ وروض الخل والخليل ص ١٦٧ - ١٧٢ طبع مصر

والصنعة ويدرك الى حد كبير ميزة الشعر وأثره في النفوس هـ —
نظما مكرر الروى ، ولم يكتف التسمى بهذا بل أراد أن يكون قوى انجحة
حين ذكر كما وأباه زهيرا للتدليل على اصالة الشعر ، ولكن هذا كله لم يمع
التميمى من الوقوع فى الاخطاء التى لم يسلم منها شعره ولاسما تلك التى
تصل باللغة والنحو

صدق الشعور والاداء

الاثر الشعرى — أو أى أثر أدبى — تجربة تجول فى خاطر الشاعر
ثم يدفعها الى الاطار الخارجى بكلمات معبرة موحدة ولابد لهذه التجربة من
عاطفة وخال وموسيقى ولابد أن تتساوى هذه فى العمل الادبى لتتحول
التجربة الى قصيدة أو مقطوعة أو بيت ولس كل الشعر قد توفرت فيه هذه
الخصائص فقد تكون القصيدة ذات عاطفة وانفعال وخيال محلق ولكن
موسيقاها اللفظية لا تتساوق مع العاطفة والخال وقد تكون الموسيقى ذات
رنين وإيقاع ولكنها لا تعبر عن عاطفة صادقة أو خيال مشرق وقد تلتقى
العاطفة والموسيقى فى تجربة لا يسهم الخال فى عملها ، ولا شك أن الاثر
الادبى هو الذى تتوفر فيه هذه الخصائص الثلاث غير أنه لا يكون كاملا
ما لم تسنده حرية النفس فى التناول والاداء ولكن هذه الحرية قلما تتاح
للشاعر فى كل موضوع يتناوله فقد يكون مدعا فى الغزل والرثاء فى حين
يكون مخفقا فى تناول القضايا الساسة أو فى وصف ناحية من نواحي
المجتمع ، وسر الابداع هناك صفاء الحس وتوفر الحرية النفسية فى تناول
التجربة ، وسبب الاخفاق هنا ضعف الحرية النفسية فى نقل التجربة الى
اطارها الخارجى ، فلا بد حينئذ لكل عمل أدبى كامل من حرية تامة تتساوق
مع مستوى التجربة وهذه الحرية هى التى تدفع العاطفة الى الصدق ،
والخيال الى الابداع ، والموسيقى الى الرنين والمطاوعة . أما الشعر العراقى
فقد كان نصيبه من الاثر الادبى الكامل يختلف باختلاف الموضوعات
وباختلاف البيئات والازمان وباختلاف الشعراء ونفسياتهم وثقافتهم أيضا ،
هذا اذا تسامحنا فى الحكم والتقدير أما فى الواقع فان الاثر الادبى الكامل

قد يبدو مهزوز الكيان في شعر القرن التاسع عشر ذلك لان الثقافة لم تكن على مستوى عال يتيح للشاعر أن يتصرف في الالفاظ والتعابير كما يشاء فيلائم بين عناصر التجربة كما يجب ، ولكننا على كل حال لا نعدم في شعر القرن التاسع عشر صورا تبدو فيها ظلال الابداع الى حد كبير كما في بعض مراثي السيد حيدر الحلبي للامام الحسين أو في كثير منها ، واذا استثنينا هذه المراثي فاننا قد لا نعثر بالصورة الكاملة فيما تركه لنا شعراء العراق في القرن التاسع عشر ما دمنا قد قيدنا الاثر الادبي بهذه الخصائص اذ ليس من الممكن أن تلقى هذه الخصائص في أدب عصر غير واسع الثقافة ولا موفور الحرية واذا كانت الحرية والموسيقى قد التقيا في بعض الموضوعات كخمريات الجبوبي أو غراميات الشيخ عباس النجفي^(٢٨) فان صدق العاطفة عند الاول يبدو ضعيفا كضعف الخيال عند الثاني ، أما انفعالات الاخرس ووثبات احساسه وعاطفته في الكثير من ذاتيانه فانها تفتقر الى عنصر الحرية في تناول الاشياء التي سست له المتاعب والآلام وان كان حر النفس فيما نظم من وصف ملاهيه ومحافل سروره^(٢٩) ومثله بقية الشعراء الذين تناولوا الموضوعات السياسية في غير جانب الدولة أما ما كان منها في جانب الدولة فانه يحتاج في معظمه الى صدق العاطفة والانفعال وفي كثير منه الى التعبير المناسب والاداء المطاوع وهذه كلها غير متوفرة لدى الشعراء .

القديم والجديد :

الشعر تجارب لا تجول الا في حدود نفس الشاعر ومداركه ولا تنطلق الا في آفاق البيئة التي يحيا فيها ويتقل بين مناظرها ومشاهدها فلا يرسم الا ما تقع عليه عينه ولا يحس الا بما يدفعه اليه ادراكه وتفكيره ، وهما - أي الادراك والتفكير - ليسا على وتيرة واحدة عند الشاعر فقد

(٢٨) هو الشاعر العاشق صاحب القصيدة التي يقول فيها
عديني وامطلي وعدى عديني وديني بالصباغة فهي ديني
راجع قصته وقصيدته في (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر)
ص ٢١٠ - ٢١٨

(٢٩) راجع الطراز الانفس ص ٢٤٢ - ٢٤٣

يختلفان قوة وضعفا باختلاف الثقافة والاطلاع والانتقال من سن الى سن وفي أدبنا العربي أمثلة كثيرة لهذا التعريف فشر المتنبى في صباه أقل عمقا وتفكيراً من شعره بعد أن تجاوز الثلاثين • وشعر المعري في اللزوميات غير شعره في سقط الزند فالاول حافل بالمعاني والافكار الفلسفية والاجتماعية والثاني تقليدى ترسم فيه خطاً من قبله من الشعراء العموديين ، ومثل هؤلاء من شعراء العصر الحديث البارودى واسماعيل صبرى فى مصر فان الاول منهما بدأ شعره مقلداً متأثراً بمن سبقه من القدماء ثم استطاع أن يجدد وأن يضيف الى الصور المكتسبة صور طبيعية من نفسه أما الثانى فقد بدأ النظم بأسلوب تقليدى يبدو عليه الضعف ثم استطاع أن يرتفع الى القمة فى مرحلته الثانية ، وكثيراً ما ينطبق هذا التعريف على شاعرين بينهما تقارب فى الزمن فابن الرومى - مثلاً - غير البحتري فى عمق المعاني ودقة الصور ومثلهما فى القرن التاسع عشر الشيخ ناصيف اليازجى وابنه الشيخ ابراهيم فى تفاوت الاسلوب والموضوع فان الاول كان مقلداً ظاهر التكلف قد ملأت شعره الكلمات القديمة من الرقمتين والادراك وحاجز^(٣٠) بما كان يعيش فى لبنان ، أما ابنه الشيخ ابراهيم فهو صاحب القصيدة الثورية المعروفة التى يقول فيها

تنهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب^(٣١)؛

وفى ظل هذا التعريف للقديم والجديد نستطيع أن نحدد مسارب الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ونحن فيما قرأناه من هذا الشعر يمكننا القول بأن شعراء العراق فى هذا القرن ليسوا على شىء كبير من الادراك فى اختيار المادة ففقدت الثقافة الموجهة ثقافة ضيقة ليس فيها شىء من التيارات الحديثة التى لمستها مصر ولبنان وسوريا ولذلك بقيت الموضوعات

(٣٠) راجع (ثالث القمرين) ص ٢٤ و ٨١ طبع بيروت سنة

١٨٨٣م

(٣١) راجع (العقد) ديوان ابراهيم اليازجى ص ٥٦ - ٥٩ طبع

البرازيل

القديمة فدوة الشعراء العراقيين وأمثلتهم المفضلة ، والاساليب القديمة فوالبهم المختارة أما التجديد والابتكار فلا شيء منهما غير النادر القليل ، وهذا القليل لم تظهر فيه الدقة الفنية التي تناسب المادة المتخيرة للعمل الادبي فقد وصفوا بعض المخترعات الحديثة^(٣٢) التي شاهدوها في العراق ولكن وصفهم كان مقصورا على المظهر العام وليس فيه نفاذ الى الحزنيات والدقائق وكثيرا ما يستعنون على هذا الوصف والتشبيهات القديمة المعروفة ، ومن ثم يمكن القول بأن البيئة وحدها ليست من مقومات الشاعر بل هي مستودع يتزود منه مادة العمل ولكن تحويل تلك المادة الى صور تستوقف بالوانها وخطوطها واطارها وبما فيها من جمال وتعبير انما يتوقف على حس الشاعر وادراكه وعلى فكره الواعي المنظم ولا بد لهذا كله من دراسة واطلاع ولا بد من ثقافة حديثة متطورة تسمى الادراك وتغذى الخيال والشعور وتقوى ملكة الاستقلال في العمل والتجديد في وضع الخطوط والالوان والقوالب ، غير أن شعراء العراق اذا فاتهم التطور والتحديد في الموضوعات والمعاني^(٣٣) فان لهم من الاساليب والتعابير ما يجعلهم في القمة بين شعراء مصر والشام ولبنان ، ولعل مجموع الشعر في العراق أفضل في هذه الناحية من مجموع الشعر في الاقطار العربية الاخرى اذا اسسنا البارودي^(٣٤)

(٣٢) أشرنا الى المراجع في الحواشي ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ من الفصل الثالث - الباب الاول

(٣٣) من مظاهر التجديد الذي ظهر في مصر أناشيد الشيخ رفاعة الطهطاوي وان لم تكن قوية الاداء (في الادب الحديث ص ٢٩ ج ١ ط ٢) ومن مظاهر التجديد في الشعر السياسي قصائد الشيخ ابراهيم اليازجي (العقد ص ٥٦ - ٦٣) وقصيدة الياس صالح اللبناني المتوفى سنة ١٨٩٥م (تراجم مشاهير الشرق ص ٢٨٧ ج ٢ ط ٣)

(٣٤) ظهر في أواخر القرن التاسع عشر في العراق ثلاثة شعراء ولكن تجديدهم لم يظهر الا في القرن العشرين وهم الشيخ محمد جواد الشبيبي والشيخ عبدالمحسن السكاظمي وجميل صدقي الزهاوي وكان تجديد الاول والثاني في الموضوعات على الاكثر أما الثالث فقد جدد في المعاني والافكار أيضا وان كان أسلوبه وأدائه دون سابقه على ان ظهور التجديد عنده في الثمن العشرين لم يمنع من بعض المحاولات التي ظهرت له في أواخر القرن التاسع عشر

القيم الموضوعية والفنية في الشعر السياسي :

لعل في تلك الدراسة العامة التي قدمتها عن الشعر والشعراء ما يساعد على البحث في الشعر السياسي لأنه كالموضوعات الأخرى من حيث القوة والضعف في مسارب الشعور والعاطفة ، وفي ظلال الصدق والانفعال ، وهو مثلها في جمال الفن والأسلوب وفي ضعف هذين أيضا •

ولما كان الشعر السياسي قد قسم الى أربعة فصول فإن الحكم على الناحية الموضوعية فيه ليس بحكم واحد بل هو متعدد بتعدد الاتجاهات والملابسات والوقائع ، وأود في هذه الدراسة أن أتناول كل فصل على حدة •

الشعر والحوادث الوهابية :

ان الشعر الذي قيل في الحوادث الوهابية قد تنوعت أهدافه وتعددت جوانبه ولم يتساو فيه الشعراء من حيث الدوافع والبواعث ، فقد كان بعضهم مندفعاً بتأثير العقيدة الكعبية والازري ، وبعضهم كان مندفعاً بتأثير التقرب للدولة والولاء ، والطمع بشيء من العطف والقبول كالأخرس والعمرين وكل من نظم في حملة الوالي مدحة وهؤلاء لم يخرجوا عن حدود المدح الا في القليل • وبعضهم جمع بين الدين والسياسة كعثمان بن سند فقد نظر هذا الى الوهابيين من زاوية الدين فشنع بهم ورماهم بالزيف والضلال ، ونظر الى أعمال الدولة من زاوية التقرب والتعصب للسلطين والولاء فمدحهم وأثنى على أعمالهم المناهضة للحركات الوهابية ، وهو في الشق الاول يلتقي مع الكعبى والازري ، وفي الشق الثاني يلتقى مع بقية الشعراء المداحين •

وشاعر واحد سار في ركاب الدعوة الوهابية وهو السيد عبدالجليل الصرى • وقد مر في الفصل ذاته ايضاح تاريخي لما رافق شعر عبدالجليل وفي ذلك الايضاح ما يكشف عن دوافعه التي لم تكن عن شعور صادق •

ومجمل ما يقال عن هذا الشعر سواء أكان ضد الوهابيين أم كان بجانبهم لس فيه من المعاني ما يتناسب مع ذلك الاندفاع وتلك الكثرة المتنوعة

الصور ، وهو لا يستطيع أنه يسجل موضوعا هاما في الشعر السياسي الا بكونه جديدا في تاريخ الادب لانه ظهر بظهور الدعوة الوهابية ، وبكونه يستطيع أن يؤلف مادة من مواد التاريخ الادبي الحديث ويساعد على دراسة الحوادث الوهابية من حيث أثرها في العراق وصدائها في نفوس الشعراء •

ولا اريد أن استعيد شيئا منه في الدراسة الموضوعية فانه قد أخذ نصيبه منها في أثناء العرض العام هناك • ولكنني أود أن أقف منه بعض اللحظات في الدراسة الفنية لأرى ما له من نصيب ازاء الموضوعات الاخرى ، وما لكل شاعر من حظ في الاداء والتعبير •

لقد كان هذا الشعر من الوجهة الفنية يتفاوت بين الوسط والضعيف وليس فيه من الاداء اللفظي ما يسمو به الى مستوى الكثير من شعر الفصول الاخرى لان الذين تناولوه لم يكونوا كلهم من طبقة المشاهير الذين ترددت اسمائهم في بقية الفصول ، فقد كان هؤلاء أربعة عشر شاعرا اثنان منهم تلاقا في الفكرة وتقاربا في الاسلوب وهما هاشم الكعبي ومحمد رضا الازري ، ولكن هذين ليسا من مشاهير الشعراء ، وأربعة ترددت اسمائهم في الدراسات العامة وكان لهم شأن في البحث وهم عثمان بن سند البصري الوائلي وصالح التميمي والاخرس وابراهيم الطباطبائي وثلاثة يعدون في الطبقة الوسطى وهم حسين الحكيم الحلبي وأحمد عزة ومحمد أمين العمريان ، وثلاثة لم يكونوا سوى نظامين وهم أبو الحسن كوثر وأحمد رشدي والشيخ فليح ، وواحد مجهول الاسم ولكنه في عداد الطبقة الوسطى ، والاخير هو السيد عبدالحليل البصري الطباطبائي الذي سار وحده في ركاب الدعوة الوهابية •

أما الكعبي فقد جاءت له قصيدة واحدة في حادثة كربلاء بدأها بمطلع تقليدي النسيج وهو

أنت الملولم فمن يكون الأموما فلك الظما هيئات معسول اللمي
واستمر بعد ذلك يسرد الحادثة ويحشد لها الالفاظ الحزينة الباكية
وكان في سرده يصعد مرة ويهبط اخرى ولكنه كان متماسكا بين الصعود

والهبوط وهذا التماسك ساعده على تضيق الفجوات الصوتية فى سلم
الاداء • هبط فى المقدمة

يا سعد قف بى فى المنازل ساعة نكى فربت عبرة تروى ظلما
وصعد فى الوسط حين تحدث عن كربلاء

فاذا الرزايا لا تزال بربعها فذا تطرق بالخطوب وتوأمأ
وتماسك فى التحريض على الدفاع

ان كان همك ليس الا بالكفا فتكون نائحة وتسمع مغرما
ثم صعد مباشرة

فلم ادخرت من السيوف مصما لكريمة ومن الرماح مقوما (٣٥)

واحسب ان هذا الصعود الصوتى انما جاء من التضعيف فى بعض
الكلمات ، والتضعف يكسب البناء متانة وقوة أما أن تعابيره كانت تمثل
جانب التقليد فذلك شئ واضح • وأما الأذى فقد جاءت له ثلاث قصائد
لا يختلف أسلوبها التقليدى عن أسلوب الكعبى ، فقد كان الشاعر يتماسك
حينا ويهبط حينا آخر وقد يصعد فى بعض الأحيان • تماسك فى قوله

فيا قائد الجيش العرمم سحبه تزاخر عن ليل من النقع أليلا
ثم هبط بعد هذا البيت مباشرة

الام وها ضاق الزمان بوافد يضح ولا ساح يجير ولا ولا (٣٦)
أما الصعود فقد جاء فى قصيدته الثالثة وذلك فى قوله وهو يهدد

خصومه

وسرعان نزجها اليكم كتابا صواعقها بيض الطي والعواسل
عليها من الفتيان كل موحد أشم طويل الساعدين حلال

★ ★ ★

وساء صباح المنذرين اذا هوت صواعقها فى أرضكم والزلازل (٣٧)
والسيد حسين الحكيم جاءت له قصيدة واحدة يدل مطلعها على ذخيرة

(٣٥) راجع ص ١٢٣ و ١٢٤

(٣٦) راجع ص ١٢٦

(٣٧) راجع ص ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨

لفظية وجودة فى الاختيار • وهو قوله يخاطب الكتخدا
أقمت اعوجاج الملك بالسيف والعزم وشيدت ركنيه على مفرق النجم^(٣٨)،
وأما عثمان بن سند فقد أكثر من النظم فى هذه الحوادث ولكن ما
نظمه لا يدل على اصاله فنه ولا على شاعرية سمحة الاسلوب ، فان ذخيرته
اللغوية التى عرف بها كانت تسنده فى صحة التعابير وسلامتها من العيوب
ولكنها لم تسعفه فى التنسيق والانسجام • ومن ذلك قوله فى حادثة الخيانة
التى وقعت فى جيش الكتخدا

أسلمتهم للنائبات رجال عن هدى الله للمطامع مالوا
واستحلوا مال الوزير وقالوا ان مال الوزير لله مال
أبطنوا الغش للوزير وراموا كل ما فيه للوزير اختلال^(٣٩)،
فان الجنس بين (مالوا) و (مال) فى قافيتين متاليتين ، وتكرار كلمة
(الوزير) أربع مرات فى بيتين متالين أيضا ليس الا من طبيعة النظامين
المتكلفين لا الشعراء المجيدين •
وقوله فى حادثة كربلاء

سفك الدماء وظن أن صنعه ينجيـــــــــــــــــه
ولقد تجاوز حده فى كل ما يحييه^(٤٠)
وهذان السان لم يخلوا من الجنس الذى جاء ناقصا فى قافيتين
متابعتين •

ولكن ابن سند لم يفته الاداء الحسن فى بعض ما نظمه كقوله فى
مدح السلطان محمود

أمطرت « عارضهم » بعارض بندق فجزى به وادبهم فقدمرا

★ ★ ★

فتنافس الحرمان منك بعادل أمضى من اللث الهصور وأغيرا^(٤١)

(٣٨) راجع ص ١٢٨

(٣٩) راجع ص ١٣٠ و ١٣١

(٤٠) راجع ص ١٣١

(٤١) راجع ص ١٣٤

ولم يكن للتمييز غير بيتين أشرت الى قيمتهما الفنية في مكانهما هناك (٤٢) .

أما الآخرس فقد كان غير قليل النظم في هذه الحوادث غير أن شعره هذا لم يستطع أن يشب به الى السلم الذي وقف عنده في موضوعات الحماسة والشكوى والثورة النفسية . ولعله في ذلك لم يكن متأثرا بالجو أو منفصلا مع الحوادث ، ففوله في مدح الوالى مدحة

سمعت نجد اذا وافيت نجدا بقدم منك اقبالا وسعدا
أقل الخير عليها كله منجزا فيك بلطف الله وعدا
وأراد الله أن يعصمها من شرار كادت الاشرار كيدا
من الشعر الوسط الذى لم يخل من ركة في بعض الالفاظ التى لا
مكان لها فى ساق الاسلوب فقد وضع الشاعر (فى) الطرفة مكان (باء)
السبية فى البيت الثانى وجاء بكلمة (كد) قافية فى البيت الثالث واستعمال
الثلاثى معتل الوسط بالواو أو بالياء لم يرد فى قوافى الشعر الاصيل .
وقد أعجزه التمحيص فى قوله

اذ تصديت لأمر لم نجد قبل عليك له من يتصدى (٤٣)

فان استعمال المستقل فى المعانى الماضية دليل على اضطراب الازمنة
فى ذهن الشاعر وعدم تحديدها عنده وان كان من الممكن توجيه المعنى
توجيها مقبولا ، أما كلمة (عليك) فقد اقحمت فى البيت اقحاما ، ولكن
الآخرس لم يفقد شاعريته السمحة فى قصيدته التى مدح بها نقيب
الصرة اذ قال

لقد كفى العسكر المنصور نائبة تجثو لها نوب الدنيا على الركب
وقومت كل معوج ضوارمه وسكنت منذ وافى كل مضطرب (٤٤)
وقد دل الآخرس على ذكاء وفطنة فى البيت الاول اذ احترس بكلمة

(٤٢) راجع ص ١٣٤

(٤٣) راجع ص ١٣٥

(٤٤) راجع ص ١٣٧

(المنصور) لثلا يفسر كلامه تفسيراً ينسب فيه الضعف الى الجيش الذى ذهب الى الاحساء •

أما الشعراء الآخرون فلا حاجة للوقوف عندهم لانهم دون مستوى هؤلاء الذين استعرضت لهم بعض ما قالوا ولأن ما جاء لهم من الشعر لم يكن فى كفه الا مثل كيفه فقد كان طابع الاسفاف والانحدار الى المعانى العامة المبتذلة يغلب على شعرهم ولعل من أمثلة ذلك قول محمد أمين العمري وهو يخاطب الوالى (مدحة)

فانعم ظل الله سيفاً مجوهرًا عليك به أنف الشقاوة تجدع^(٤٥)

فان نصب السيف هنا غير مستساغ واستعمال كلمة (الشقاوة) انما جاء من التأثير التركي فانها قد أطلقت فى هذا العصر على المجرمين واللصوص فى حين أنها ليست كذلك فى اللغة اذ هى نقيض السعادة •

ولكن واحداً ممن بقوا لا يجوز استثاؤه من المتقدمين ولا يجوز حشره مع المتخلفين وهو السيد ابراهيم الطباطبائى فان هذا فى مقطوعته التى نظمها فى مدح السلطان عبدالعزيز لم يكن شاعراً كما كان فى كثير من قصائده القوية ، بل كان فى هذه المقطوعة ناظماً متكلفاً صعب القافية ، ولعل البيت الاول يكفى للدلالة على هذا الحكم ، وهو قوله

أعز ملوكنا عبدالعزيز أذل عداه بالاسل العزيز^(٤٦)

ويخيل الى ان الذى ساق الشاعر الى هذه القافية الثقيلة اسم (عبدالعزيز) • أما الجنس فهو دليل آخر على التكلف والصناعة •

وأما السيد عبدالجليل البصرى شاعر الدعوة الوهابية من بين شعراء العراق فان دراسة شعره هنا لا تعنى أكثر من اعادة الرأى مرة ثانية فقد أخذ فى الفصل نفسه حظه من هذه الدراسة • وكل ما يقال فيه هنا انه

(٤٥) راجع ص ١٤٠

(٤٦) راجع ص ١٤١

من طبقة النظامين الضعفاء ، ويكفى أن نستدل على ذلك بقوله
تساركت يا مولى الملوك الاعاظم
و (عزيت) يا مبدى الجميل وراحمى^(٤٧)

وقد ذكرت فى مكان البيت هناك ان الشاعر قلب (الزاى) ياء فى
الفعل (عزز) لان الشاعر لم يسلم من تأثير العامية •
وقوله فى قصيدة اخرى موجهة الى فيصل بن تركى
وأنهى لك الحال مذ غبت غالنا بفتك الدهر العبوس على عمد^(٤٨)

الشعر بين الحس العربى والشكوى :

فى هذا الشعر من الخصائص الموضوعية ما يسمو به الى حد بعيد
غير أن هذه الخصائص لم تتوفر لكل شاعر من شعراء هذا الموضوع لانهم
سلكوا فيه مسالك مختلفة وان كانت كلها تلتقى عند نقطة التذمر من الحياة
والتشكى من الضيم والذل ، وقد رافق هؤلاء الشعراء جميعا قلق نفسى
واضح ظهر فى كثير من الصور الشاكية المتألّة ، وليس لهذا القلق النفسى
من سبب غير اضطراب السياسة وتفكك المجتمع وعدم الاستقرار
والاطمئنان ، وضيق مسالك العيش الكريم ، وقد كان هذا كله من بواعت
الانتفاضات الحادة التى تجاوب فى معظمها اسلوب التعبير مع ثورة النفس •
وقد أوضحت فى مقدمة الفصل نفسه جانباً كبيراً من طريقة العرض التى
سلكتها الشعراء فى تصوير الظلم والذل ، واضيف الى ذلك ان كثيراً من هذا
الشعر كان يفقد عنصر الحرية التامة ويقف عند حدود الذات ، ذات الشاعر
وشخصته دون أن يتجاوزها الى المظهر العام أو يلمس الحقائق فى صورها
وأسبابها • وعنصر الحرية النفسية عامل هام فى معالجة المفاقد السياسية
 والاجتماعية ونقد الاساليب المعوجة ، وقد مر أن شعراء العراق كانوا
مأخوذين بتيار الحكم ومدفعين فى ركاب الدولة الاسلامية ، وكانوا بهيدين

(٤٧) راجع ص ١٤٣

(٤٨) راجع ص ١٤٧

عن آفاق التطور التي أتيح لغيرهم أن يدرك مداها القريب والبعيد ، وبتأثير ذلك كله اضطرب شعراء العراق بين الخوف من السياسة وبين الجمود العقلي فلم تتطور عندهم حرية النفس الى الصراحة والجرأة ، بل وقفوا عند حدود الشكوى والالام وترديد كلمات الذل والضميم والتهديد بحمل السلاح وخوض المعارك ولكنهم لم يشيروا الى مصدر الذل والضميم الا القليل منهم ممن بلغ به التذمر درجة لا يستطيع معها كبت الانفجار ، وهذا القليل لا يصور الا جزءا يسيرا من مفاصل الحكم الذي طغى واستشرى ، وأود أن أشير في مقدمة هذه الدراسة الى أبرز الصور التي يمكن أن تعد من الشعر السياسي الواضح في ثورته على الظلم والمساوىء لأدل على أهم ما في هذا الشعر من موضوعية أخذت حظها من حرية الانطلاق وان كانت في خطوات قليلة .

لقد كان الاخرس من أكثر الشعراء ألما وشكوى ، وأقدرهم تصويرا لذلك الالم وتلك الشكوى حتى لكاد يفعل معه ويستجيب له كل من يقف على تاريخ القرن التاسع عشر في العراق ، ولكنه كان يطل من نافذة ضيقة فلا يعرف من السخط غير ذم الحياة وبغداد والعراق والسكان ، وغير التعبير عن ألمه الناشئ من تجهم الحياة في وجهه والتواء طرق المعيشة أمامه ، وثقل لسانه الذي قد يكون عاملا نفسيا آخر ، غير أن لهذا الشاعر بعض الوثبات العامة التي لم تقف عند حدود الذات ، ومن ذلك قوله

بلد كـار ملوكه بقر صاروا ولاية النهى والأمر^(٤٩)

فان هذا البيت صورة صادقة للحكم في بغداد آنذاك ، وليس فيه الا الواقع الذي لا ينكر ، ومن ذا ينكر أن الكثيرين من الولاية والحكام والموظفين كانوا جهلة حمقى واذا لم يكن كل ذلك فيهم فهم - على الأقل - ليسوا من جنس المحكومين .

ولقد وقف الاخرس وقفات اخرى ليس فيها صراحة هذا البيت

ولكنها تنطوى على فكرة قوية وتجربة حادة توحى بما كان يحس به الشاعر من ظلم وذل ، كقوله

ألم يحزن الآبى نفوس تطامنت وفاخر رأس القوم فيه ذنابه
وأعظم بها دهاء وهي عظيمة اذا اكتف الضرغام بالذل غابه
متى ينجلي هذا الظلام الذى أرى ويكشف عن وجه الصاح نقابه (٥٠) ؟
لعل أى واقعى من الشعراء لا يأتى بأكثر من هذا التصوير للذل الذى خضع له حتى رؤوس القوم • ولعل أى واقعى يتساءل عن نهاية الظلم لا يتجاوز حدود استفهام الاخرس ، ولكن الشاعر - كما قلت - لم يكن فيلسوفا مفكرا يتناول الاشياء بمظاهرها العامة ويتعمق فى جذورها وعناصرها ويشرح أسبابها وبواعثها لان ذلك يحتاج الى حرية تامة ، تدفع الى التحليل والعلاج من كل النواحي •

ومثل الاخرس فى ضيق النافذة غيره من الشعراء ، وهم مثله أيضا فى قلة الخطرات الجريئة ، فالسيد صالح القزوينى كان صريحا فى بيت واحد ، وكان فى هذا البيت أكثر صراحة من الاخرس ولكنه لم يكن قوى الانفعال مثله ، أما البيت فهو

وكم للملوك التترك هتك لحرمة

لأهل النهى ، والغدر من شيم الترك (٥١)

والفرق بين الشاعرين ان الاخرس كان يعنيه ما يجرى فى العراق أو فى بغداد على الأقل ولا يهمه شأن الترك فى أى مكان آخر أما القزوينى فانه لم يجعل للقضة سورا - على حد تعبير المنطقة - بل جعلها مطلقة تشمل جميع الترك فى هذا الحكم الذى رآه وهو انهم هاتكون غادرون ، ولكن القزوينى لا يفقد العذر أو الدليل على حكمه لانه ابن بيته التى عاش فيها وشهد مراحل الحكم عشرات السنين ، فلم ير من الترك فى العراق غير ما عبر عنه فى هذا البيت •

(٥٠) راجع ص ١٥٨

(٥١) راجع ص ١٧٧

وأحمد الشاوى كان جريئاً صريحاً إلا انه كان مقتصدا فلم تكن ثورته الواقعية إلا فى لحظة خاطفة ولكنها من أخطر اللحظات فى حركة الشعور ، وكانت الصورة التى رسمها أشبه شىء باللمسة التوهجة بين المعادن الأخرى ولكى تسلم لهذا التشبيه قوته أعيد تلك الصورة وهى

امخترمى ريب المنون ولم اكن
لادرك للإسلام ثأراً من الشرك
وابرد من صهب العنانين غلتى
واشفى واستشفى بسيفى من الترك (٥٢)

ولكن الشاوى لم يوضح الأسباب التى دعت الى هذه الثورة على الترك ورميهم بالشرك - وهم مسلمون - ولم يبين لنا لماذا يتمنى أن يبرد غلته منهم بالسيف ، فقد يكون مسوقاً بثورة نفسية فى حدود ذاته وشخصه ، والواقع اننا لا نطالب الشاعر بأكثر من هذا ما دنا قد عرفنا تاريخ الحكم العثماني فى العراق ، وما دنا قد ألمنا بمكانة أسرة الشاوى فى بغداد وطموح هذه الأسرة الى أكثر من الوظائف الصغيرة المذلة •

أما عد الغنى الجميل فقد كان أكثر الشعراء تصويراً للحالة السياسية العامة فى العراق والخاصة فى بغداد ، وكان جريئاً فى ثورته على الظلم صريحاً فى قوميته • ولم تكن الصور التى رسمها من الصور القليلة العابرة ، ولا العدسة التى كان يلتقط بها مهزوزة أو مضطربة غير أن تركيزه لتلك العدسة لم يشمل كل الزوايا والابعاد فقد كان متدمراً من الحياة ساخطاً على أهل بغداد لانهم ساكتون خانعون ، وكان مليئاً بالاحساس العربى فى نخوته واستنهاضه ، وكان غير قليل الحظ من تصوير الظلم والمآسى إلا أنه لم يجرؤ على مخاطبة الأتراك وجها لوجه أو يشرح أسباب ثورته شرحاً واضحاً وأحسب أن قوله

فخيرهم للاجنبى وقبحهم
على بعضهم بعضا يعدونه حسناً

(٥٢) راجع ص ١٧٨

هو البيت الوحيد الذي أشار الى تايين العناصر في العراق واختلاف
الاجناس ومنها العنصر الحاكم الذي لا يمت الى العراق بصلة • اما أنه كان
معبرا في أكثر من نطاق الذاتية فذلك شيء واضح في شعره • واما أنه من
الركائز الرصينة في بناء الشعر القومي فذلك أيضا لا يحتاج الى دليل اذا
رجعنا الى قصائده ، ولس أشد حسا بالقومية ابان القرن التاسع عشر
من قوله

الا غيرة تدعو الصريخ اذا دعا
الا رافع عن قومه بنى ظالم
الا مبلغ غني سراة بنى الوغى
ليوم عبوس شره يوظف الوسنى
اذا فقدوا في الحرب من ينطح القترنا
واقال عرب كف صبرهم عنا^(٥٣) ؟

ومن قوله

أهم ومالي من مسعد
فأين سراة بنى هاشم
انادى ومالي من سامع
الى كم نراعى الخسيس الدنيء
فما لي في الكرخ من مسكن
وقومي كسالى ودائي الهرم
ومن لعظام الاعادى هشم
وهل يسمع القول من في صم
ونرعى له حرمة كالحرم
ولا في الرصافة مأوى العجم^(٥٤)

وقوله

وما ساد في أرض العراقيين ماجد
متى يلثم اللبات رمحي وترتوى
وحولى رجال من معد ويعرب
من الناس الا فدمها ورذيلها
سيوف بأغناق المطى صليلها
مصالت للحرب العوان قبيلها^(٥٥)

أما قصيدته التي يقول في أولها

لهفى على بغداد من بلدة
ود عشش العز بها ثم طار^(٥٦)

(٥٣) راجع ص ١٧٠

(٥٤) راجع ص ١٧١

(٥٥) راجع ص ١٧٣

(٥٦) راجع ص ١٧٤ و ١٧٥

من أخلد الصور في وصف بغداد الخاضعة الذليلة •
ولعل من الحسن أن أقف عند قصيدة العمرى التى يقول فى أولها
قد استحال العراق مفسدة ليس سوى ضرب السيف يصلحها
وأهله كالأغنام عاث بها أذوبة والكلاب تنبحها^(٥٧)
فان هذه القصيدة - على ما فيها من قلة الصراحة والجرأة - ذات
مغزى بعد فى تصوير السياسة الخرقاء •

غير أن الزهاوى كان أوسع الشعراء افقا وأعرق نظرة ، وقصيدته
بداية التحديد فى الشعر السياسى ، ولكن اقحام الزهاوى بين شعراء القرن
التاسع عشر لم يأت الا لأن القصيدة قد ولدت فى أواخر ذلك القرن •
هذه هى أهم الخطرات الدالة على حسن سياسى وشعور قومى وطنى ،
وإدراك واع لثقل الوطأة التركية فى العراق ، أما بقية الشعر فانها تعبير عن
آلام ذاتية ، ولكنها فى كل صورها تشير الى الذل والضم وتدعو لحمل
السلاح وخوض المعارك ، وهى فى كل ألوانها لا تفقد المغزى السليم الذى
ترمى اليه ، لان احساس الشاعر جزء من احساس مجتمعه ولاسيما اذا كان
ألمه ناشئا من ضيق الحياة وفساد الاحوال العامة •

وانى لاحسب - بعد هذه الدراسة - أن الشعر الذى جاء فى هذا
الفصل أقرب ما يكون الى الواقع منه الى أى شئ آخر ، وأصدق انفعالا
وعاطفة من الفصلين الاول والرابع ، ولكنه أعم من الفصل الثالث الذى
يكاد يكون جزء منه فى تصوير الظلم وقسوة الولاة والموظفين •

أما الفنة فى هذا الشعر فانها هى الاخرى كانت تختلف باختلاف
القابليات والملكات اللغوية ، فهى فى شعر الاخرس فنية مطاوعة منسجمة
مع الاداء الحسى فى كثير من الصور ، وهى أمتة الى حد كبير فى نقل
التجربة الشعورية الى الاطار الخارجى ، ولكن هذه الفنية لم تخرج عن
حدود الاسلوب القديم المصنوع من بقايا الميراث وان كان الصنع جميلا ملونا
ببعض الالوان الزاهية •

غير أن الذى يلاحظ فى شعر الآخرس ما فى الصور من تشابه وتكرار لأن هذا الشاعر قد يعيش فى ظلال التجربة الواحدة زمنا غير قليل وقد يقف عندها أكثر من موقف واحد فلا يكتفى منها برسم صورة واحدة بل كانت عاطفته التى تثوب وترجع الى ما كانت عليه تدفعه الى رسم الصور المتعددة لتلك التجربة ، وهذا التعدد جعله يكرر الالفاظ والتعابير أكثر من مرة ومن ذلك قوله

وبنات أفكار لنا عريّة لا يرتضين سوى الكرام بعبولا^(٥٨)

فقد تكررت هذه الصورة فى قوله

وبنات أفكار لنا عريّة رخصت لدى الاعجم وهى غوالى^(٥٩)

وقوله أيضا

ولم أرد مورد عذب شابه ضم رأى تكديره لما صفا^(٦٠)

فقد كرر هذه الصورة بقوله

ولو كنت ممن يشرب الماء بالقذى رويت وفى رى الذليل غليل^(٦١)

وقوله أيضا

ولست مقيما ما أقمت بمنزل وعيشي أنكاد تسوء وأنكال^(٦٢)

ومثل هذا قوله

تأبى المروءة أن أرانى واقفا فى موقف يدع العزيز ذليلا^(٦٣)

ومثله أيضا

عجبا لمثل أن يقسم بموطن متشابه الاشراف بالانذال^(٦٤)

(٥٨) راجع ص ١٥٦

(٥٩) راجع ص ١٥٩

(٦٠) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٨

(٦١) راجع ص ١٥٧

(٦٢) راجع ص ١٥٢ و ١٥٣

(٦٣) راجع ص ١٥٦

(٦٤) راجع ص ١٥٩

على أن هذه الخاطرة التي كررها الاخرس وترددت بكثرة في شعر
الآخرين لا تعدو فكرة الشريف الرضى حين قال

وما العيش عندي الا الأباء وبعدى عن المنزل المسباح^(٦٥)
وقد يستعير الاخرس معانيه وألفاظه من شاعر آخر ولكنها استعارة
ضعيفة مشلولة الحركة الى جانب المستعار منه ، كقوله

وادفع الشر ان علمت بشر ربما يدفع السقام السقام
وتقلد بالرأى قبل المواضي لس يسجدى بغير رأى حسام^(٦٦)
فقد أخذ هذين البيتين من المتنبي ، أما الاول فمن قوله
لعل عتك محمود عواقبه فرما صحت الاجسام بالعلل
وأما الثاني فمن قوله

الرأى قبل شجاعة الشجمان هو أول وهى المحل الثاني^(٦٧)
وأقف عند شاعر آخر من شعراء القومية وهو عبدالغنى الجميل ، فان
هذا الشاعر على الرغم من وثاقته الشعرية كان فى أدائه اللفظى قد يسف
بعض الاحيان ، وقد يتهاون باللغة وقواعدها ولكن بقلة نادرة ، ومن أمثلة
ذلك قوله

وقد بدلوا الغالى الذى تعرفونه بصفقة غبن لا تقيس بها غبنا
فان النفى فى قوله (لا تقس) ضعيف جدا ، والمناسب النهى لانه
أقرب الى ادراك الاديب •
وقوله

الا نخوة منهم فيصحوا الى التى أيادى سا قد غادرت ذلك المغنى
والمشهور أيدي سبا ، لان (أيادى) جمع يد التى هى بمعنى النعمة •
وقوله

الا مبلغ عنى سراة بنى الوغى وأقبال عرب كيف صبرهم عنا

(٦٥) راجع ديوان الشريف الرضى ص ١٩٢ طبعة بيروت

(٦٦) ص ١٥٣

(٦٧) راجع ديوان المتنبي

فان تنكير عرب قد أضف البيت •

وقوله

طوبىنا عن الزوراء لادردرها بساطاً متى ينشر يعدونه طعناً^(٦٨)

فقد رفع جواب الشرط على القاعدة الضعيفة •

وقوله

وأين الكماة الحماة الدعاة اذا شب نار الوغى واضطرم^(٦٩)

فانه حذف تاء التأنيث من فعل (اضطرم) فى حين أن الفاعل ضمير

يعود الى مؤنث •

ثورة الشعر فى ظل العقيدة :

العقيدة جزء هام فى حياة المرء لانها هى التى توجه العواطف والرغبات

وتؤثر فى العمل والسلوك ولاسيما بين الطبقات المتدينة •

وشعراء هذا الفصل ممن كان للعقيدة شأن عندهم لانها غرست فى

قلوبهم منذ الصغر ثم نمت وترعرعت فى أحضان البيئة ورسخت عن طريق

الدراسة الدينية ، ولهذا كان شعرهم فى ظل هذه العقيدة شعراً يمثل

صدق العاطفة والشعور •

وليست قيمة هذا الشعر فيما يتصل بالعقيدة حسب - وان كان ذلك

فى مناهج التاريخ الادبى وفى دراسة العقائد شيئاً هاماً - وانما قيمة هذا

الشعر أيضاً فيما يتصل بالسياسة التى أثرت فيه فأخرجته من النواحي الدينية

الخالصة الى الثورة على الظلم • ولكن أكثر الذين ثاروا عن طريق العقيدة

كانت آفاقهم ضيقة فى تناول السياسة ، وهم فى ذلك لا يعدون ما نظمه

بعضهم فى النواحي القومية العامة أو ما قاله الكثيرون من شعراء القومية فلا

انطلاق ولا حرية فى التعبير ولا أسماء ولا أشخاص سوى الضمائر المبهمة

(٦٨) ص ١٧٠

(٦٩) ص ١٧١

التي كثر ترددها في مختلف الصور !! ولعل ذلك ناشئ من الخوف وما يتصوره الشاعر أو يخشاه من بطش وتنكيل •

ومهما يكن من شيء في هذا الشعر فإنه لا يمكن أن يغفل شأنه في خطر الموضوع وبعد الاتجاه لان أخيلة الشعراء وآمالهم في قيام دولة عادلة ليست شيئاً هيناً في الموضوعات السياسية المناوئة • أما استهزاء المهدي فلم يكن الا اطاراً للصورة الثائرة وطاقة يستمد منها الشاعر قوة الاندفاع والاستمرار •

ولعل من أوضح الامثلة على انتظار الدولة العادلة وزوال دولة الفساد قول السيد صالح القزويني وهو يتخيل نداء جبرائيل واعلانه البشرى بأن قد

أقبلت دولة الرشاد وزالت عنكم دولة الفساد زوالاً (٧) فان هذا البيت في تفسيره الصحيح مصدر من مصادر التاريخ في وصف الدولة العثمانية ، وقد مر لهذا الشاعر قوله

وكم للملوك الترك هتك لحرمة لأهل النهى والغدر من شيم الترك واذا كان هذا الشاعر قد نسب الغدر وهتك الحرم الى الترك فان من غير المستبعد عليه أن يسمى الدولة العثمانية دولة الفساد •

أما أنه كان شاعراً بوطأة الظلم فذلك واضح من قوله
نمارس منهم كل يوم شدائد لها بين أخفاء الضلوع مقابس (٧١)
ومثل القزويني في النظرة الى الخلافة العثمانية الشيخ صالح الكواز فإنه لم يعترف بها لهؤلاء ، وذلك في قوله مخاطباً المهدي

فقم طالبا حق الخلافة معلماً فها هي في ايدي العدى تتلقف

* * *

وهذا لواء المسلمين بزعمهم على رأس أشقى العالمين يرفرف
وهذان البيتان صريحان في تسجيل اتجاه بعض الشعراء ونظرتهم الى

(٧٠) ص ١٨٧

(٧١) ص ١٨٩

الدولة العثمانية نظرة لا ترضى اعتقادها بأنها وارثة الخلافة الاسلامية في حين أنها في رأى الكواز لم تكن الا غاصبة •

وقد فسر الكواز جانباً من ثورته وعلل أسبابها بانتشار الظلم وضياع حقوق المظلومين

دعوتك للمظلوم ضاعت حقوقه وليس له من عصبة الجور منصف

وهذا البيت صريح في وصف الظلم والجور ولكن الشاعر كان يضغط على حريته النفسية ضغطاً شديداً فلم يجرؤ على ذكر اسم من أسماء رجال الدولة والولاة الحاكمين بل اكتفى بالضمائر كما فعل القزويني •

وفي شعر الكواز لمسة قومية لا ترى في العثمانيين من يصلح لحكم العراق لانه بلد معظم سكانه من العرب

أيملك أمر العرب من لا أباً له ولم ينمه منهم نزار وخندف (٧٢) غير أن الكواز كان يستمد هذا الشعور من عقيدته التي كانت لا ترى الخلافة الا في بني هاشم •

وممن لاذ بالضمائر ولم يصرح الشيخ حسن قفطان ، ولكنه استطاع أن يرسم بعض خطوط الظلم ويساعد على صدق التاريخ فيما وصف به الاتراك ، وذلك بقوله

أعزاء فنا نرتضيههم ، واننا اذلاء فيهم ، تلك قسمة اجبار !!
دعوا حرنا رقاً لهم فمتى نرى عليهم سمات الذل رقاً لأحرار ؟
سجا ليلنا جوراً ولم يعترض به من العدل فجر مستند باسفار (٧٣)

والسيد حيدر الحلي كان ثائراً غيف الثورة منفعلاً أشد الانفعال وكان شعوره بفداحة الظلم مندفعاً أشد الاندفاع ولكنه لم يجرؤ على مواجهة الحاكمين والتصريح باسمائهم بل اكتفى بالضمائر وأسماء الاشارة كما في قوله

(٧٢) ص ١٨٦

(٧٣) ص ١٩٠

أصبرا وهذى تيوس الضلا ل قد أمنت شفرة الجازر ؟
 نرى سيف أولهم منتضى على هامنا بيد الآخر
 وفيه يسوموننا خطة بها ليس يرضى سوى الكافر
 فنشكو اليهم ولا يعطفون كشكوى العقيرة للعافر^(٧٤)

ومثله السيد محمد القزويني اذ قال

فطبق ظلمهم الخافقين وعم على سهلها والحزن
 ولكن في هذا الشعر بيتا واحدا له أهميته في التاريخ السياسي لانه
 سجل ظاهرة عامة من ظواهر الحكم التركي وهي ظاهرة الرشوة ، أما البيت
 فللسيد ابراهيم الطباطبائي وهو قوله :

بلد به يرشى علانية والمرشى هو حاكم البلد^(٧٥)

واذا عرفنا أن البلد هو مدينة النجف المقدسة التي كانت تعيش على
 الخيرات والهبات ، وان هذه المدينة لم تسلم من الحكام المرتشين أدركنا
 خطر الرشوة في العراق وشيوعها بين الموظفين ، وأظن هذا البيت من
 الاشعة القليلة التي نتلمس على ضوءها خطوط الحكم العثماني في العراق
 ونظرة الحاكمين الى السكان .

أما الاساليب التي تناولت هذا الموضوع فانها لم تختلف بأية حال عن
 أساليب الشعر القديم ولكنها كانت أساليب مطاوعة منسجمة وليس فيها تكلف
 أو ضعف يقصر عن التساوق مع الفكرة . وسبب هذا أن الشعراء الذين
 مارسوا هذه التجارب كانت ملكة التعبير عندهم على جانب غير قليل من
 القوة ، ولكنهم لم يكونوا جميعا متساوين في هذه القوة اذ كان بعضهم
 أقدر من بعض على رسم التجربة ولعل الكواز والسيد حيدر الحلبي والسيد
 محمد القزويني في الطليعة من هؤلاء .

(٧٤) ص ١٩٤

(٧٥) ص ٢٠١

الشعر في ركاب الدولة

أما هذا الفصل - على ما فيه من تنوع كثير تبعاً للحوادث والمناسبات والوقائع - فانه من الوجهة الموضوعية ليس فيه ما يثير الانتباه سوى تسجيله تلك الحروب والحوادث والوقائع ، وسوى انه مادة من مواد التاريخ تصلح للاستعانة على تفسير بعض الجوانب السياسية في العراق ، ولذلك يمكن أن يقال عنه انه من الأدلة الحاسمة على صدق الثورة عند الشعراء في الفصلين الثاني والثالث بما سجل من حروب وثورات داخلية كانت نتيجة لفساد الحكم ، وطغيان الجور ، وان لم يكن هذا التسجيل مما كان يقصده الشعراء أو يهدفون اليه لانهم في الواقع لم يحاولوا غير المدح ولم يفكروا بغير الزلفى والتقرب وارضاء الحاكمين ، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الشعراء •

ولقد كان من الهين لو أنهم وقفوا عند حدود المدح ولكنهم أسرفوا في تشجيع القوى المناهضين لكل حركة وثورة ، ونشطوا مع الحكم نشاطاً كبيراً ، ولم يكونوا في ذلك كله الا مرآة لانفسهم وللدولة التي ساروا في ركابها والزعماء ورجال الدين الذين كانوا مماليين للحكم والولاء •

أما في غير الحوادث والحروب فلم يكن شعرهم الا مدحاً كاذباً لا عاطفة فيه ولا صدق ولا حس ولا انفعال ، وكيف يأتي الصدق في هذا الشعر الذي كان يعد لاستقبال وال وتوديع آخر ؟ •

واذا جردنا هذا الشعر من ناحيته التاريخية وكونه نافذة من النوافذ التي يطل منها المؤرخ على الحياة العامة في العراق فانه من أسوأ الموضوعات التي تناولها الشعراء ، وبخاصة تلك القصائد التي اندفع بها الشعراء أيام داود وعلي رضا ومحمد نجيب ومحمد نامق •

هذا هو الشعر المماليء للحكم في موضوعه وفكرته ، أما في أسلوبه وفنيته فقد كان الكثير منه تقليداً تزخرفه الصنعة بلا مهارة ويلونه البديع

بلا دقة ، وتكثر فيه المبالغات ويصعد به التهويل الى حد يجعل من الممدوح عملاقا جبارا •

ومن المبالغات الكاذبة فى هذا الشعر قول عثمان بن سند فى السلطان محمود

سل عنه دمعا سافحا والليل مسدول الكلل
وقول الاخرس فى السلطان عبدالعزيز

يقضى النهار بأحكام يدبرها رأيا ويتلو بجنح الليل قرآنا

وقول السد جعفر الحلى فى السلطان عبدالحميد

دول الممالك طأطأت لك هامها قدما فقد ألفت اليك زمامها
غير أن من المبالغات ما يكون جميل الصاغة عذب الالفاظ كقول

الاخرس فى مدح الوالى داود بعد أن نفى الى الاستانة

وكنت اذا طاشت سهام قسيها وقتى الردى من صنع داود أدرع
وقول الشيخ صالح التميمى فى مدح علي رضا عندما استولى

على أربيل

لا ترو عن فتح عمورية خبرا ففتح أربيل ما أبقى لها اثرا
وقول الزهاوى فى مدح الوالى عاصم

وكيف أخاف الدهر أو أرهب الردى

وقد لذت من صرف الزمان بعاصم

ولقد كان هذا الشعر لا يخلو من صور فنية جملة فى معانيها وأخيلتها

وموسيقاها ، ومن ذلك قول التميمى فى مدح علي رضا عندما صد قبيلة غزاة
عن محاصرة بغداد

سلوا حى بكر أين قوض وائله وفى أى أقطار تولت قبائله^(٧٦)

تجافت عن القصوم شوقا لباسق من النخل طعم النحل حينا يشاكلة

ففى البيت الثانى حركة ولون وطعم ، حركة القبائل وهى تتردد بين البادية والفرات ، ولون القيصوم والنخل والنحل ، وطعم العسل والتمر أما الخيال فقد امتد الى مسافات بعيدة فى رسم هذه الصورة اذ استطاع بيت واحد أن ينقلنا الى البادية حيث منابت القيصوم ثم يعود بنا الى شواطئ الفرات حيث مشابك النخل ، ويحملنا بعد ذلك الى الشمال حيث تكثر خلايا النحل • ولولا الجناس الناقص بين النخل والنحل ، ووضع كلمة (طعم) مكان (أرى) ، ولولا قرب الخاء والحاء المكررة فى الشطر الثانى وهى من الاصوات التى لا تأتلف فى حركة ايقاعية واحدة لكان البيت فى القمة من الشعر العربى الصافى •

تكرار الصور :

إذا كان من غير المستغرب أن يتسلف شاعر من غيره معنى أو تعبيراً فان بعض الشعراء كان يكرر ما ينظمه هو فى أمكنة مختلفة ومن ذلك قول الاخرس فى الوالى محمد نجيب عندما قمع ثورة كربلاء

محا البغى صمصام الوزير كما محا دجى الليل فى أضوائه مطلع الفجر^(٧٧)
فقد كرر هذه الصورة فى مدح المشير المجهول^(٧٨) اذ قال
تمحق الباغين عن آخرهم مثلما يمحو الدجى الصبح المنير^(٧٩)

ومن ذلك قول السيد جعفر الحلى فى السلطان عبدالحميد
دول الممالك طأطأت لك هامها قدما فقد ألفت اليك زمامها^(٨٠)
فقد كرر هذه الصورة فى مدح هذا السلطان أيضا فقال
لك طأطأت دول الضلال رقابها قدما فسيبك قد أذل صوابها

(٧٧) ص ٢٤٣

(٧٨) لقد مر فى الفصل نفسه ترجيح الوالى مدحة على غيره وبيان

أسباب الترجيح

(٧٩) ص ٢٤٧

(٨٠) ص ٢١٤

أما الاخذ من الشعراء الاقدمين فقد كان بابهم مفتوحا لهؤلاء الشعراء
ومن أمثلة ذلك قول الآخرس في السلطان عبدالعزيز
خليفة الله في الاقطار محترم ان العزيز عزيز حيثما كانا^(٨١)
أخذه من قول المتنبي
وهكذا كنت في أهلى وفى وطنى ان النفس غريب حيثما كانا^(٨٢)

الركعة

لم يخل هذا الشعر من بعض الابيات المسرفة في الركعة والضعف
ومن ذلك قول محمد الغلامى في يحيى الجليلي
خير بتذلل الطفافة فلم تزل صوارمه للمارقين تدوخ^(٨٣)
وقول عبدالجليل البصرى في السلطان محمود
جد لى وأطلق أسر نخلى من أذى الـ ٠٠٠ مبرى معافى لم يزل كمؤبد
وقد قلت عن هذا الشاعر انه من أضعف الشعراء أداءا ، وبسته هذا
لا يخلو من الكلمات العامة فكلمة (مبرى) بمعنى الضريبة الاميرية ، وكلمة
(معافى) عامة محرفة عن (معفو) •

ومن ذلك قول الآخرس في المشير المجهول
عدت منصورا بجند ظافر وجناب الحق مولانا النصير^(٨٤)
وكلمة (جناب) جاءت في البيت على غرار تعابير الدولة ورجال
الدين ، ولم يرد في الشعر العربى أن يعبر عن لفظ الجلالة بجناب الحق •
وهذه الايات التى عرضتها لست كل ما وجد من ضعف في هذا
الشعر ولكنها أمثلة للضعف •

(٨١) ص ٢١١

(٨٢) راجع ديوان المتنبي

(٨٣) ص ٢٥٢

(٨٤) ص ٢٤٧

أما الكلمات الجديدة التى عثرت بها فى هذا الشعر فهى كلمة
(مدفع) و (تلغراف) •

نظرة موجزة

ان هذه الفصول الاربعة من الشعر يمكن أن تكون قسمين من حيث
التقارب فى الموضوعات ، فالفصلان الاول والرابع متشابهان فى الاهداف
التى كانت تتجه الى ما يرضى الحاكمين ، والفصلان الثانى والثالث متشابهان
أيضا فى الاهداف التى كانت تتجه الى تصوير الظلم ، هناك مدح واسترضاء ،
وهنا ثورة وألم وسخط •

خاتمة

انتهى بي المطاف عند بداية القرن العشرين بعد أن امتد طيلة القرن التاسع عشر وقد تناولت في هذا التطواف شعر العراق حسب ووقفت من هذا الشعر عند موضوع واحد وهو الموضوع السياسي فقط فدرسته في أهم نواحيه وأغراضه وربطته بكثير من موحياته ودوافعه ونظرت اليه في أسلوبه وتعبيره كما نظرت اليه في موضوعه وأعطيت الناحيتين ما أستطيع من الحق في الدراسة والتحليل والنقد •

وإذا كان لابد من عرض موجز لقيمة الدراسة في هذا الموضوع ومقدار أهمية الفصول التي سجلت من تاريخ للسياسة أو وصف للمجتمع أو تصوير للحالة العلمية أو دراسة للشعر السياسي موضوع البحث فإن تناول هذا الجانب لا يعينني من الاعتراف بما لي وما على واعترافي بما على لا يتجاوز الفصل السياسي فاني لم أعمل فيه أكثر من الاستقصاء والتتبع والاطلاع على المراجع الموثوق بها والالمام بما يهم البحث من عناصر ومواد ثم جمع هذه العناصر والمواد ووضع كل منها في مكانه وقد راعيت في ذلك كله تتابع الزمن وتسلسل التاريخ والحوادث •

ولكن هذا لا يعينني أيضا من أن أدل على مواطن الجهد المتعب في استقصاء المراجع من أجنبي وعربي ومن مطبوع ومخطوط • ولعل أهمية هذا الفصل تتجلى في ربطه بالشعر السياسي لانه مفتاح الدراسة لهذا الشعر في ايجابيته وسلبيته •

أما الفصول الباقية فانها تختلف أهميتها باختلاف الجودة والطرافة

وباختلاف القيمة الموضوعية فما كان جديداً في وضعه وتبويه وتنويهه هو البحث في الحالة الاجتماعية ، وأهميته تبدو في ربطه بالشعر ولو من بعض الجهات ، وأقربها الى ذهن تلك المدائح التي أسرف فيها الشعراء نتيجة للتفكك والحاجة وضعف النفوس وتلك المفارقات التي لمسناها ازاء بعض الحوادث الداخلية ولاسيما حادثة كربلاء أيام الوالى محمد نجيب فقد وقف فيها بعض الشعراء بجانب الحكم بينما وقف بعضهم بجانب المحكومين ولعل سبب ذلك راجع الى تضارب العواطف الدينية ، ومثل هذا ما يقال من موقف عبدالباقى العمرى في بعض حوادث الاكراد فانه تناول هذه الناحية من زاوية العنصر ، ولا ننسى الشعر المستغرق في ظل العقيدة الشيعية فان صلته بالعاطفة الدينية صلة قوية .

أما الفصل الخاص بالحالة العلمية فانه أيسر ما يقال في هذا الشأن غير أن أهميته تظهر في تقسيمه بين عمل الدولة وعمل السكان وفي عرضه بعض النواحي التي نسيها الناس وأخفاها التاريخ في المهجور من سجلاته ، ولعل ربطه بالشعر يبدو في أثر الدراسة والثقافة بالقيم التعبيرية عند الشعراء ومقدار ما يملكون من لغة واسلوب .

وأما الشعر والحوادث الوهابية فانه أول بحث جمع فيه هذا الشعر المتناثر ونسق وفق الحوادث التي تناولها وروعى فيه ترتيبها الزمني وقد أشرت في بداية الفصل الخاص به الى مقدار أهميته في تاريخ السياسة والادب .

ولعل من أهم فصول الشعر ما تناول الجانب القومى والوطنى فانه أول بحث وضع لدراسة مفهوم القومية في العراق ابان القرن التاسع عشر ومدى صلة الشعراء بها وما قيل فيها من الشعر ، وهو أيضاً مفتاح لدراسة التطور في الشعر العراقي منذ أوائل القرن العشرين ولاسيما السياسى منه . أما الفصل الخاص بالشعر الذى أملتة العقيدة فانه أول دراسة كشفت عن جانب السياسة في هذا الشعر الذى كان معروفاً بأنه شعر دينى مذهبى وانه من خطرات الشعة في صوامع الابتهاال والمناجاة .

وأهمية الشعر الذي سار في ركاب الدولة والولاة تظهر في تسجيله للحوادث والثورات وبعض الاعمال التي استحدثها السلاطين والولاة وهو من جانب آخر يصور نفسيات الشعراء وسلوكهم العام بالاضافة الى كونه أول بحث جمع أكثر هذا الشعر وربطه بحوادثه ومناسباته ، وكونه مثل غيره من فصول الشعر في الكشف عن أثر السياسة في العراق وفي مسلك الشعراء خاصة .

أما الفصل الاخير فقد جاء غريبة للشعر العراقي في القرن التاسع عشر عامة وللموضوع السياسي منه خاصة . وليس لي أن أقدر جانب الاهمة فما عرض من القيم الموضوعية والفنية للشعر وفيما نص عليه من صور وأمثلة للقوة والضعف في الموضوع والاسلوب . اقول ليس لي ذلك بل أترك تقدير الجهد لمن تهمهم دراسة الادب الحديث في العراق وفي غير العراق .

استنتاج :

ولابد لي أن أسجل في هذه الخاتمة ما انتهت اليه هذه الدراسة من النتائج ، وأهمها كما يلي

- ١ - ان الشعر السياسي في العراق لم يجدد في موضوع السياسة^(١) كما حدث في مصر والشام بل سلك الطريقة القديمة التي اتبعها الشعراء .
- ٢ - ان هذا الشعر في اسلوبه وأدائه كان محافظا على عمود الشعر ولم يحدد في عرض الصور وطريقة التعبير عن المعاني ولكنه من حث القوة يستطيع أن يسير في مقدمة القافلة من الشعر العربي في القرن التاسع عشر .
- ٣ - ان هذا الشعر في مدائحه قد سجل لنا كثيرا من الحوادث في

(١) مما تجب ملاحظته ان موضوعات الشعر السياسي قد تغيرت وتطورت في أوائل القرن العشرين فان الشعر في الحوادث الوهابية قد انقطع بانقطاع الحوادث الا القليل النادر وشعر المدح قد استمر ولكنه تطور باختلاف الممدوحين والشعر المنبعث عن العقيدة واستنهاض المهدي قد قل ولم يتسع الا الشعر القومي والوطني

العراق وغير العراق من أجزاء الدولة العثمانية وساعد على توضيح شيء غير قليل من التاريخ السياسي في العراق وفيما حول العراق •

٤ - ان الشعر النائر منه قد صور بعض نواحي الظلم غير أن عنصر الصراحة كان ضعيفا في معظم المواقف ، ويكفى أن نعرف ذلك من كلمة (الترك) التي لم ترد في الشعر المناوئ الا بضع مرات ، ومن كلمة (الاجنبى) المستبد بخيرات العراق التي لم ترد - فيما ظفرت به - الا مرة واحدة في شعر عبدالغنى الجميل •

والرشوة التي كانت منتشرة في العراق بين طبقات الموظفين لم أعر على ذكرها فيما قرأته الا في بيت واحد للسيد ابراهيم الطباطبائي^(٢) وآخر للشيوخ صالح التسمى^(٣) •

٥ - ان الشعر النائر قد جنح كثير من أصحابه الى ذم بغداد مركز الحكم والى السخط على سكانها لانهم - كما يرى الشعراء - كانوا خاضعين وكان كثير من وجهائهم متزلفين للولاء •

٦ - ان الشعر الشيعى النائر كان أشد مناوأة للخلافة العثمانية لانها لا تصلح لحماية الدين والعدل ، وللولاة والحكام لانهم كانوا قساة ظلمة •

هذا هو الجديد الذى استطعت أن أصل اليه عن طريق الاستنتاج • أما الحديد الذى يمكن أن يضاف الى البحوث الادبية من هذه الدراسة فهم ان هذا البحث أول محاولة تناولت الشعر السياسى في العراق خلال القرن التاسع عشر وكشفت عن مناسبات بعض القصائد التي استقرت في الدواوين والمجموعات بدون اشارة الى بواعثها وموحياتها ومنها قصائد الاخرس في الوالى (مدحة) وقصيدة السيد صالح القزوينى في حادثة سجن (مطلق بن كريدى) زعيم خزاغة • وبعض قصائد عبدالغنى الجميل أيام الوالى محمد

(٢) ص ٢٠١

(٣) هو قوله في هجاء بعض المأمورين في أيام الوالى على رضا خنت الوزير الذى سواك من عدم وفيه نلت الغنى من بعد اعسار تبدى له النصيح فى معمول كاتبه وترتشى عن خراسان بدينار ديوان التميمي الورقة ٦٢

نامق ، وغير قليل من قصائد التميمي في الوالي علي رضا ، وقصيدة السيد حسين الحكيم في حادثة (عفك) أيام الوالي داود ، وأبيات السيد ابراهيم الطباطبائي في مدح السلطان عبدالعزيز أيام الاستيلاء على الاحساء •

ولا شك في أن جمع الشعر المتناثر في الدواوين والمخطوطات المعثرة وضم أجزائه في بحث واحد وانقاذ بعضه من الضياع ان هذا كله خير ، ما يدفعني الى التفاؤل بنجح المسعى والى كبير الظن بأنني قدمت شيئاً من الخدمة لأدب العراق وللباحثين في البلاد العربية عامة •

غير أنني أعتقد أن عملي هذا ما هو الا غرس شجرة في الحقل الكبير فعمى أن يجد المتسعون أكثر مما وجدت فضيفوا الى هذا البحث بحوثاً اخرى أكثر جدة وطرافة •

فهرست الموضوعات

مقدمة (ص ٣)

تمهيد - (ص ٧ - ٢٠)

الحالة السياسية والادبية في العراق قبيل القرن التاسع عشر
الاستيلاء العثماني - بداية المماليك - الحالة العامة - الثقافة العامة -
الشعر والنثر في هذه المرحلة •

الباب الاول (ص ٢١)

عوامل الشعر السياسي - ويشتمل على ثلاثة فصول

الفصل الاول (ص ٢٢ - ٧٠) :-

القسم الاول - الحالة السياسية في الدولة العثمانية
السلطين ونظام الحكم - أهم الحروب والحوادث - الحرب مع
روسيا - مع اليونان وجيرانهم - مع محمد علي الكبير - مع الوهابيين
في المرحلة الاولى - الحملة المصرية - مع الوهابيين في المرحلة الثانية •
القسم الثاني - الحالة السياسية في العراق
الولاية الكبرى والمماليك - بعد المماليك - الكذب على السكان •
الموصل والبصرة - الاجانب في العراق - ايران والعراق - الحوادث
الوهابية - الحوادث الداخلية - العراق والتيارات الحديثة •

الفصل الثاني (ص ٧١ - ٨٩)

الحالة الاجتماعية :-

صعوبة التصوير - نظرة موجزة - عناصر السكان - المظهر القبلي -
مظاهر الغنى والفقر - مظاهر الافراح والاحزان - الديانات والمذاهب -
أثر الدين في حياة السكان - التصوف وأثره - التباعد •

الفصل الثالث (ص ٩٠ - ١١٣) :-

الحالة العلمية والادبية : قبل البحث - نصيب الدولة من العلم والادب -
الحركة العلمية في العراق والمدارس العثمانية - المدارس القديمة -
مراجع الطالب - اختلاف المناهج وتنوع الدراسات - التأليف وأهم
المؤلفات - نثر المؤلفين والادباء - نهضة الشعر - موضوعات الشعر
وطريقة الاداء •

الباب الثاني (ص ١١٥)

الشعر السياسي - ويشتمل على تمهيد وخمسة فصول

تمهيد :- الشعر السياسي - معناه وتطوره • (ص ١١٦ - ١٢٠)

الفصل الاول (ص ١٢١ - ١٤٨) :-

الشعر والحوادث الوهابية في المرحلة الاولى - الشعر في المرحلة
الثانية • شاعر مع الوهابيين في المرحلة الاولى وفي المرحلة الثانية •

الفصل الثاني (ص ١٤٩ - ١٨٠) :-

الشعر بين الحس العربي والشكوى العامة
طرق التعبير - الفخر والحماسة - الشكوى من الحياة - شعراء
علويون - الثورة الجريئة - صوت جديد •

الفصل الثالث (ص ١٨١ - ٢٠٢) :-

الشعر في ظل العقيدة :-
بعض أسبابه وبواعثه - استنهاض المهدي - مقدمات في قصائد الرثاء -
قصائد مستقلة في الاستنهاض - وصف بعض الحوادث •

الفصل الرابع (ص ٢٠٣ - ٢٥٨) :-

الشعر في ركاب الدولة قبل البدء - الشعر في موكب السلاطين -
السلطان محمود الثاني - السلطان عبدالمجيد الاول - السلطان
عبدالعزیز - السلطان عبدالحميد الثاني • الشعر والصدور العظام

والوزراء • الشعر وولاية العراق • ولاية بغداد - الوالى داود
وشعراؤه - الوالى على رضا وشعراؤه - الوالى محمد نجيب
وشعراؤه • الوالى محمد نامق وثلاثة شعراء - الوالى مدحة وثلاثة
شعراء • الوالى مصطفى عاصم وثلاثة شعراء - الوالى سري الكريدى
وطائفة من الشعراء - ولاية آخرون الحاج حسن رفيق • عطاء الله
الكواكبي •

ولاية الموصل آل الجليلي وشعراؤهم • ولاية البصرة وحكامها - حسام
الدين الحلبي - محمد منيب - ناصر السعدون •

الفصل الخامس (ص ٢٥٩ - ٢٩٥) :-

القيم الفنية والموضوعية نظرة عامة في شعر القرن التاسع عشر - الشعراء
في مستواهم الثقافى - صدق الشعور والاداء - القديم والجديد -
القيم الموضوعية والفنية في الشعر السياسى الشعر والحوادث
الوهابية - الشعر بين الحس العربى والشكوى - ثورة الشعر فى
ظل العقيدة - الشعر فى ركاب الدولة - تكرار الصور - الركة •
نظرة موجزة •

خاتمة (ص ٢٩٧ - ٣٠١) •

فهرست المصادر والمراجع العربية والمترجمة

(أ)

- آراء الرصافي - تأليف معروف الرصافي • مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥١
أخبار بغداد وما جاورها من السلاطنة للسيد محمود شكرى الآلوسى •
(مخطوط) نسخة يعقوب سر كس - بغداد •
أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث • تأليف ستيفن همسلى لونكريك
وتعريب جعفر خياط • طعة بيروت •
أربع الهند والعود فى ترجمة أبى التاء شهاب الدين محمود • تأليف
عبدالفتاح الشواف (مخطوط) الحق بنسخة خطية من غرائب
الاغتراب • نسخة السيد هاشم الآلوسى - بغداد
الاسرار الالهية • للسيد محمود شكرى الآلوسى - طعة مصر •
الاسلام والحضارة العربية لمحمود كرد على - مطبعة دار الكتب - القاهرة
سنة ١٩٣٦ م •
أعلام العراق - لمحمد بهجة الاثرى • المطبعة السلفية - مصر •
الانقلاب العثمانى • لجرى زيدان •
أهداف الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر - ليوسف عز الدين - رسالة
الماجستير المقدمة الى جامعة الاسكندرية •
أوروبا والاسلام - بقلم أغا خان وزكى على - منشورات دار المكشوف -
بيروت •
أوليات سلاطين تركيا • لمحمد جميل بيهم • مطبعة العرفان - صيدا •

(ب)

- البابليات - للشيخ محمدعلى يعقوب - طبع النجف •
البادية - لعبدالجبار الراوى - الطبعة الثانية • بغداد •

بحار الانوار للمجلسي المجلد الثالث عشر - الملحق - ايران •
بغداد كما وصفها (السواح) الاجانب ترجمة سعاد هادي العمري -
بغداد •

البلدان - لابن الفقيه •

بواعث الحروب العالمية الاولى في الشرق الادنى - تأليف جان يشون -
تعريب محمد عزة دروزه • مطبعة الكشف • بيروت •

(ت)

تاريخ الانبياء العثمانيين - حسين ليب • مطبعة الواعظ • القاهرة • ١٩١٧ •

تاريخ آداب اللغة العربية • لرجي زيدان • مطبعة الهلال • ١٩٣١ •

تاريخ حرب الدولة العلية ودولة اليونان سنة ١٨٩٧م لكامل صدقي
وعبدالواحد حمدي - طبعة بولاق سنة ١٣١٥هـ القاهرة •

تاريخ الدولة العلية العثمانية - لمحمد فريد • طبعة ثانية سنة ١٨٩٧ القاهرة •
تاريخ الديوانية قديما وحديثا • للحاج وداي العطية • النجف •

تاريخ السليمانية - لمحمد أمين زكي • تعريب الملا جميل الملا أحمد
الروزياني • طبع شركة النشر والطباعة • سنة ١٩٥١م بغداد •

تاريخ الشعوب الاسلامة - لكارل بروكلمان - تعريب الدكتور نيه أمين
فارس ومنير البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت •

تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب • القاهرة •

تاريخ الكاظمين - للشيخ جعفر نقدي • بغداد ١٩٥٠م •

تاريخ مساجد بغداد وآثارها • للسيد محمود شكرى آلوسى - مطبعة دار
السلام - بغداد •

تاريخ الممالك في بغداد - لسليمان فائق - تعريب محمد نجيب الارمنازى -
مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •

تاريخ الموصل - لسلمان صائغ • الجزء الاول - القاهرة •

تاريخ نجد - للسيد محمود شكرى آلوسى • القاهرة •

تاريخ اليمن - للشيخ عبدالواسع - القاهرة •

تجارة العراق قديما وحديثا • ليوسف غنيمه - بغداد •

- تذكرة الشقيق الجامعة لمعرفة الطريق - للشيخ عبدالقادر الكيلاني
 مخطوطة دار الكتب بالقاهرة - ٢١٤٧٩ ب •
- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر - لرجي زيدان - الطبعة الثانية • دار الهلال - القاهرة •
- ترجمة الزهاوى - بقلمه - مخطوطة الاستاذ كوركيس عواد - بغداد •
- التصوف الاسلامى فى مصر • للدكتور توفيق الطويل - القاهرة •
- تضريح الخاطر - ترجمة الشيخ عبدالقادر • تأليف محمد صادق القادرى الشهابى عربها عن الفارسية عبدالقادر بن محى الدين الاربلى - القاهرة •
- تنزه العباد فى مدينة بغداد - للمعلم نابليون الماريني - بيروت ١٨٨٧ م •
- التوفيقات الالهامة لمحمد مختار - الطبعة الاولى - بولاق - القاهرة •

(ج)

- جزيرة العرب فى القرن العشرين • لحافظ وهبة - الطبعة الاولى • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة •
- الجمان المنضد فى مدح الوزير أحمد - لمحمد الغلامى - الموصل •
- جنة المأوى - للشيخ حسين النورى • ملحق - المجلد الثالث عشر من البحار • طبعة ايران •

(ح)

- حاضر العالم الاسلامى - تألف لوثروب سودار تعريب عجاج نويهض - الطبعة الثانية - القاهرة •
- حديقة الزوراء - لعبدالرحمن السويدي - مخطوطة - بغداد •

(خ)

- خلاصة تاريخ الكرد وكردستان - لمحمد أمين زكى • تعريب محمدعلى عونى • القاهرة •
- خلاصة الكلام فى بيان أمراء السبأ الحرام • للسيد أحمد بن زيني دحلان القاهرة •

- دائرة المعارف الاسلامية • (الترجمة العربية) • القاهرة •
ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون • عبدالرضا البغدادي - مخطوط في
مكتبة يعقوب سر كيس • بغداد •

دواوين الشعراء

- ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي - مطبعة العرفان - صيدا •
ديوان الشيخ ابراهيم اليازجي - (العقد) • طبع البرازيل •
ديوان الازري - الشيخ كاظم • بومبي •
ديوان البزاز الموصل • مصر • المطبعة الشرقية •
ديوان ابن عنين - دمشق •
ديوان الاخرس البغدادي (الطراز الانفس) استانبول •
ديوان عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقي) القاهرة •
ديوان السيد حدر الحلي (الدر اليبس) بومبي •
ديوان الشيخ حسين العشاري (مخطوط) مكتبة الآثار - بغداد •
ديوان السيد جعفر الحلي (سحر بابل) صيدا •
ديوان السيد صالح القزويني (مخطوط) مكتبة الآثار - بغداد •
ديوان السيد صالح القزويني (الدر الغروية) مخطوط - الآثار - بغداد •
ديوان الشيخ صالح الكواز (مخطوط) مكتبة يعقوبي - النجف •
ديوان الشيخ صالح التميمي - طبع النجف - ونسخة مخطوطة في بغداد •
ديوان الزهاوي (الكلم والمنظوم) - بيروت •
ديوان الشريف الرضي - بيروت •
ديوان السيد محمد سعيد الجبوبي - صيدا •
ديوان المتنبي - القاهرة •
ديوان الكعبي - الحاج هاشم - النجف •
ديوان السيد عدجلجل الطباطبائي (روض النخل والخليل) طبع الهند
والقاهرة •

ديوان الشيخ ناصيف اليازجي (ثالث القمرين) - بيروت

- ديوان ابي فراس الحمداني - ط ٣ - بيروت
- ديوان البارودي - القاهرة
- ديوان اسماعيل صبرى - القاهرة

(ذ)

- ذكرى السعدون - الشيخ على الشرقى - بغداد

(ر)

- الروض الازهر - السيد مصطفى الواعظ
- رسائل اخوان الصفا - القاهرة
- روضات الجنات - السيد محمد باقر الخنساري - طهران
- رحلة المنشى - ترجمة المحامى عباس الغزاوى - بغداد
- رحلة ريح - ترجمة بهاءالدين نورى - بغداد

(ز)

- الزهاوى الشاعر - اسماعيل أحمد أدهم - القاهرة

(س)

- سلاطين بنى عثمان الخمسة - الدكتور مارى ملز باتريك - ترجمة حنا صحن ورفيقه - بيروت

(ش)

- الشرق الاسلامى الحديث - حسين مؤنس - القاهرة
- شعراء بغداد وكتابتها أيام داود باشا - لعبدالقادر الخطيبى الشهربانى - بغداد ١٩٣٦م
- شعراء الحلة - الشيخ على الخاقانى - المطبعة الحيدرية النجف - ١٩٥١
- ١٩٥٣
- شعراء الفرى - الشيخ على الخاقانى - النجف - ١٩٥٤
- شماعة العنبر والزهر المغير فى ادباء القرن الثانى عشر - محمد بن مصطفى الغلامى - مخطوط - مكتبة الآثار - بغداد
- شهداء الفضيلة - الشيخ عبدالمحسن الامينى - النجف - ١٩٣٦م

(ص)

- الصابثون في حاضرهم وماضيهم - عبدالرزاق الحسيني - صيدا
- الصواعق الالهية في الرد على الوهابية - سليمان بن عبدالوهاب
- ط ٢ - مصر •

الصراع بين الموالي والعرب - الدكتور بديع شريف - دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٩٥٤ م •

(ع)

- على هامش العراق بين احتلالين - الحاج وداى العطية - العراق
- العراق بين احتلالين - المحامي عباس العزاوي - بغداد
- العرب - تاريخ موجز - فيليب حتى - بيروت - دار العلم للملايين
- عشائر العراق - عباس العزاوي - ج ١-٢ - بغداد •
- عبدة وذكرى - سليمان الستاني - القاهرة - مطبعة الاخبار سنة ١٩٠٨ •
- عبدالحميد من ولاية العهد الى المنفى - جلال نوري - ترجمة ابراهيم سليم
- النجار - مصر •
- عجائب الآثار في التراجم والاخبار - الشيخ عبدالرحمن البحري - القاهرة
- العراق - دراسة في تطوره السياسي - فيليب ويلارد آيرلاند - ترجمة
- جعفر خياط دار الكشف - بيروت - ١٩٤٩ •
- العقد المفصل - السيد حيدر الحلي - بغداد - مطبعة الشايندر •
- عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد - ابراهيم فصيح بن
- صبغة الله الحيدري - مخطوط - مكتبة الآثار - بغداد •
- عنوان المجد - عثمان بن بشر النجدي - مكة •

(غ)

- غرائب الاغتراب - أبو التناء الآلوسي - مطبعة الشايندر - بغداد
- غاية المرام - ياسين بن خير الله العمري - مكتبة الآثار - بغداد •

(ف)

- في الادب الحديث - عمر الدسوقي - القاهرة •

(ص)

- الصابئون فى حاضرهم وماضهم - عبدالرزاق الحسينى - صيدا
- الصواعق الالهية فى الرد على الوهابية - سليمان بن عبدالوهاب
- ط ٢ - مصر •
- الصراع بين الموالى والعرب - الدكتور بديع شريف - دار الكتاب العربى - القاهرة - ١٩٥٤م •

(ع)

- على هامش العراق بين احتلالين - الحاج وداى العطية - العراق
- العراق بين احتلالين - المحامى عباس العزاوى - بغداد
- العرب - تاريخ موجز - فيلب حتى - بيروت - دار العلم للملايين
- عشائر العراق - عباس العزاوى - ج ١-٢ - بغداد
- عبدة وذكرى - سليمان السنانى - القاهرة - مطبعة الاخبار سنة ١٩٠٨ •
- عبدالحميد من ولاية العهد الى المنفى - جلال نورى - ترجمة ابراهيم سليم
- النجار - مصر •
- عجائب الآثار فى التراجم والاخبار - الشيخ عبدالرحمن البحرى - القاهرة
- العراق - دراسة فى تطوره السياسى - فيلب ويلارد آيرلاند - ترجمة
- جعفر خياط دار الكشف - بيروت - ١٩٤٩ •
- العقد المفصل - السيد حيدر الحلى - بغداد - مطبعة الشايندر •
- عنوان المجد فى بيان أحوال بغداد والصرة ونجد - ابراهيم فصيح بن
- صبغة الله الحيدرى - مخطوط - مكتبة الآثار - بغداد •
- عنوان المجد - عثمان بن بشر النحدى - مكة •

(غ)

- غرائب الاغتراب - أبو التناء الآلوسى - مطبعة الشايندر - بغداد
- غاية المرام - ياسين بن خيرالله العمرى - مكتبة الآثار - بغداد •

(ف)

- فى الادب الحديث - عمر الدسوقى - القاهرة •

فى الادب المقارن - عبدالرزاق حميد - القاهرة •

(ق)

قلب جزيرة العرب - فؤاد حمزة - القاهرة •

قلب العراق - أمين الريحاني - بيروت •

(ك)

كتاب التوحيد - الشيخ محمد بن عبد الوهاب - القاهرة •

(ل)

لسان العرب - ابن منظور -

(م)

ماضى النجف وحاضرها - الشيخ جعفر محبوبة - صيدا •

مباحث عراقية - يعقوب سر كيس - بغداد •

مجموعة آثار رفيق العظم - مطبعة المنار - القاهرة •

المجد التالذ فى مناقب الشيخ خالد - ابراهيم فصيح الحدردى - القاهرة •

مجموعة تراجم العلماء - محمود شكرى آلوسى - (مخطوط) مكتبة الآثار

- بغداد •

مجموعة الشيخ محمد رضا الشيبى - بخط يده •

مجموعة عبدالغفار الاخرس - طبع شركة التجارة والطباعة - بغداد •

مجموعة للاخرس - لم تنشر - مخطوطة يعقوب سر كيس - ونسخة عليها

بخط يدى •

مختصر تاريخ بغداد - على ظريف الاعظمى - مطبعة الفرات - بغداد •

مختصر تاريخ الحلة - الشيخ يوسف كركوش - مطبعة العرفان - صيدا •

مختصر مطالع السعود - عثمان بن سند - بخط مختصره أمين اخذواى

سنة ١٢٩٣هـ نسخة دار الكتب بالقاهرة •

مختصر مطالع السعود - أيضا - بومبى - المطبعة الحسنة سنة ١٣٠٤هـ •

مذكرات مدحت باشا - تعريب يوسف كمال حتاته - القاهرة

المسألة الشرقية - مصطفى كمال - مطبعة الآداب - القاهرة سنة ١٨٩٨ •

- المسك الاذفر - السيد محمود شكرى الآلوسى - بغداد
- مشاهير الكرد وكردستان - محمد أمين زكى - ترجمة سائحة محمد أمين زكى - القاهرة
- مطالع السعود فى طب أخبار الوالى داود - عثمان بن سند البصرى - مخطوط - مكتبة الآثار - مع مراجعة مخطوطة مكتبة الاوقاف - بغداد
- مقامات الآلوسى - أبو الثناء - طبع كربلاء - العراق - سنة ١٢٧٣هـ
- مقدمة ابن خلدون - المكتبة التجارية - القاهرة
- الممالك فى العراق - أحمد على الصوفى - مطبعة الاتحاد الجديدة - الموصل
- من أمير الى سلطان - مصطفى فاضل - تعريب أحمد فتحى زغلول - مصر

(ن)

- نشر الآلىء على نظم الامالى - السيد عبدالحميد الآلوسى - بغداد
- نزهة الدنيا - عبدالباقى العمرى - مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد
- نشوء الفكرة القومية - ساطع الحصرى - القاهرة - ط ٢
- نشوء الشمول فى السفر الى اسلامبول - لابی الثناء الآلوسى - مطبعة الولاية - بغداد - سنة ١٢٩١هـ
- نشوء المدام فى العودة الى مدينة السلام - أبو الثناء الآلوسى - مطبعة الولاية - بغداد - سنة ١٢٩١هـ
- النهضة العربية فى العصر الحاضر - محاضرة لشكيب ارسلان - نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر - الدكتور محمد مهدى البصير - مطبعة المعارف - بغداد
- نيل الامانى فى الدستور العثمانى - عبدالمسيح الانطاكى - مطبعة العرب - القاهرة

(ي)

- اليزيدية - صديق الديمولوجى - مطبعة الاتحاد - الموصل

المراجع الاجنبية غير المترجمة :

- تاريخ جودت - المؤلف التركي - استانبول - ط ٢ •
- حروب الايرانيين - سليمان فائق (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
- دوحة انوزراء - رسول حاوي - (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
- الرسالة التسع عشرية - أحمد سهراب (فارسي) مطبعة السعادة - مصر •
- رسالة في تاريخ الكوله من (الممالك) - سلمان فائق (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
- مرآة الزوراء (تركي) - سلمان فائق - مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
- Baghdad The city of Peace
By Richard Coke. 2 no
London 1935.
- Travels In Mesopotamia
By —J—S—Bucingham.
Lonon 1827.
- Travels In Koordistan - Mesopot. Amia Etc
By Baillie Fraser.
London 1840.
- Travels of Robertker Porter.
London 1830 - 31.
- Modern Trends In Islam-
By: A.R. Gibb. 1950.

الدوريات والجرائد

- الاساس - جريدة - القاهرة
- البصرة - جريدة - صدرت في البصرة - العراق سنة ١٨٩٥ م
- بصيرت - جريدة - تركية - الاستانة
- تقديم وقائع - جريدة - تركية - الاستانة
- حولية الثقافة العربية - لساطع الحصرى - أصدرتها جامعة الدول العربية
- القاهرة السنة الاولى ١٩٤٩ م
- دار السلام - جريدة - بغداد سنة ١٩١٨ م
- الرسالة - مجلة - القاهرة - سنة ١٩٤٧ م
- الزمان - جريدة - بغداد ٢٩-٤-١٩٥٠ م
- الزوراء - جريدة - بغداد
- سومر - مجلة - بغداد
- سالنامه - تقويم سوى - بغداد سنة ١٣٢٩ هـ
- سالنامه - تقويم سوى - انصرة سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١ م
- سالنامه - تقويم سنوى - الموصل سنة ١٣٣٠ هـ - ١٩١١ - ١٩١٢ م
- الشعب - جريدة - بغداد العدد الصادر بتاريخ ٢٩-٢-١٩٥٥ م
- الطليعة - مجلة - دمشق - ج ٧ س ٥ سنة ١٩٣٩ م
- العرب - جريدة - بغداد سنة ١٩١٧ - ١٩١٩ م
- لغة العرب - مجلة - بغداد مجموع السنوات
- مجلة المجمع العلمي العراقي - بغداد ج ١ م ٣ سنة ١٩٥٤ م
- مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة ج ٧ سنة ١٩٥٣ م
- اليقظة - جريدة - بغداد ١٩-٢-١٩٥٠ م

المركز القومي للدراسات والبحوث
لغة العرب

